أصحاب الامتياز
منير البعلبكي - سهيل ادريس - بهيج عثمان

المدير المسؤول : بهيج عثمان
رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

Directeur BAHIJ OSMAN
Rédacteur en chef SOUHEIL IDRISS

الآداب
مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر
تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص.ب ١٠٨٥ — تلفون ٢٣-٠١

AL-ADAB : REVUE MENSUELLE CULTURELLE
BEYROUTH - LIBAN BP 1085
Tel 23 - 01

العدد الاول
كانون الثاني (يناير) ١٩٥٤
السنة الثانية

No. 1 - Janvier 1954
2ème Année

« الآداب » في عامها الثاني

بهذا العدد ، تدخل « الآداب » عامها الثاني وهي اشدّ ما تكون اعتزازاً بمؤازريها من الأدباء والقراء ، واوفر ما تكون ثقة بنفسها وايماناً برسالتها .

لقد استطاعت هذه المجلة الفتيّة ان تجتذب اليها ، منذ العدد الاول ، جيلاً من القراء كانت تعصف بهم حيرةٌ وقلقٌ مردُّهما الى انهم كانوا يبحثون عن مجلة تستجيب لطائفة من نزعاتهم في حقليْ القومية والفكر ، فلا يجدونها . واذا كانت « الآداب » قد استطاعت ، في أشهر قليلة ، ان تقفز الى الطليعة ، فلأنها وَعَتْ حاجات هذه النخبة من القراء ، فحملت رسالة ورسمتْ خطةً وسعتْ إلى غاية .

ولا ريب ان نجاح «الآداب» في اكتساب هذا العدد الوفير من القراء ، في مختلف الاقطار العربية ، دليلٌ على ان ما يدعونه بـ « أزمة الأدب » ويعزون اليه موت عددٍ من كبريات الصحف الأدبية ، هي قضيّة ينبغي ان تطرح للبحث من جديد وعلى صعيد آخر .

وليس هذا مجال التبسّط في هـذا الموضوع ، ولكننا نجتزيء بالاشارة الى ان أهمّ سبب من اسباب النكسة الأدبية في بلادنا ، افتقارُ المجلات التي كانت قائمة والأدب الذي كانت تنشره هذه المجلات الى وعي رسالة تفرضها جبرية الواقع العربي .

ولقد نهضت « الآداب » على وعي عميق لهـذا المعطى ، فرسمت لنفسها رسالةً تستمدّ مقوّماتها من هذا الواقع ، من أجل معالجة هذا الواقع بالذات . ولذلك التزمت المجلة الدعوة الى دعم الاتجاهات الادبيـة التي تنبثق من وضعنا الحاضر ، كحاجات حيوية في سبيل حياة فضلى .

وإن من يستعرض اعداد السنة الاولى من هذه المجلة يتبين انها تلحّ ، اكثر ما تلحّ ، على اتجاهين : اولهما وأهمها دون ريب محاربة الاستعمار الذي ترزح تحته الامة العربية ، اياً كان شكل هذا الاستعمار ، واية كانت الدولة الأجنبية التي يصدر عنها . واما الاتجاه الآخر ، فاستيحاء المجتمع العربي الادب الذي يحتاج اليه هذا المجتمع ، الادب الذي ينبع منه ويصب فيه .

ولا شكّ في ان تاريخ الادب العربي المعاصر سيذكر بفخر ان جيلاً واعياً من الادباء قد بدأ يسجّل نجاحاً عظيماً في التعبير عن هذين الاتجاهين ؛ وعن اتجاهات هامـة اخرى لا يتعدّى فضل « الآداب » فيها أمر نشرها وحصر تيّارها الدافق ، الذي كان متوزعاً ضائعاً ، في قناة موجّهة لخدمة الامة العربية في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ حياتها .

فلا عجب إذن ان تكون هذه المجلة الفتية موضع ثقة الكاتب والقاريء على حدٍّ سواء ، وان يكون هذا التصادي بينهما هو السبب الاهمّ في دفعها الى الصعيد الادبي الاول في العالم العربي .

على اننا ابعد الناس عن الإعتقاد بانّ هذه المجلة تؤدّي رسالتها على الوجه الأمثل . فالحق انهـا لا تفعل الاّ ما تستطيعه ، وما تمكّنها منه ظروفها ، لا ما تنشده وتتمنّاه . غير انها تحاول كلّ يوم ان تبزّ نفسها وتتفوّق على ذاتها ، وهي اشدّ ادراكاً لثقل الرسالة التي تلتزمها ، والتي ستظلّ مخلصةً امينة لها ، هازئة بكلّ تهمةٍ مغرضة يوجهها اليها بعض من يتأكلهم الحسد او الضغينة ، من الموتورين صغار النفوس .

★

وبعد ، فيسعد « الآداب » ان تستهلّ عامها الثاني بهذا العدد الخاصّ بالقصة ، وهو اللون الذي يثبت يوماً بعد يوم تفوّقه على سائر الالوان الادبية في نتاجنا المعاصر ؛ وإن هذا العدد لجهدٌ متواضع تضيف به « الآداب » لبنةً جديدة الى البناء الثابت الذي تقيمه خدمة للادب العربي ، هذا الادب الذي ينشد لنفسه ولأمته حياة افضل .

الآداب



ثائرات

قصة جديدة
بقلم
ميخائيل نعيمة

ليلٌ عابق بانفاس الربيع، طافح بشعاع القمر، مزمّل بجلابيب سكينة تتلاقى في غضونها كل أصناف القلوب – وقلوب العشاق على الأخص.

ولكن الفتى والفتاة الجالسين تحت عريش من الياسمين في حديقة الجامعة، ما كانا يتطارحان الشوق والهيام. إنهما طالبان في السنة الرابعة من كلية الآداب، والوجوم البادي على وجهيهما أبعد ما يكون عن وجوم عاشقين خانهما النطق او تنكر لهما الحب. لقد طال سكوتهما، وما كان يجدي الفتاة أن تتنحنح من حين الى حين. فجليسها قد تسمّرت عيناه بالارض وتبكل فكّاه، فما تتحرك له شفة. وأخيراً ضاق صدرها، فأخذت الكتاب الملقى بجانبها على المقعد، ووضعته في حضنها، ثم ضربت عليه بكفها وقالت:

- واخيراً؟ أما آن ان تنطق يا فؤاد؟

فانتفض فؤاد كمن كان في سبات عميق، وهزته بغتة من كتفه هزة عنيفة. ومن غير ان يرفع بصره عن الأرض أجاب بصوت متلجلج:

– بلى. بلى. عذرك يا ثريا لكأن لساني قطعة من الحديد في فمي.

– ولماذا؟ أما جئت بي الى هنا لتفضي الي بأمر جلل؟ فما هو ذلك الأمر؟ أم لعله من الهول بحيث لا تستطيع ان تتحدث عنه؟

– إنه لكذلك يا ثريا. ومن ثمّ فالخجل يعقل لساني.

– الخجل؟ وممّن؟

– منك يا ثريا ومن... نفسي.

– مني؟! لكأنك ما عرفتني قبل اليوم، وكأننا ما لعبنا معاً صغيرَيْن في ساحات القرية، ولا نحن ندرس اليوم دروساً واحدة في جامعة واحدة.

– ليتنا ما كبرنا. بل ليتني وحدي ما كبرت. بل ليتني ما ولدت.

– فؤاد! ما هذا الذي تكلمني به؟ وأمس كنت تبني القصور والعلالي وتفرش الدنيا رياحين. ماذا حلّ بك ما بين أمس واليوم؟

– أمس كنت إنساناً.

– واليوم؟ .

– واليوم... اليوم أنا...

وخيّل الى ثريا ان الفتى الجالس بجانبها قد غصّ بريقه – بل بدمعه. فانقبض قلبها عطفاً عليه. وشاءت ان تقول شيئاً يزيل غصته فما وجدت على الفور ما تقول. واكتفت بأن اخذت يده في يدها وشدّت عليها بكل قوتها. ومن بعد فترة من الصمت المرهق عادت فقالت:

– أتبكي يا فؤاد؟

فاجابها والغصّة تخنقه:

– لا. وحريّ بي ان أبكي.

– ما عهدتك مائع العينين والقلب.

– ولا عهدتني... لصّاً.

وقعت الكلمة الاخيرة على ثريا وقع الصاعقة. فما كادت تصدق أذنها. وكانت تجزم بأن جليسها يمزح لولا الاضطراب العميق البادي في ملامحه وفي صوته وفي كل حركة من حركاته. أيمكن ان يكون لصاً هذا الشاب الذي غالب اليتم والفقر منذ الصغر فشق طريقه من الدراسة الابتدائية الى الثانوية الى الجامعية بالصبر والحرمان والجهد المضنك وبإرادة من فولاذ؟ صحيح أن امّه ساعدته كثيراً بما كانت تنتجه من تعب يديها. إذ كانت تغسل وتخبز بالاجرة للاغنياء، ولا تحجم عن القيام باي عمل، مهما يكن خسيساً وشاقاً، ما دام يأتيها بالقرش تنفقه على تعليم وحيدها. ولكنها اصبحت طريحة الفراش منذ عامين. وفؤاد مضطر ان يعولها وأن يعول نفسه ويقوم بنفقات دراسته. وها هو قد بلغ سنته الاخيرة، وبينه وبين الشهادة الجامعية شهر وبعض الشهر. وهو متفوق في جميع دروسه. والكل من اساتذته ورفاقه يتنبأ له بمستقبل باهر. فمواهبه لا شك في غزارتها، واخلاقه مضرب المثل، وعلى الأخص عزة نفسه. فما عُرف عنه يوماً، رغم ضيق ذات يده، انه اقترض فلساً من إنسان او طلب معونة، مهما يكن نوعها، من اي مخلوق.

لقد كانت ثريا، وقد عرفته منذ حداثته وعرفت الكثير عن ظروفه القاسية، اشد رفاقه اعجاباً بذكائه، وسمو تفكيره ومناعة خُلقه، وتقاوة رجولته. ولكم تحدثت اليه في شتى الامور. فكان يدهشها بقوة حجته، وجميل بيانه، وعمق تفكيره. وهي تذكر في ما تذكر قوله لها مرّة إنه يشكر

الله لانه ولد فقيراً لا غنياً . فالفقر ليس عاراً . وإنما العار في الذي والاستكانة للفقر . والفقر دون الذل والاستكانة أعظم مدرسة في الارض . اما الغني فشرّ ما فيه غطرسته وبهرجته . والغني المتغطرس يحفر قبره بظلفه . وذلك بما يثيره في المحرومين من حسد وحقد وضغينة لا تلبث ان تتفجر قلاقل وثورات وحروباً .

وازدحمت الذكريات والصور في ذهن ثريا . فما استطاعت ، كيفما قلّبتها ، ان تستنتج من اي منها ، او من مجموعها ، ان الشاب الجالس بجانبها يمكن ان يكون يوماً من الايام لصاً ، مهما قسَت عليه الظروف ، ومهما بلغت به الحاجة . ذلك هو المستحيل بعينه . وانتهت بان اطلقت قهقهة عالية وضربت جليسها على كتفه وقالت :

— السلام يا سيد اللصوص . بقي ان نعرف اذا كان ما اصطدته اليوم يؤهلك لهذا اللقب الرفيع . هات برهانك .

ولكنها ، ما إن فاهت بمداعبتها تلك حتى ندمت عليها وتمنّت لو تستطيع ان تستردّها . ففؤاد راح يرتجف كالورقة وينتفض انتفاضة العصفور الذبيح . وطالت رجفته وتسارعت انفاسه حتى خشيت عليه من عارض لا تحمد عقباه . فانعقل لسانها ، وتبللت عيناها ، وما بقيت تدري ماذا تقول او ماذا تفعل .

مرّت دقائق والفتى والفتاة في صمت رهيب ، والقمر يحتجب تارة بغمامة بيضاء وطوراً يسفر كأنه والارض يلهوان بلعبة كالتي يلعبها الصغار إذ يختبىء الواحد فيفتش عنه الآخر . واخيراً مدّ فؤاد يده الى جيبه واخرج منها شيئاً ثم طرحه بسرعة في حضن ثريا وكأنه يطرح عقرباً او ثعباناً . وقال :

— اليك البرهان .

وتناولت ثريا ذلك الشيء وتأملته في نور القمر ، فاذا به سوار من الذهب الخالص ، البديع الصنع ، وقد رُصّع بالياقوت والألماس . وظلت دقائق تتفحصه وتقلّبه ذات اليمين وذات اليسار ، فكأنها مبهورة بجماله ولمعانه . ولكنها ، في الواقع ، كانت تفعل ما تفعله وهي في شبه انخطاف . فلا فكرها ولا بصرها كانا مركّزين على السوار في يدها . واخيراً لبسته على معصمها وبرمته برمتين ثم التفتت إلى فؤاد وقالت :

— شيء بديع . وبديع جداً ، إن يكن هذا صيدك يا فؤاد وانت ما تزال في اسفل سلم اللصوصية ، فكيف بك اذا بلغت ... ؟ هات ، اخبرنا من اين و كيف ؟

ما كادت ثريا تلفظ الكلمة الاخيره حتى وثب فؤاد الى قدميه ، وانتصب امامها كالعمود ، ثم انحنى قليلا وراح يقذف الكلام من فمه كأنه هذيان المحموم ، ولكن بنبرات سريعة ، وبصوت خافت . فكأنه كان يخشى ان تسمعه حتى الياسمينة التي فوق رأسيهما :

— انا رجل هالك يا ثريا — هالك الى الابد . اتفلي في وجهي . العنيني . اصفعيني . اركليني . ولكن رجوتك ان تسمعيني . ولمن عساني اعترف إن لم يكن لك ؟ انت ما افسدك الغنى . ولقد اذلني الفقر . اذلني ساعة ظننتني اذللته . علي للجامعة رواتب استحق دفعها . وامي ، كما تعلمين ، طريحة الفراش منذ عامين . وانا لست املك ثمن الدواء لها . ولا اجرة الطبيب . ولا اجرة ممرضة . انا وحدي الدواء والطبيب والممرضة . لقد تقرحت المسكينة . وراح الدود يأكلها وهي حيّة . وبتّ اشعر ان الدود الذي يرعى في لحمها يرعى في لحمي كذلك .

طار عقلي . اظلمت الدنيا في عيني . قلت ادوس كبريائي وعزة نفسي في سبيل امي التي ما ضنّت بحياتها عليّ . فأقترض بعض المال . وقلت قريباً احصل على شهادتي وعلى عمل يساعدني على وفاء الدين . وقلت اذهب الى فريد صرصور . انه شاب طائش ، مبذّر ، ورث ثروة طائلة عن ابيه . وهو يعرفني واعرفه ، ولي عليه بعض الفضل . إذ كان كثير الرسوب في امتحاناته ايام دراسته . وكنت القنه دروساً خاصة . ولولاي



لما نال شهادته . فريد صرصور – ألا تعرفينه يا ثريا ؟

– أعرفه .

قالت ثريا ذلك وهي تحاول ان تخفي رجفة في صوتها وفي عضلاتها . ثم اردفت بسؤال :

– وكيف كان استقباله لك ؟

– وجدته يلعب « البوكر » مع زمرة من رفاقه . فما ترك اللعب ليقابلني . بل امرني بالانتظار – فرحت انتظر – وعندما توقفوا قليلاً عن اللعب ليشربوا الوسكي ويأكلوا بعض الحلويات رأيته يخرج هذا السوار من جيبه ويديره على الحضور ليتأملوا جماله . وسمعته يتبجح بذوقه في انتقاء المجوهرات ، ويقول ان السوار هدية لخطيبته ، وقد دفع ثمنه خمساً وعشرين ليرة ذهبية ، وهو مزمع ان يفاجيء خطيبته به الليلة – اي الليلة البارحة – في الحفلة الراقصة في نادي «سميراميس» .

عندها قاطعت ثريا فؤاداً لتسأله في لجاجة :

– وماذا كان نصيبك منه في النهاية ؟ بماذا أجابك عندما طلبت منه المال ؟

– اجابني من بعد ان تنازل وسألني عن حاجتي ، ومن بعد ان وصفت له حالتي وحالة امي – اجابني بكل صفاقة : « واي بأس لو أكل الدود لحم امك وهي حية ؟ ألعلها اكثر من غسالة ؟ » ولم يكتف بذلك حتى اضاف : « واي حاجة بابن غسالة الى شهادة جامعية ؟ اذهب واعمل عملاً تعيش منه . ولا تطمع الى العلو فوق أصلك . ذلك خير لك من الاستعطاء » .

– هكذا ، هكذا أجابك ؟ يا للوقاحة !

وانتفضت الفتاة وامتقع لونها وعضت على شفتها السفلى وراحت تقلب السوار في يدها على غير وعي منها . ولكن فؤاداً ما لاحظ شيئاً من ذلك ومضى في حديثه :

– خرجت من عنده وفي داخلي زلازل وبراكين . ولو كان في استطاعتي ان أنسف الأرض والسماء بكلمة او بنفخة لفعلت . واي خير لي فيهما وقد حبستا عني كل خير ؟ اي خير في حياة صراصيرها نسور ، ونسورها جعلان ؟ ولكن ، أتموت امي مفتحة العينين وفي عروقي دم ؟ لا . لن تموت . سآتيها بالطبيب . وآتيها بالدواء . وآتيها بالمال . لقد جازفت بعزة نفسي فخسرتها . انحدرت الى الحضيض . فلأنحدر الى ما دون الحضيض . وهكذا صار فؤاد لصاً يا ثريا . وكان هذا السوار باكورة لصوصيته .

وتوقف فؤاد عن الكلام وهو يلهث إعياء . وما كان يجد الجرأة في نفسه ليمضي في الحديث ويخبر ثريا كيف تلثم وتزيا بزي بدوي ، وكيف كمن لفريد صرصور ليلاً وهو في طريقه الى النادي ، وكيف اوقف سيارته وشهر في وجهه مسدساً كالذي يلعب به الأولاد ، وكيف انتزع السوار من جيبه واطلق ساقيه للريح . وطال سكوته ، فشعرت ثريا بارتباكه ولم تشأ ان يمضي في اعترافه الى ابعد من ذلك فقالت برقة متناهية :

– يكفي . يكفي يا فؤاد . لقد فهمت كل شيء . ولا حاجة الى التفصيل . والآن ماذا انت فاعل بهذا السوار يا فؤاد ؟ أتريدني ان اشتريه منك ؟

– لا . لا . لا . اما كفى ان تلوثت انا حتى الوثك انت كذلك ؟ لا . لا . وألف لا . إني اقشعر من منظره . واقشعر من لمسه . واقشعر من ذكر كل حركة اتيتها في سبيل الحصول عليه . وجل ما ارجوه منك ياثريا ، – إذا كان ذلك لا يزعجك – ان تردي السوار لصاحبه ما دمت تعرفينه . ولك ان تخبريه بكل ما سمعته مني . لقد انزلق فؤاد من القمة إلى الهاوية . ولكنه لن يبقى في الهاوية . لتمت ام فؤاد . ليمت فؤاد . ولكن ليموتا شريفين . لا . لن يموت فؤاد لصاً . وقد لا يموت إلا ثائراً على كل ما في الأرض من نتن وظلم وفساد . بل لن يموت إلا ثائراً . لقد عاهدت نفسي على ذلك . والصراصير لن تملك الأرض إلى الأبد . إن لي ولأمثالي نصيباً في سمنها وشهدها . ولن نتخلى عنه للجشعاء والمتخمين .

– هون عليك يا فؤاد . ما من نزول الا بعده صعود . ودعني ابوح لك بسر قد تنذهل له .

– هاتي يا ثريا . سرك عندي سر .

– أتعرف لمن هذا السوار ؟

– لمن ؟

– لي . ولكنني ساعيده الليلة الى فؤاد صرصور .

– لك ؟! لك انت يا ثريا ؟ وكيف ذلك ؟

– انا خطيبة فؤاد صرصور .

– انت خطيبته ؟! واخجلي منك !

– الأصح انني كنت خطيبته الى ان سمعت منك ما سمعت .

– ثريا ، ثريا ! ليت الأرض تنشق وتبتلعني .

– بل ستبتلع الأرض الصراصير .

★

منذ ايام قرأت خبراً صغيراً في احدى الجرائد المحلية مفاده ان الشرطة ألقت القبض على فؤاد رماح وزوجه ثريا لقيامهما بتوزيع نشرات سرية من شأنها ان تخل بأمن الدولة ، وان هذين الزوجين يعدان في نظر المسؤولين من اشد العناصر « الهدامة » خطراً على البلاد ...

ميخائيل نعيمه

تسع بنادق فقط

مسرحية في ثلاثة مشاهد

بقلم : خليل هنداوي

الأشخاص

حسان | طارق } من الحرس الوطني | خالد

فريد معلم القرية

سلمى زوجته

آمر الكتيبة الاسرائيلية ومعاونه

– ١ –

حسان : لا ادري لماذا ينقبض قلبي هذا المساء ؟

طارق : إنني اشمّ في لحمي ريح التراب

خالد : أشعر ان دمائي تكاد تتوقد في عروقي .

حسان : إن شعوراً غريباً يعتريني الليلة ، لم يسبق ان احسست به .

طارق : الليل هادىء تتلامح نجومه فوقنا ، ومع ذلك ُيخيّل إليّ انه يتحرك ويضطرب ، ويثور .

خالد : لقد نامت القرية في ذمة تسع بنادق فقط .

حسان : ويا ليتها بنادق تامة !

خالد : البنادق التامة تنام في العنابر .

حسان : لتخرج ايام الاعياد لامعة !

خالد : بل ليتها استكملت رصاصها

طارق : هبْ ان اليهود هجموا بغتةً علينا !

حسان : هل يمكنهم ان يفعلوا ؟ إنهم يخشونَ حلفاءنا .

طارق : ألك ثقة في ان احلافنا سينجدوننا ؟

حسان : واجبنا ان نقف هنا .

خالد : سمعاً يارفاق ! كأني استمع الى جلبة بعيدة ، الى ضوضاء في احشاء الليل .

طارق : كأنني اسمع مثلك حسيساً من تلك الناحية .

حسان : من الارض الحرام ؟

خالد : وهل هنالك ارض حرام ؟

حسان : ما هذه الهواجس الليلة ؟ اتكئوا قليلاً على بنادقكم !

طارق : دعونا ننام على الربوة ! إنها تمنعنا من غدرهم .

خالد : قعقعة مصفحات تقترب ! أنذر بقية الرفاق بصفير الخطر ! ليكونوا على حذر

طارق : إن نبأ هذه الليلة عجيب . لعلهم يقومون بمناورات ليلية !

(صفير قنبلة)

حسان : الى الخنادق ! انهم يقصدون القرية .

طارق : وهل رصاصنا يكفي ؟

حسان : اثبتوا حتى تأتي النجدة ، الحرس قريب منا ، والجيش ، والقرى ، سيسمعون ما نسمع ، فيهرعون الينا .

طارق : لنأخذ مسالك الطريق الى القرية ، كل رصاصة برجل .

خالد : لعل رجالهم أوفر عدداً من رصاصنا . أطلق اشارة الخطر !

حسان : كيف أعطي إشارة الجبن والخوف ؟ نحن ، هنا ، لهم بالمرصاد . نصدهم كما صددناهم من قبل .

خالد : ويحك ! أضىء القذيفة الحمراء !

حسان : ان الضوضاء تقترب . طارق ! أنذر القرية بان تهب من نومها ، ويهجروا مساكنهم الى الحقول .

(ينطلق طارق)

خالد : انهم مقبلون ، ورصاصهم بدأ ينهمر علينا .

حسان : إجعلوا الاصابة سديدة ، كل رصاصة تصيب تنجّي نفساً من انفسنا .

خالد : ولكن ليس المهاجم بالعدد القليل . ألمح طيفاً يتسلل الينا .

حسان : ذلك ربيئةٌ لهم . النارَ .

(يصيبه)

خالد : إنه يتدحرج نحو قومه .

حسان : كأننا في معركة حقيقية .

خالد : تسع بنادق فقط تتصدى لهم

حسان : ان مصفحاتهم التفتت نحو بيوت القرية تضربها . العويل ، البكاء ، العواء كأنهم يريدون ان يلتجئوا الى الربوة

خالد : إن اهلي فيهم ، دعوني أراهم

مُهداة إلى ثرى « قِبْية » الشهيدة « خ . ه »

حسان : لا تبرح المكان، الكل اهلنا.

خالد : أسمع وراء الربوة حركة .

حسان : لعلهم جندنا أتوا لنجدتنا .
يا للظفر إذا صدقت النجدة !

خالد : إنهم اعداؤنا انفسهم يحيطون بنا من ورائنا

حسان : أين نجدة رجالنا ؟

خالد : أظنهم لن ينجدونا إلا أمواتا.

حسان : لنقاتل إذاً وحـدنا ! لن يستولي العدو علينا إلا اشلاء مبعثرة .

خالد : ولن يحتلوا القرية إلا رماداً.
أطلب النجدة مرة ثانية ! إننا محاطٌ بنا من كل مكان .

حسان : طلبتها مراراً ، ولكن، لن يأتي احد الينا . دعهم نائمين !

صوت اسرائيلي بالميكروفون : ألقوا سلاحكم إذا أردتم سلامة أرواحكم !

خالد : انهم يطلبون الينا ان نلقي سلاحنا لسلامتنا .

حسان : ويحـكَ ! ألكي نموت بأيديهم موت النعـاج بيد جزّارها ؟ الأفضل ان نموت واقفين لا نائمين .

خالد : ولكن ماذا تجدي المقاومة؟

حسان : أنظر ! من ، هنـاك ، يتسلل الينا ؟

خالد : كأني به طارق ..

حسان : إنه هو . ما وراءك ؟

طارق : ويلتاه! القريةُ تدكّ بيوتها. القذائف تهـوي عليها من كل جانب ، ورصاص الغادرين يحصد الهاربين .

خالد : هل رأيت زوجتي، وصغيري؟ ويحكَ تكلم !

طارق : كان هناك ، صغير يتمرغ باكياً على صدر امرأة مطروحة ، ويداه ملطختان بالدماء . أردت ان افعل شيئاً ..
ثم حال بيني وبينهم دورية يهـودية .
ولا ادري بعد ذلك ..

خالد : إلهي ! أفي لحظة واحـدة تُطوى السماء والارض عن عيني ؟

حسان : لا يزال المدى يتسع لك للانتقام !

خالد : وأنّى لي ان انتقم ؟

طارق : ألم يأت احد لانقاذنا ؟

حسان : لم يسمعوا صوت استغاثتنا

خالد : ألم يسمع الاحيـاء منهم وقد سمع الموتى ؟

حسان : ليس معنا الان إلا أطياف الشهداء الذين يمشون على خطى بطولتنا.

طارق : أحقاً تحاول ان تثأر ؟ ان كتيبة يهودية تحوم حول مدرسة القرية.

خالد : انهم سيمثلون بمعلمها «فريد» وزوجته وأطفاله .

حسان : يا للفاجعة ! أنّى لنا أن نستنقذهم ؟

خالد : تستطيع ان تعتمد عليّ في استنقاذهم.

حسان : ولكن كيف تقاوم عصابة مسلحة ؟

خالد : سأفاجئهم... ومعي طارق.

طارق : أنترك حسان وحده ؟

حسان : ان لحظات حياتي اصبحت معدودة . ان الربوة ستمتصُّ دمـائي ، ثم تجف . سأبقى ، هنا ، مشغلة للعدو

خالد : سر امامي !

طارق : أنمر بالمرأة وطفلها ؟

خالد : الرصاص يشتد عواؤه علينا.

طارق : اتّقِ نفسك ! لا تطلق أنت شيئاً ! ان النار تهديهم الينا !

(رصاصة تصيب خالداً)

خالد : ويحها من طلقة طائشه تريد أن تداعب يدي! إنها لم تصب لبدة الأسد.

طارق : دمٌ يسيل ... دعني أشد المنديل عليها !

خالد : لا بأس... ما دامت اصابعي تتحرك . ان الدم الحار يعشق ريح البارود .

طارق : لنسر بحذر ! والآن ، قل لي كيف تعمل على استنقاذهم ؟

خالد : لن يشعروا بنـا الا وافواه البنادق مشرعة في صدورهم .

طارق : طريقة محفوفة بالخطر . ولكن ، أتظن أننـا نستطيع الوصول بسلامة ؟

خالد : وأنت تنتظرني هنا حتى أعود!

طارق : ولكن ...

خالد : أتظنني لن اعود ؟ إذاً يكون الاحتجاج أشد لهجة من سوابقه .

طارق : ليتهم يكتبونه هـذه المرة بدمائنا !

(طلقة تصيب طارقاً)

آه ! أصابتني الملعونة . أكمل سيرك وحدك ، وكن حذراً !

خالد : ولكن ، لا عليك .

طارق : لم تدعني أقوم بواجبي .

خالد : ما بك ؟ طـارق ! طارق ! إنه أغمض عينيه . تتحدر بقية أنفاسه على يدي ... لقد كتبته هذه المرة بدمك ، ولكن هل يحسنون قراءته ؟ سأسير للثأر لي ولك ...

— ٢ —

« دورية اسرائيلية تقتحم مدرسة المعلم فريد في قبية »

سلمى : لقد حطموا الباب .

فريد : انهم هم .

سلمى : صغارنا ؟

فريد : دعيهم ثائمين !

آمر الدورية : أيديكم !ماذا تحملون؟

فريد : القلم.. الأوراق .. الكتب!

الآمر : سمعنا عنك أنك من المحرضين على قتالنا

فريد : لي الفخر بذلك . تمنيت لو أكون من المقاتلين .

الآمر : ها ... ها ... اعتراف خطير . إننا نحاكم الانسان باعترافاته. هل تدري ماذا حدث بالقرية ؟

فريد : دكّتها عدالة هيئة الامم ، وضمير العالم الانساني الذي اشتريتموه.

الآمر : أصبحتم الآن احسن فهماً وتقديراً للواقع. انما اعداؤكم اصدقاؤكم.

مساعده : لا شك أنك حريص على حياتك وحياة اسرتك .

فريد : ضمن الكرامة .

الآمر : يسأل عن الكرامة ... لك ذلك على شرط واحد .

فريد : بالخيانة طبعاً .

الآمر : نريد منك ان تعطينا اسماء الحرس الوطني ، وعددهم .

فريد : لا أعرفهم .

الآمر : أظن السياط تجعلك تعرفهم.

فريد : لم يعد لنا من جلود تشعر بالألم .

المساعد : اضربوه ... أوجعوه .

(وقع السياط)

سلمى : ويلٌ لكم ! هل صنع النازيون هكذا بكم ؟

المساعد : قيدوا هذه المرأة النازية !

الآمر : حسن ... كفى ! ان لدينا مكافأة حسنة لك اذا أجبتنا . ونقسم لك بشرف اسرائيل ان نصون حياتك وحياة اسرتك .

فريد - لقد هيأنا انفسنا للموت ، ولبسنا اكفاننا .

سلمى : نحن مستعدون للموت. هل عندكم من جديد؟

المساعد: انهم يتحدّون قوة إسرائيل.

فريد : لن تجدوا صغارنا و كبارنا ، رجالنا ونساءنا أقل حباً للموت منكم.

الآمر : ماذا تنتظرون ؟

فريد : لقد قطعنا رجاءنا من كل انسان ، حتى من العدل نفسه .

الآمر : كيف تريدون ان تموتوا؟ بمن تريد أن نبدأ ؟

فريد : أنا الاول .

سلمى : بل أنا الأولى ...

الآمر : بئس العدي اخترتماه ... لا موت قبل أن ترى أعينكم صغاركم يتمرغون بالدماء بين أرجلكم .

سلمى : لا ... لا ... لن تفعلوا ذلك . لا استطيع ان احمل . إنني ام قبل أن اكون امرأة .

الآمر : اقتلوا رجاءها ! أية ميتة يختارها لنفسه ؟

المساعد : نصلبه على اعلى الربوة ليعلّم قومه بعد موته كما كان يعلمهم في حياته .

فريد : لعل هذا المصلوب يتحدث عن فظائعكم ! التمثيل بنا أجدر بكم .

الآمر : إنه يسخر منا . إجعلوه مِزَقاً !

المساعد : سيسهل على قومه حملُها الى هيئة الامم مع احتجاجاتهم .

فريد : لن يروعنا الموت... اقتلونا كما تريدون !

الآمر : اذبحوا الاولاد !

سلمى : أوّاه .. وما ذنبهم ؟

الآمر : سيكونون اعداء الغد لنا !

« صمت رهيب ، بينما تمتد ايديهم لذبح الصغار » .

خالد : « من وراء النافذة التي كمن فيها »

رباه ! كيف اشعل الفتيل ؟ اننا سنموت جميعاً . كيف اراهم يموتون ؟ تتخاذل يدي.. انه بدأ يحزّ عنق الصغير في مهده.. انهم يضحكون .. يضحكون من الموت .. ولكن، بيدي لا بايديهم!

« يطلق القذيفة على البيت ، فتنفجر »

- ٣ -

« الفجر الشاحب يطلع على القرية الشهيدة ، والعمال يحفرون عن الجثث المطمورة »

حسان : احفروا هنا ! داخل جدران المدرسة ! لقد جاء خالد وطارق ينقذان معلم المدرسة عند السحر .. هل تجدون شيئاً ؟

الحافر : « ضرب المعاول »

جثث مختلطة .. مشوهة . فيها ثياب اسرائيلية .

حسان : لقد فعلها إذاً .. احفروا ايضاً !

الحافر : جثة امرأة .. جثة جندي اسرائيلي .. جثة طفل لا تزال السكين حول عنقه . لكنها لم تذبحه .

حسان : لا بد ان يكونوا معهم !

الحافر : تحت النافذة جثة حية تئن !

حسان : ويحكم ! انقذوها ! انه خالد .. وربي .. خالد .

خالد : اوف ! أكاد اختنق . من انتم ؟

حسان : اصدقاؤك في الجهاد .

خالد : حسان ! ألا تزال حياً ؟ انهم ماتوا جميعاً .. وطارق .. اين اليهود ؟

حسان : انهم انسحبوا عند مطلع الفجر .

خالد : بدون قتال ؟

حسان : لم يأت احد لقتالهم .

خالد : كالذئاب ، تفتك ليلاً ، وتهرب نهاراً . اين الرفاق ؟

حسان : كما عرفتهم ..

خالد : ذلك ما اردت . شكراً لقذيفتي التي قامت بالواجب المقدس .

حسان : هل تحس جرحاً ، او ألماً ؟

خالد : لم أحس الا سحباً من الدخان والغبار تتقاذفني . سمعت صياحاً وانيناً ، ثم ساد السكون .

حسان : هل انت متأثر لموتهم ؟

خالد : هذه الميتة التي كانوا يتمنونها ، اذا لم يموتوا ابطالاً فقد ماتوا شرفاء .

حسان : ولكنك كنت بطلا .

خالد : والآن ماذا تصنعون ؟

حسان : نرفع الأنقاض ، وننتشل القتلى والجثث من تحتها .

خالد : لماذا تكشفون عن قتلانا ؟ دعوهم تحت الانقاض ! أيعرضونهم على لجان التحقيق ؟ لقد ماتوا بأيدي اعدائهم ميتة واحدة ، فلا تميتوهم بايدي اصدقائهم مرتين !

حسان : ولكن العالم سوف يتحقق من قضيتنا المضطهدة .

خالد : اما كفاهم يسخرون منا ؟ دعوهم هنا حيث سقطوا ! اننا سنكسوهم لحماً ودماً ليقاتلوا معنا .

حسان : ولكنهم يريدون ذلك .

خالد : الميت الضعيف يكشف عن جراحه . دعوا جراحاتنا تنزّ دماً لنشعر بحموضة الدم في افواهنا وارواحنا . إنا سنقاتل ، وايدينا على الجراح التي فتحها الغدر .

حسان : انهم وعدونا بالانتقام لنا . وعدونا ببناء القرية والمدرسة .

خالد : لن نسمح ببنائها . سنسكنها وهي انقاض شاهدة . يطلع عليها الفجر خلل الدخان والرماد والدماء . إنها مدرسة الانتقام .

حسان : ومدرسة الصغار ؟

خالد : لن يجد الصغار فيها مدرسة .. مات معلمها ، وجاء معلم الثأر الذي لا يموت . انها المدرسة الكبرى .. مدرسة البطولة التي ماتت في الكبار ، ونمت جذورها في الصغار . مدرسة الدم الذي لطخ جدرانها . إنها مدرسة الانقاض .

حسان : والآن ، الى المدينة لتستريح فيها ..

خالد : لا يمكنني مغادرة هذه الانقاض . ان روحي تنفر من كل بناء . اصبحت روحي تحيا بين هذه الانقاض . إنني اشم فيها ثرى البطولة ، وينعشني فيها ندى الدماء . فالى اين ترحلون بي ؟

حسان : الى القرية نفسها ..

خالد : لا نستجدي شفقة ولا رحمة ولا معونة .. نريد ان تستحيل البلاد العربية كلها انقاضاً . على هذه الانقاض وحدها تحل قضية فلسطين . هل يشعرون في البلاد العربية بذلك ؟ الارض ترتجف تحت اقدامنا وتهرب . انهم يحسبونها ترقص ، ولذلك ينتظرون . ان كل مدينة عربية سترقص هذه الرقصة اذا لم تتحرك .

حسان : إذاً ، لن نبرح مكاننا هذا ابداً .

خالد : ولن نرفع على هذه الانقاض قرية

حسان : ولن يجلو من السكان انسان .

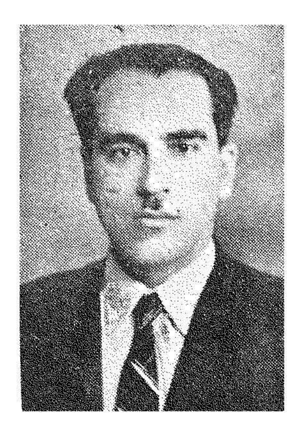
خالد : ولن تكون ، هنا ، إلا مدرسة الانتقام . اين بندقيتي ؟

حسان : لم يبق من بنادقنا التسع إلا بندقيتك .

خالد : اغرسوها بين الأنقاض ! إنها جديرة بالحياة وحدها .

حسان : ستعود الى الربوة ، لتكون العين التي لا تنام

خالد : هنالك مساكننا الحية المضيئة ... هيا يا حسان ! لنترك الموتى ينبشون عن الموتى ... ألا نزال أحياء ؟ ستظلّ هذه الأرض مشتاقة الى الدماء .



خليل الهنداوي

اوعية الصَّديد !

نـزار قبـاني

لا .. لا اريدُ ..

المرةُ الخمسون.. اني لا اريدُ..

ودفنتَ رأسك في المخدة .. يا بليدْ

وادرت ظهرك للجدار .. أيا جداراً من جليد !..

وانا وراءك ، يا صغيرَ النفس ، نابحةُ الوريدْ

شعري على كتفي بديدْ ..

والريح تفتل مقبضَ الباب الوصيدْ..

ونباحُ كلب من بعيدْ

والحارسُ الليلي .. والمزرابُ متصل النشيدْ..

حتى الغطاء سرقتَه .. وطعنتَ لي الامل الوحيدْ..

املي الذي مزّقته .. املي الوحيد

★

ماذا اريد ؟

وقُبيل ثانيتين .. كنتَ تجول كالثور الطريدْ ..

والآن .. انت بجانبي

قفصٌ من اللحم القديدْ

ما أشنع اللحم القديدْ !..

ماذا اريدْ ؟..

يا وارثاً عبد الحميدْ !..

والمتـّكا التركيُّ .. والنرجيلة الكسلى .. تئنّ وتستعيدْ

والشركسيات السبايا حول مضجعه العتيدْ ..

يسقطن فوق بساطه

جيداً .. فجيد

وخليفة الاسلام والملكِ السعيدْ ..

يومي ويأخذ ما يريدْ

لا .. لم يمُت عبد الحميد !..

فلقد تقمّص فيكمُ عبد الحميد

حتى هنا .. حتى على السُّرُرِ المقوّسةِ الحديد ..

نحن النساءَ .. لكم عبيدْ ..

وأحطّ أنواع العبيدْ

كم أنّ تحت سياطكمْ نهدٌ شهيدْ ..

وبكى من استئثاركم .. خصرٌ عميدْ ..

★

ماذا اريد ؟..

لا شيء يا سفاحُ .. يا قرصانُ . يا قَبْوَ الجليد ..

فأنا وعاءٌ للصديد ..

يا ويلَ اوعيةِ الصديد ..

هيَ ليسَ تملكُ.. أن تريدَ..

ولا تريدْ ..



لندن

نزار قباني



قصة جديدة بقلم "مارون عبود"

اول ما يواجهك في ذلك البيت العتيق، فراش ممدود حدّ صندوق دهري اطول منه . صندوق ألبسته الأيدي التي عاورته ثوباً دسماً فتنكّر تحته خشبه . في خواصر ذاك البيت اللبناني القائم سقفه على ثلاث قناطر ، دُقت اوتاد هنا وهناك كانت هي (البورتشابّو) في ذلك الزمان .

أما أروع ما في صدر ذلك البيت فرف خشبي وضعت عليه قوارير فخارية مختلفة الاشكال ، وشماعدين ، وثريات للشموع البيضاء والصفراء ، وسُرج وقناديل تضاء امام صور وايقونات وصلبان ومسابح تكاد تشغل مساحة لا تقل عن اربعة اذرع طولاً في اربعة عرضاً ، فيخال الداخل الى ذلك البيت انه امام مذبح لا ينقصه إلا (بيت الجسد) .

وكان مندساً في ذلك الفراش هيكل بشري ما فيه إلا العظم والروح والجلد . اخذت الايام من عرض اكتافه فدق واستطال ، وأما لحية ذلك العملاق فظلت محافظة على ابهتها ولم تخسر منها إلا مقداراً زهيداً لا ينقص من مهابة الشدياق ولا يحط من قدرها . عمّر الشدياق اسطفان كثيراً ، فعزا العوام طول حياته الى عفته ، فمنهم من يؤكد انه ما اشتهى امرأة قط ، ومنهم من نزّهه عن ذلك تنزيهاً . ولولا زجر الخوري للغلاة لقالوا : انه حُبل به ، ايضاً بلا دنس ..

وكانت امرأة طاعنة في السن من نساء القرية تنظر الى زوجها الشيخ وتصرّ شفتيها وتسكت كلما سمعت ما يقول الناس عن الشدياق ، ولا تزيد على القول : أعرفه عندما كنا وليدات نرعى المواشي .

وفي ليلة عيد الميلاد سنة الف وثمانمائة و ... كان الشدياق اسطفان قد فات التسعين ، فتململ في فراشه بعد ظهر ذلك النهار ، فتنبهت ابنة اخيه مرتا الى همهمته ، فهي تنتظر الساعة ، والانتظار صعب . فمغمغ قائلاً : مرتا ، هاتي اسقينا .

وأخذ الابريق بيديه الثنتين ، ومع ذلك لم يحكم توجيه انبوبته الى الهدف فشرب هو واللحاف . ولما أبطأ لهائه تنهد وقال :

— سامع حسّ ناس ، من عندنا يا مرتا؟

— عندنا متّى يا جدي .

— متّاه ، كيف الطقس ؟

— الشمس مريضة يا عمي ، ولكن النهار دافي جداً .

— وهذا الذي جاء من اميركا ايش خبّر عن الغائبين ؟

— الليلة يسهر عندك مع الضيعة .

— اهلا وسهلا . سمعت يا مرتا ؟

— نعم سامعة . النقل حاضر .

واخذ الشدياق ينسحب من تحت لحافه رويداً رويداً، وبعد جهد قعد في فراشه فبدا حين تكوّم كأنه كرسي عمود في قلعة متهدمة . واراد النهوض فعجز ، ولكنه تماسك وابتدأ يصلي وهو يحاول شدّ صرمايته التي لم يرق لها ان ينتعلها . وظل يعالجها ويتلو صلاته بحرارة ، حتى استظهر عليها ، فمشى اذ ذاك يجر رجليه و كأنهما ليستا منه، ولولا تقوس ظهره لخلته مارداً افلت من قمقم سيدنا سليمان. لحية بيضاء كأنها صوف فروة عتيقة، اصبحت خصلها جدائل لما بينها وبين المشط من عداوة فهي بنت عم شعر الشنفرى لحاً ، واذا ارتفع نظرك عنها قليلاً وقع على حاجبين كأنها رفرف فوق انف مروّس معقوف كمنقار نسر.

كان ملبوس الشدايقة غنبازاً اسود ، ولكن الهرم الذي اعترى غنباز الشدياق اسطفان اخذ الكثير من لونه وحلت محل اقلامه انهار من الحواء نمت عن بطانة بيضاء . ومشى الشدياق غير محكم الزنار، فتجمع برداه عن يمين وعن شمال كستار مسرح مفتوح نصف فتحة ، اما الممثلون فقد تواروا واضمحلوا . وما بلغ الباب القبلي حتى انهار على فروة مدّت له ، ثم اخذ يستوي على مهل حتى تمثل بشراً سويا . واستند الى حائط البيت رازحاً تحت اثقال التسعين التي تمطت بصلبها وناءت بكلكلها على منكبيه .

ونظر الى الطبيعة بعينين جفت ماويتها فرآها صفراء مغبّرة فقال : « عجيب ؟ ما كانت هكذا منذ ايام » وحك صلعته كمن يشغل باله امر خطير ، واطرق اطراقة طويلة. ورفع رأسه فاذا بدمعة تكرج في ثلم من وجنته لتنهار عند مدخل لحيته .

وطفق الشدياق يجهش ثم تعالى بكاؤه فلفت انظار العابرين والعابرات . وشاع في القرية ان الشدياق اسطفان يبكي ، وهو من لم يُر قط باكياً فتضاربت في ذلك اقوالهم .

رأى الشمس جانحة لتتوارى خلف الجبل فانتحب . ادرك

انه الى ما تصير اليـه صائر ، فراح يناجي نفسه : « هي تغيب وتشرق اما انت يا اسطفان فالى ظلمة القبر . لا شروق ولا غروب » . انه يضيق صدره وهو في فراشه اللين ، فكيف به متى وسدوه التراب ؟ انه يبرد ، وهو نائم حد الموقدة ،فكيف به متى نام في قلب الارض حيث يبقى في ظل الموت الى الابد؟

ورأى نصف قرص الشمس قد اوشك ان يتوارى خلف الجبل فارسل زفرة حرى ، واخذ يتحلحل ليعود الى مرقده قبل ان يختفي كانون الله ، ويقرصه البرد .

وما ذكر الله والعذراء عند نهوضه حتى عاد اليه ايمانه بالخلود والحياة الابدية ، فتشدد ونسي البكاء. ذكر ان المسيحي الصالح لا يموت ، بل ينتقل من وادي البكاء والدمـوع الى دار النعيم حيث يتمتع برؤية الله وجهـاً لوجه . ثم عاودته نوبة الشك فانخرط في البكاء وقال : « هل بعد الشقا بقا ؟ .. ترى نعيش ليوم عيدك يا مار مارون ؟ آه يا حبيب القلب ! نلتقي يا ترى ؟ من يعلم ؟ .. » وبينـا هو غارق في تلك الظلمة سمع صوت امرأة تناديه :

— اسطفان ، ضيعت ايمانك بالحياة الابدية !!

فتلفت فلم تقـع عينه على احد فقال في قلبه : « مؤكد ، هذي العذراء مريم ، من يقول لي هـذا ، غيرها ؟ » ثم التفت وخاطبها كأنه يراها : « لا تواخذيني يا ستي السيدة . الآخرة مخيفة ، والموت يفزع . عذري معي ، ابنك بكى في البستان . انا متكل عليك ياحبيبتي . تعبنا وشقينا حتى نرى وجهك الحلو . لا تخيبينا . »

وخاف الشدياق ان يعتب عليه الله فاستوى ما استطاع ماداً بصره الى فوق وقال يناجيه على صوته : « يا صاحب الخيمة العالية ، يامن تعيش في النعيم ، ويمجدك الكاروبيم والساروفيم ، ماذا عندك للشدياق اسطفان الذي قضى حياتـه متبتلاً ؟ هل تحاسبه على كل هفوة ؟ الا تتساهل معـه ؟ الا تدخله اخدارك السماوية بعد ان عاش تسعين سنة تحت مظلّتك الكبرى لا يهمه الا طاعتك ؟ارحمني يا الله كعظيم رحمتك .ما ارعب ساعة الميعاد يا الله ! قلبي يدقّ ، انا خائف جـداً . شددني يا الله . الشيطان يجربني . دائماً . اينما رحت اراه حاضراً . تفّ له . مـا ابشع وجهه ، وذنبه وقرونه ! . »

وتذكر الشدياق انه امسىَ ، فراح يرتّل وهو ماش الميمر السرياني : «برمشو صليبوخ روشيمنو عَل هاُ دو مَاي» .. الخ .

وكان متى ومرتا قد اضرما النار في الموقد فحمي البيت ، وارتمى الشيخ ليتربع قرب النـار . شيخ منودل ، ينوص كرقاص السـاعة . نسي الشك والفزع حين تدفأ . ولذعته النار قليلاً فتجهم وجهه وانقبض كأنـه رأى في الموقد نار جهنم . تذكر عواقبه الاربع فارتاع وانكمش . وغلا اللهيب فخال انه يرى من خلاله شبابيك الجنة مفتوحة مضاءة ، فتهلل وتذكر علّيقة موسى التي اشتعلت ولم تحترق ... فانحرف فكره عن نيران الجحيم . اذن في النار ذكريات طيبة للمؤمنين ، فما باله ، وهو الرجل الصالح الذي راض نفسه على الفضائل المسيحية يفكر هذه الافكار السوداء ؟

لا شك في ان ابليس يجرّبه ليقطع امله ويزعزع ايمانه في اخريات حياته ، فصلّب على وجهـه مرات ، وخرج من جو تلك الافكار التي خاف منها ، وصاح : « مرتا بخّري الصورة» .

فنهضتُ مرتا بمجمرتها ، تبخر الصورة فملأت رائحة البخور الجوري البيت ، فتنشقه الشدياق وهو يهتف : « إختَايه ... » صار كصوفي اسكرته المشاهدة ، حتى خيل اليه انه يرى في دخان المبخرة الصاعد سلماً مثل سلم يعقوب يرتقي به الى سموات ذي العرش ،فأخذ يرتل بصوت رخيم لا ارتجاف فيه ولا اهتزاز كأنه ابن اربعة عشر :

انت الشفيع الاكرم   عند ابنك يا مريم

وما انتهى من انشاد هذه المدحة حتى صرخ :

— يا بنت ، ما بخرت صورة مار مارون .

وبخرت البنت ورتل هو: «لك شرف مفرد كبدر الضيا...» وأومأ الى متّى فشاركه في ترتيلته التي لم يصرم حبلهـا الا الفراق ... وما ارفض موكب صلاته الحافل ، حتى عـاد الى قعدة الاربعاء وهو يقول: « ترى يكون لنا حظ ونسمع تهاليل الساروفيم ونرى الراكب على الكاروبيم ؟ مـا احلى هاتيك الساعة ! قريباً نلتقي يا مار مارون » .

وقدمت له مرتا العشـاء وفيه ما تحرمه الكنيسة في صوم الميلاد — وهو ابن تسعين يحل له اكل كل طعام — فكفّ عنه يده ونفسه تشتهيه. لم يأكل إلا بضع حبات من الزيتون ورأس ثوم شواه . ولماذا الاكل ، أليحرم الاجر ؟ غداً نأكل ان شاء الله اللحوم والالبان ، فديوك الميلاد تغلي على النار ، وتغني في القدور كأنها جوقة ترتل : المجد لله في العلا ...

وقال لمرتا وهي ترفع الصينية : « غداً نأكل مع الضيعة

من طعام العيد . » فمنذ صار الشدياق ذلك الشيخ الجليل الذي تقبل الناس يده ويلتمسون دعـاءه وبركته ، اخذ يدعو اهل الضيعة الى مأدبة الميلاد التي يعدها لهم كل عام .

وعاد الشدياق الى فراشه واختبأ بلحافه ، ووفدت اهـالي الضيعة عليـه . المسنون يمسّونه بالخير نصف ساجدين . تتحدر ايديهم من قمم رؤوسهم لتستقر على ساحات صدورهم الرحبة . والصغار ينكبون على يديه يقبلونها ، وسيّان عندهم اليمنى او اليسرى . وجلس الناس سطوراً سطوراً ، حوله وبين يديه ، وطغت على البيت رائحـــة منبعثة من مصابيح الزيت المطفأة فأخذ بخناق الشيخ سعـال ديكي ولو لم يسرع احدهم الى فتح الابواب لـكان فطس وذهب مأسوفاً على شبابه ...

وساد البيت سكوت رهيب ، لم يكن يسمع صوت نابس ، فكأن الناس في صحراء لا انيس فيهـــا ولا جليس ، الجميع يتطلعون الى الشدياق بعيون مفتحة ، والشدياق يحرك شفتيـه الراقصتين ، يتمتم ولا يبين . واخيراً انشق فمه وخرجت منه هذه الكلمات : « هذه ليلة مباركة يا اخوتي ، فيها ولد سيدنا يسوع المسيح بمذود البقر ليعلمنا التواضع . علينا ان نولد مثله كل سنة ، لأنه لاسمه السجود قال : الذي لا يرجع الى بطن امه ويولد ثانية لا يستحقني . والولادة الثانية معناها ان ينظف الانسان نفسه وجسده حتى يعود طاهراً نقياً كالمولود جديداً » .

فهز الرجال رؤوسهم اعجابا ، وتنهدت العجائز متأسفات على مواهب الشدياق كيف ضاعت ولم يصر كاهناً . اما خوري الضيعة فكان يؤمّن باعجاب على كل ما قاله الشدياق ، ويتحسر في قلبه على قيراط من فصـــاحة الشدياق ... ثم يقول للذين حوله : « هذا رجل قديس ، المثل الصالح ابلغ واعظ ، وشدياقنا طاهر نقي مثل الاباء الابرار . »

وقبل ان يتوغل الشدياق في موعظته دخل المغترب الخواجا توما فهمس بعضهم : « جا . جا . » وظل سمع الشدياق صادقاً ، فسأل : « من الذي جاء ؟ » فخبروه . والتفت الشدياق فرآه فهتف بلا شعور : « بسم الاب والابن والروح القدس . هذ هو الشيطان . لا ينقصه إلا الذنب . »

وتقدم منه الخواجا توما بزيه الفرنجي الذي لم تر الضيعة مثله من قبل لأنه اول من هاجر وعاد ، فكاد الشدياق يتراجع لو استطاع ولكن الجدار خلفه . وسلّم توما سلام الاميركان فكاد يخلع يد الشدياق الهزيلة .. لم يرق للشدياق ذلك السلام

من التحرير

ورد الى المجلة عدد كبير من المقالات والقصص والقصائد لهذا العدد الخاص . ولكننا نعتذر عن عدم تمكننا من نشر هذه المواد كلها في هذا العدد ، كما نعتذر عن الغاء الابواب المعتادة . وموعدنا بذلك في العدد القادم .

الخارج عن حظيرة الاحترام التي اقامتها القرية حول شدياقها ، ولكن كل شيء مر بسلام . وقعد السيد تومـــا قعدة بلادنا ؛ جلس على طراحة في صدر الحلقة فتضايق وكاد بنطلونه ينشق ، فقام ابن عم له وبنى له مقعدا من المساند ، والشدياق ينظر وقد غاظه خروج المساند من صفها ، ولا سيما ان الخواجه توما جلس ولم يحتف كالآخرين . ما خلع نعليه حين داس البلاس الذي يصلي عليه الشدياق ويقبله مرات حين يسجد . وزادت في الطين بلة حركات توما وسكناته الغريبة الدار . لم تعجب الشدياق حركات توما وسكناته ، وكان يجن حين يسمع منه بعض الفاظ اميركية مثل : يس ، وتنكيو ، وفاري كود ، وغود نايت وغيرهـــا ، ولكنه احتمل ذلك وهو يتمتم : « معآلامك يا يسوع . » ما صبر الشدياق هـذا الصبر إلا ليسمع من المستر توم اخباراً جديدة بلغته عنه . فقـال الشدياق : « توما ، أية ساعة جئت ؟ »

— امس الظهر يا عمي .

— لا تواخذني ، ما قمت بالواجب . عذري واضح ومقبول .

— يس ، يس ، القصد مشاهدتك . الحمد لله شاهدناك بخير .

— كيف تركت جماعتنا ؟

— الجميع بخير ، يسلمون عليك .

فنكزه واحد ووشوشه : « قل ويقبلون اياديك الطاهرة » ففتح توما فاه ليقولها ، ولكن السبق كان للشدياق الذي قال : « وكيف أحوالهم الروحية والمادية » .

— بألف خير ، صاروا شبعانين كلهم .

وسكت الشدياق وهز برأسه ، وظل يحرك شفتيه ، ولكنه لم يقل شيئاً .

وأشار أحدهم عـلى توما ان يخبر الشدياق عن الموارنـــة ويطريهم ففعل ، فقال الشدياق : ما داموا متمسكين بمارونيتهم لا خوف عليهم .

— يس ، عندنا كل شيء ، كنائس ، مدارس ، خوارنة ،

إذا رأيتهم حسبت أنك في لبنان .

— عال ، عال .

وانقشعت الغمامة عن وجه الشدياق وأخـذ يتغنى متهللاً بنشيد مار مارون الذي يعرفه كل قروي ماروني ، فسانده الجمهور في تلك الرحلة الشاقة إلا توما فكان مثـل الاطرش في الزفة .

وما انتهى الشدياق من نشيده حتى فتح توما فمه ليحكي ، فأومأ اليه الشدياق بجمع كفه ان يمهله ليأخذ النفس . واخيراً قال توما : « سمعتك عند وصولي تحكي عن الميلاد : آه يا عمي لو عينك تنظر هذه الليلة في النايرك .. هذي عندنا في النايرك وفي اوربا ليلة عظيمة جداً . أحسن الهدايا تقدم للاولاد ، سي، الأغنيـاء يعطون الأولاد الفقراء كل شيء . المأكولات ، الملبوس ، اللعب ، آه لو عينك تنظر يا عمي ، كل بيت يعمل شجرة تكلفه المبلغ المرقوم، وفي هذه الشجرة أشكال وألوان . »

ثم هز توم رأسه وقال بملء فمه اللاطي تحت شاربيـه : « فاري كود الكرسموس في إماركا . »

فقال الشدياق : ايش دين هذي الشجرة ؟

— هذه شجرة الكرسموس ، يعني الميلاد يعلقون فيهـا الملائكة والشموع والشريط من كل لون ، علب شوكولا ، وبسكوت ، وكاتو .

فقال الشدياق متعجباً : « أسامي غريبة ؟ ؟ ولأيش كل هذا؟ »

— إكراماً للميلاد .

— تبارك اسم سيدنا المسيح ، واصل خبره لهناك ؟ اذن في البلاد التي كنت فيها ناس تعرفه مثل الموارنة ؟

— يس ، يس .. معلوم ، كلهم نصارى يا عمي .

— هذا حدّ علمي ، عال عال .

— يا ليتك تعرف كيف يتصورون الميلاد ؟

— هات خبرنا ، ولكن قوس حنكك مرتخ . شدّ البراغي واحك .

فضحك المستر توم وقال : « تعودت اللفظ الاميركاني » ، ثم صرّ بوزه قليلاً وقال : « يتصورون الميلاد شيخاً كبيراً لحيته لزناره ، وشواربه شبر وأكثر ، يحمل على ظهره كيساً فيه هدايا للأولاد العاقلين . فينام جميع اولاد الاميركان تلك الليلة منتظرين هدايا سانت كلوز (بابا نويل) الذي ينزل الى البيت من المدخنة ... وفي الصباح يكون تحت مخدة كل ولد منهم سكربينة جديدة فيها ملبس واعب واشياء اشياء . »

فهز الشدياق رأسه وصاح : « يه ، يه ، يه ، يه ، صار الميلاد بياع سكربينات . المسيح الذي قال : من لا يدخل من الباب فهو لص وسارق ، ينزل من المدخنة !.. ما شاء الله عن بلادكم يا ابني ، كل شيء فيها ينمسخ . نعم ، كل شيء ... انت مثلاً، رحت توما ورجعت توم وتومي. » وقال باستهزاء : « تعرف يا مستر توم حكاية الميلاد عندنا غير حكايته في بلادكم . اسمع يا ابني حتى اخبرك : كان في ضيعتنا خوري اسمه الخوري نصر الله . كان متزوجاً وماتت خوريّته بلا اولاد ، والخورية مثل الصنوبرة ، إذا انقلعت لا تفرخ كما تعرَف . وهذا الخوري كان من اغنياء الضيعة الكبار ، وليس له اخوة حتى يأخذوا التركة . وهو في الوقت نفسه رجل تقي عمّال خير ، يريد ان يوزع املاكه على المحتاجين . كان يعظ يوم احد النسَبة — أظن ان اميركا نستتك احد النسَبة ، هو الاحد الذي قبل الميلاد — كان يعظ يوم هذا الاحد ويوصي الناس ان يكونوا انقياء ويسيروا بخوف الله لتحل عليهم بركة الميلاد ، ثم ينتظر عتمة ليلة عيد الميلاد ليحمل كيساً من الدراهم الى عائلة فقيرة ، ولهذا كان يقول لهم ، من يعتقد انه يستحق بركة الميلاد فليردّ بابه ردّاً . وهكذا كان كل سنة يقصد بيتاً ليترك فيه الكيس لتلك العائلة . وبقي يعمل ذلك سنين . واخيراً عرف الناس ان الخوري هو الذي يحمل اليهم ذاك الكيس فصاروا يسلكون سلوكاً حسناً ويصلون الى الله لتحل عليهم بركته مع هدية الميلاد . هذه حكاية الميلاد عندنا لا حكاية ميلاد اميركانك الذين صيّروا الطفل الالهي لعبة اولاد . قالوا ان اميركا فيها جنون كثير فما صدقت لولا هذه الخبرية . »

واندحر المستر توم في هـذه المعركة فأراد فتح جبهة ثانية ، فراح يحكي عن جورج واشنطون وتحريره اميركا . فصاح الشدياق وكان صدره قد امتلأ غيظاً : « من هذا جرج

ليلة في القرية

..ومضيت أعصر من سنيني قطرة بيضاء .. في افق الحياة الغائم
في الريف .. بين الكادحين يسوقهم قدرٌ وراء الكون .. فوق العالم
وخطىً تمرُّ على بقايا قصة .. من دمع محروم .. وقسوة حازم
وعلى جدار الكوخ ترقد ظلمة ممسوخة .. كظلاله المتشائم
وجلست بين المتعبين .. ورفرفت روح المساء على الجدار القاتم
في ليلة ظمأى .. تحنّ نجومها .. للفجر .. للشفق الغريق العائم

★

وتوافدوا يتسامرون واقبل الأ طفـال في مرح هنيء باسم
ويثرثرون .. ويفتحون عيونهم في ضوء مصباح هزيل نائم ..!

★

والليل عند الكادحين: خرافة وبقية من ذكريات ملاحم
وخيال كذابين .. يغمرهم رضى ومنى مزيفة كدمع الظالم .!
هي ذكريات حلوة .. موهومة ورؤى من الحقل السعيد الحالم
عبروا على أطيافها .. في نشوة يتسمعون خطى الصباح الناعم

★

وسمعت قصة الف عام لم تزل تطوى لتنشر في الشتاء القادم
عن ليل هارون الرشيد .. وقصره .. المصبوغ بالعطر النديّ الهائم
وعن المصابيح الملوّنة العيون .. ترش بالأحلام بيت الحاكم ..!

★

ومدينة تحت الثرى مطمورة .. .. ذهبية الحيطان .. والأبهاء
وغداً سنأخذها لنملأ بيتنا قمحاً نكدسه بغير عناء ..
وسأرتدي ثوباً جديداً ناصعاً .. واهتز شاربه من الخيلاء ..!!
وسأشتري كل الفواكه لابنتي .. والموز ..! فالتفت على استحياء
ماذا يكون الموز يا أبتي ؟!.. ويورق صوتها في جنة الاغراء ..!

★

ويموء قط في السقيفة حالم بالخبز فوق موائد السعداء
والنخل يخفق في حنان ناشراً أغصانه .. في القبة الزرقاء
وخوار ابقار تصعّد في السما يشكو اليها قصة الضعفاء ..!!

★

وتدف اجنحة الطيور .. وترتمي في عشها فوق الذرى الخضراء
وهفا غرابٌ تائهٌ .. متنقل يطوي عقود النخلة السمراء
وانشق قلب الصمت حين تساقطت بعض الثمار الغضّة الحمراء
وجرى الصغار .. وراء طفل عابث خطف الثمار .. وغاب في الظلماء!

★

والليل يصغي لا يملّ حديثهم وتموج ظلمته مع الاصداء
.. وامتد صوت واهن متكسر هو صوت هذي الجدة العمياء
حسبت مدينتهم .. حقيقة واجد لامنية خلابة الاضواء
لا تذهبوا .. وتجعدت احزانها وتكوّمت في ذلة وشقاء
وأتى من الماضي السحيق حديثها معشوشباً كالغابة السوداء
واطلت الذكرى .. وراء خيالها وتجسدت اقصوصة البؤساء:
والآدميّة في القيود سجينة مظلومة .. تحيا بغير رجاء ..
وسياط فرعون تسوق أمامها زمر العبيد .. وامة التعساء
ولسوف يجلدكم .. وينهب كنزكم «والسجن يفتح فاه للفقراء» ..!
لاتذهبوا .. وبكت .. ولوّن صوتها الاشفاق وانهارت من الاعياء!

★

وانفض سامر ليلة شرقية في الريف بين مواكب البسطاء
ومضيت اعصر من سنيني قطرة بيضاء في الافق البعيد النائي
وأسوق ايامي قطيعاً شارداً يعدو وراء قوافل الغرباء ..!

محمد فوزي العنتيل

من رابطة النهر الخالد

شنتان حتى تذكره وتنسى مار مارون ؟! مار مارون ، حررك من عبودية الطاغوت. خربت يا توم ، رجعت الينا تافان ما فيك شعرة من الموارنة . »

وكان الناس يعجبون بحديث المستر توم ولكنه لما احتك بالشدياق سقط من عيونهم ، وقال واحد : « شخص مثل الشدياق حرام يموت . »

ولما تقهقر المستر ثانية في معركة الاشخاص ، راح يتحدث عن الاختراعات الحديثة فقال : « اليوم اخترعوا آلة تحكي وحدها ، مثلاً ، حديثنا الليلة ، تلقطه هذه الآلة وتراجعه لنا ساعة نريد . »

فلم يزد الشدياق على قوله : « الدنيا فيها كذب كثير . »

فاستاء توم وحلف للشدياق انه رآها وسمعها ، وكان نوى ان يحضر معه واحدة منها ولكنه جاء على عجل . ثم خبره عن الاوتوموبيل والبالون فاستولت على الشدياق الدهشة واصابه شيء كالذهول . وفتش عن منفذ فوجده فقال : « ربما انها صحيحة ، والا فكيف صعد مار الياس الى السما في مركبته النارية ؟ . »

وطاب للسامرين ان يتحدثوا عن الآلة المسماة بالفونوغراف

يسمع ولا يجادل ،وعيون الناس شاخصة اليه، وظلوا مستغربين سكوته العميق حتى رأوه يحل حبوته ويتمدد ويصيح : «ضعف الضو يا مرتا . »

ورأى الناس المصباح يزهر كما كان ، ولكن مرتا رفعت الفتيلة ففاض النور ، وبعد هنيهة صاح الشدياق : « مرتا ، الضو ضعيف يا جدي ، مخّطي السراج ، صبّي الزيت . »

وجاء دور النقل واخذ الجمهور يتلهّى بأكل التين والزبيب واللوز والجوز . كانوا يلغون ويلغطون ، والشدياق مشغول عنهم في انحلال جسده ، فهو يموت عضواً فعضواً . وكان المستر توم يفيض في التحدث عن عجائب اميركا والناس يصغون اليه مرتخية افواههم .

وفي تلك الفترة قال الشدياق بصوت كأنه خارج من قعر بئر : « اين الخوري ؟ »

فاقترب منه الكاهن فقال له : « اتت الساعة . صلوا جميعاً لاجلي ، صلوا يا اخوتي ، اغفروا لي من اجل المسيح . حلّني يا محترم . »

فوقف الخوري على سلاحه منتظراً اللحظة الملائمة . واستحال البيت كنيسة . ركع الجميع يصلون ويرتلون طلبة المزاعين ليعاونوا الشدياق على رحيله من هذه الدنيا ، وبصوت يكاد لا يسمع رتّل الشدياق وعيناه مغمضتان ، النشيد المريمي .

ان قلبي في هوى مريم ... لم يزل مشغوفاً مغرم
يرجو فرجا ... من ثقل الآثام

وانقسم الجمهور جوقتين مرتلين ، وسكت الشدياق ولكنه ظل يحثهم بهزة الرأس :

جرّني عملي لقطع الرجا ... ولم يبقَ لي قط ملجا
إلا مريم ... حسن الخلاص والنجا
زيت الشفا بلسم النقا ... خبز العبادة خمر التقي
يا سعد من في باب مريم التقى
تمام سعادتنا في الثبوت ... بعبادتك حتى نموت
هاللويا ... ونحظى بالملكوت

ولم ينته النشيد حتى كان الشدياق قد انتهى ، فاستحالت السهرة مأتماً . وفيما هم يخلعون ثياب الشدياق ليلبسوه الثوب اللائق بمقابلة القديس بطرس عثروا على ورقة فيها وصيته ، فقرأها الكاهن على الجمهور :

١ - يهب مرتا بنت ابن اخيه بيته وما حوله من ارض وما فيه من متاع ، بشرط ان تأخذ ابن عمها متى .

٢ - يلتمس من غبطة البطريرك ان يحقق بعد موته ما حرمه إياه في حياته ، فتبنى كنيسة على اسم مار مارون وقد جعل لها وقفاً ضيعة اخرى بكاملها .

٣ - يقف ما بقي عنده من عقار على بناء مدرسة لأحداث الضيعة،ومن رَيعها يدفع راتب المعلم ليدرسهم السريانية والعربية .

* * *

وأصبح الناس والشمس مكسوفة ، والضيعة في عتمة ، فارتفع الشدياق عندهم إلى مرتبة الطوباويين . وفيما هم يأكلون مأدبة الميلاد التي أعدها لهم الشدياق قال واحد، والكلام يزاحم الطعام : « بعدما رخت تطلعت صوب بيت الشدياق فرأيت الملائكة طالعين نازلين من البيت . »

وقال جاره : « وأنا رأيت كوكباً طلع من البيت وحلق ثم اختفى خلف الجبل . »

وقالت امرأة : « طول الليل ونحن نسمع أغاني وتراتيل وصنوجاً ونواقيس تدق في بيت الشدياق . »

وقال الخوري : «الشدياق قديس لا شك فيه ، فالشمس كسفت مرتين مثل هذا الكسوف : مرة يوم موت سيدنا يسوع المسيح ، ومرة اليوم . هنيئاً لنا صار عندنا قديس ، هو وحده يغل لنا ويدر علينا اكثر من الف وقف .. »

مارون عبود

القصة العربية في افريقيا الشمالية

يشتد اهتمام الاوساط الأدبية في فرنسا بما يصدره ادباء افريقيا الشمالية، باللغة الفرنسية، من آثار ادبية تكتسب يوماً بعد يوم ميزات وخصائص، جدير بها ان تخلق مدرسة ادبية جديدة في النتاج الفرنسي المعاصر[1]. وتذكر، في هذا الصدد، اسماء ادباء من افريقيا الشمالية، وخاصة من الجزائر، حظيت آثارهم بالتقدير، ونالت بعض الجوائز الأدبية الكبرى. وعلى رأس هؤلاء ألبير كامو Albert Camus وعمانوئيل روبلس Emmanuel Roblès وكلود دوفريمنفيل Claude de Freminville وسواهم ممن بدأوا انتاجهم في اثناء الحرب الاخيرة وبعدها. ومنذ عامين او ثلاثة نشأ جيل جديد من الادباء الافريقيين تميّز نتاجهم ببروز اللون المحلي الذي يكشف عن علائق الانسان بارضه واقليمه. ومن هؤلاء مولود فرعون ومحمد ديب Mohammed Dib الخ..

وطبيعي ان تشجع دور النشر الفرنسية، سواء في افريقيا الشمالية او في فرنسا، نشر هذا النتاج، ما دام مكتوباً باللغة الفرنسية.. اما تشجيع الآثار الأدبية المكتوبة باللغة العربية، لغة البلاد، فأمر لا محل له، او هو امر غير مرغوب فيه!..

ومن هنا كان ضعف الأدب العربي إجمالاً في تلك البقعة من افريقيا. على ان هذا الضعف يتفاوت قوة – اذا صح التعبير – بين المناطق الثلاث التي تؤلف تلك البلاد، ولا بد هنا من التمييز بينها.

فان الجزائر التي ترزح تحت الاستعمار منذ اكثر من قرن والتي لا تنعم بمركز ثقافي اسلامي، خلافاً لتونس ومراكش، هي اضعف نقطة في الثقافة العربية بافريقيا الشمالية. والحق ان هذه الثقافة تكاد تكون ممحوّة امام الثقافة الفرنسية هناك. ومن هنا نفهم ان يكون معظم الادباء الذين يكتبون بالفرنسية من اصل جزائري.

واما في مراكش، فبالرغم من وجود مركز ثقافي عربي اسلامي، هو جامعة القروين في فاس، فلا شك في ضعف الجهود المبذولة في العهد الحاضر من اجل «تعصير» التعليم العربي ونشره. وهكذا تنزع الثقافة الحديثة التي ينشرها التعليم الى ان تكون ثقافة فرنسية فحسب.

واما في تونس، فيبدو ان مركزين رئيسيين لا يزالان يحافظان على حياة الثقافة العربية الاسلامية؛ نقصد جامعة الزيتونة القديمة من جهة، وكلية «صادقي» الحديثة التي تأسست قبل الحماية الفرنسية ببضع سنوات، من جهة اخرى. والحق ان التعليم العربي في جامعة الزيتونة كان منذ الربع الاخير من القرن التاسع عشر حتى ايامنا هذه، موضوع كثير من التحسينات من اجل دفعه في طريق النظم الحديثة. وبالامكان القول ان هذه الجامعة هي التي تقدم لتونس كلها جمهور المثقفين العرب من الادباء والقراء على حد سواء. واما كلية «صادقي» التي كان مؤسسها الوزير خير الدين (١٨١٠–١٨٩٠) يودّ ان يجعل منها معهداً للتعليم العالي العصري يساعد على جعل الثقافة العربية في تونس ثقافة عصرية، فيبدو انها قد كفّت منذ وقت طويل عن القيام بهذه المهمة. فالحق انها اصبحت مؤسسة للتعليم الثانوي الفرنسي، وان كان التعليم العربي لا زال قائماً فيها. وايّاً ما كان، فقد تخرّج من هذه الكلية عناصر طيبة من النخبة الفكرية التونسية تجمع العلم الحديث الى معرفة جيدة باللغة العربية.

وواضح ان النتاج الادبي، في هذا الوسط الثقافي، هزيل بالاجمال. ومردّ ذلك في الدرجة الاولى ان الثقافة العربية الاسلامية في البلاد الافريقية الثلاثة ليست معتبرة من قبل المسؤولين الحكوميين ثقافة وطنية قومية جدير بها أن تكون موضع عنايتهم بهذه الصفة.

ويبدو ان هناك امراً لا شك فيه من الناحية التاريخية، هو ان «تنازع نفوذ» قام ولا يزال قائماً، في اشكال متشابهة وعهود مختلفة، بين الثقافة واللغة العربية، والثقافة واللغة الفرنسية. وفي هذا الصراع، تتفاوت الانتصارات والخسائر التي تصيبها هذه الثقافة او تلك بين بلد وبلد. ويبدو كذلك ان الثقافة العربية تحافظ على مراكزها في تونس خيراً مما تحافظ عليها في مراكش والجزائر. وهي على كل حال في موقف دفاعي.

---

(١) راجع استفتاء مجلة « Les Nouvelles Littéraires » العدد ١٣٦٤ تاريخ ٢٢/١٠/٥٣.

من اجل هذا ، يسهل علينا ان نفهم ان تكون مشاركة الحركة الثقافية في افريقيا الشمالية بالنتاج العربي الادبي مشاركة محدودة .

ولا شك في ان تونس قد شهدت في العقود الثلاثة الاخيرة عدداً من الادباء الذين تحتفظ آثارهم بقيمة ادبية غير مشكوك فيها . ومن هؤلاء في ميدان الشعر الخزندار ومصطفى آغا والعربي قبادي. والعالم العربي يعرف شاعراً تونسياً عظيما مات وهو في ابان شبابه وكان يَعِدُ باجمل الوعود، هو ابو القاسم الشابي الذي يعد في طليعة الذين عرفتهم العربية في القرن العشرين .

★

واما في ميدان القصة ، فان معلوماتنا عن انتاج الجزائر ومراكش تكاد تكون معدومة ، بسبب ان المصادر والآثار نفسها معدومة . وحتى في تونس، نادرة جداً هي المؤلفات المطبوعة. وان معظم القصص التي اتيح لنا ان نطلع عليها منشورة في مجلات ادبية لم يكن صدورها منتظماً، كـ«المباحث» و «الثريا» و«العصبة» و « الندوة » . [1]

واهم النتاج القصصي الذي ظهر في احدى هذه المجلات (المباحث، العام ١٩٤٥)، هو نتاج محمود المسعدي الذي نشر رواية كاملة ، وبعض فصول من رواية اخرى . وتطغى على هذا النتاج نزعة فلسفية عميقة لا يخلو ادراكها من صعوبة .

اما الرواية الكاملة التي نُشرت متسلسلة في « المباحث » فعنوانها « مولد النسيان » . ويجد القارىء فيها عدد الاشخاص محدوداً جداً : مدين ، الطبيب ، وليلى زوجته وخادمتها هند، وشخص رابع يدعى « رنجهاد » هو في الحقيقة رمز اكثر مما هو واقع . اما مدين فتستأثر بذهنه مشكلة الموت بسبب ذكرى امرأة كان قد احبها فماتت . وقد كان يحاول ان يجد حل المشكلة بتجارب مختبرية ، وكان يعتقد ان هذا الحل يتم بقتل الذكرى ، اي الزمن الذي هو الشعور بالبقاء والديمومة والصيرورة وكان يعتقد كذلك ان نزهات مع رنجهاد في عالم من الاحلام والسحر لا بد من ان تعينه على ذلك . وهكذا نراه يتجول ، بنوع من الرؤية المأخوذة ، في عالم الاموات حيث يلاقي بعضُ الموتى ، قبل ان ينعدموا نهائياً ويفقدوا كلياً الشعور بوجودهم الذاتي ، آلاماً قاسية جداً بسبب من ذكرى حياتهم الجسدية التي تظل معلقة بارواحهم. وتقوم في ثنايا الرواية مناقشات واحاديث بين مدين وزوجته ليلى تلقي بعض الاضواء على المشكلات التي يطرحها المؤلف . ويبدو انه ليس هناك في نظره الا مشكلة واحدة ، هي مشكلة الكائن ككل لا يتجزأ ولا يمكن ان يقوم فيه اي تفريق بين الجسد والروح ، وإلا انعدم الكائن هو بالذات . ويظهر ان ما يستشعره المؤلف آخر الامر كهلاك للكائن الذاتي ، هو ان هذا الكائن لا يستطيع ان يدرك نفسه الا بما يميّزه عن سواه ، ولا يمكن ان « يوجد » إلا بان يتجسد في شكل مادي وينفصل بذلك عن « الكائن الكلي » . ثم اننا نرى « مدين » في اللحظة التي يحسب فيها انه اكتشف سر النسيان ، ينحدر في وهم من « المشاركة » في « الكائن الاعظم » ويمتزج بكل ما يعيش . ولكن المخدر الذي كان يحسب انه هو الذي اتاح له اكتشاف سرّ النسيان ، ما يلبث ان يقتله . وهكذا تنتهي الرواية بخاتمة يائسة متشائمة : من العبث ان يحقق الانسان في نفسه نسيان الوجود الذاتي المحتجز في الحدود [illegible]دية للجسد وحدود زمن الحياة .


محمود المسعدي

وبالرغم من العناية التي يبذلها محمود المسعدي للتعبير عن افكاره وارائه بشكل قصصي ، فان هذه الرواية تقتضي القارىء تنبُّهاً موصولاً ربما اجهده وارهقه ، لا سيما ان كان معتاداً قراءة القصص التي ليست لها امتدادات فلسفية . على ان بامكاننا ان نقول : إن « مولد النسيان » ربما كانت ، في الادب العربي الحديث، الرواية الاولى التي تضمّ نزعة واضحة الى جعل الابطال يعبّرون بحياتهم الداخلية وآرائهم واعمالهم عن طائفة من الافكار حول قضية انسانية عامة ؛ وهذا هو حقاً ما نفتقده في الروايات العربية المعاصرة ، وهذا ما يميّز القصص الغربي في آخر مراحله .

وليس من العسير ان نجد في « مولد النسيان » نزعة تعبّر عن فلسفة « العبث » L'Absurde هذه التي يحمل لواءها اليوم

(١) حدثنا بعض التونسيين في باريس ان هناك مخطوطات كثيرة لا يجد اصحابها المطابع لاصدارها فتظل نائمة في الادراج .

اديب افريقي آخر، نعني كامو. ومن الملاحظ ان النتاج الافريقي يتميز يوماً بعد يوم بهذه النزعة التي وصفها «سارتر» في حديث له عن «كامو»، بانها لون من «التفاؤل» الاسود..

ولا يصعب على القارىء ان يلاحظ ان المسعدي يبذل جهداً واضحاً لاكساب اشخاص قصته، على انها تجريدية، نوعاً من الحياة يمكّنه من عرض افكاره بشكل محسوس. فهو يضع الحبكة في اطار خاص وديكور خاص ليعلّق فكرته الفلسفية بلوحات طبيعية معروفة. من ذلك مثلاً هذا الحديث في اول الرواية بين مدين وليلى حول الموت، وهو حديث يجري حول طاولة وسلة من الفاكهة، فيبدأ بالغذاء الجسدي ويتسلسل الى الجسم المعرّض الى دود الارض، ثم يبلغ قضية الحياة والموت.

واما الفصول المنشورة في «المباحث» نفسها (العام ١٩٤٦) من رواية المسعدي الثانية، «حدّث ابو هريرة قال...» فهي ترتدي الطابع الكلاسيكي «للحديث» أو «الخبر». ولما كانت هذه فصولاً غير كاملة فليس بوسعنا هنا ان نحللها. على ان بوسعنا ان نفهم منها ان الموضوع يدور حول دراسة التطوّر النفسي لبطل القصة «ابو هريرة» الذي يعاني عدداً من التجارب الهامة: تجارب مادية وجسدية (حديث البعث)، تجارب بسيكولوجية (حديث العدد)، تجارب اجتماعية (حديث الكلب) الخ..

ولا بد لنا اخيراً من الاشارة الى اسلوب المسعدي. فهو شديد الصفاء والجزالة، بل لعله من اجزل الاساليب العربية الحديثة وأمتنها تركيباً. إنه احدى المحاولات الناجحة للتعبير عن احدث الآراء باسلوب كلاسيكي اللغة، وهذه في الحق مدرسة ادبية جديدة في التعبير.

☆

ولا نخال ان في اهتمامنا بانتاج محمود المسعدي أية مبالغة. فان القصص التي أتيح لنا ان نطلع عليها لبعض الكتّاب التونسيين المعاصرين تدلل ان المسعدي يملك أنضج فكر وأقوى فن قصصي في افريقيا الشمالية.

فان كتاب محمد علي الدوعاجي «جولة بين حانات البحر الابيض المتوسط» يمتّ الى كتب الرحلات، لا الى الفن القصصي. ويتميز المؤلف بحسّ فكاهي مرهف؛ وقد كتب عدداً من الاقاصيص لا يخلو بعضها من أهمية، كأقصوصة «أمن تذكّر جيران بذي سلم» [١] التي تصوّر امانة رجل طوال ثلاثين سنة لذكرى امرأة اتاحت له، وهو طفل بعد، ان ينعم بمباهج عيد كان محروماً منه؛ واقصوصة «نزهة رائعة» [٢] وفيها يمتزج الوصف بالفكاهة.

وتحمل أقاصيص عبد الرزاق كرباكه (١٩٠١-١٩٤٥) المنشورة في مجلة «الثريا» تحت عنوان «عبرة في قصة» طابعاً ثقيلاً من توخّي العظة الاخلاقية، وان كانت لا تخلو من نقد المجتمع وتصوير آفاته.

ومن القصص الشديدة الايحاء قصة «الرماد» [٣] بقلم محمد العريبي وهي تصور احاسيس شاب يظهر اللامبالاة والبرودة، ولكن اعماقه تضطرم بنيران الثورة.

ودون ذلك في الاهمية، اقاصيص توفيق ابو غدير التي تبدو تلخيصاً لروايات طويلة اكثر منها اقاصيص؛ واما ما كتبه بكير فيمتّ الى المقامات باوثق الصلات؛ وفي قصص عياش معرّف يغلب الغريب والعجيب على الطبيعي المألوف، وتنهض العُقَد احياناً على مزاح او تفكهة [٤]. على ان له بعض اقاصيص جيدة تبشر بموهبة قصصية كـ«الغيرة» و«الولي»...

☆

وبعد، فان النتاج الادبي العربي في افريقيا الشمالية لايزال هزيلاً بالاجمال. على انّ من يطالع الصحف الادبية التي ترد من تونس ومراكش كـ«الندوة» و«الانوار» يشعر بان ادباً عربياً فتياً بدأ يُطلع ثماره، بالرغم من مختلف العقبات التي تُحدث ضغطاً ثقافياً من شأنه ان يؤخر ازدهار الادب ونموه، ويحول دون ان تنعم العبقريات المكبوتة بكامل حريتها في التعبير.

وان كل ما نتمناه هو ان تتمكن افريقيا الشمالية من الفوز باستقلالها وحريتها، فتتيح للحريات ان تنطلق وللادب ان يزدهر، وبذلك تنضم الى موكب النهضة الادبية الحديثة في مختلف الاقطار العربية، وتغني هذه النهضة بلون جديد من النتاج لا يعوزه الابداع ولا يفتقر الى العمق والنضج.

سهيل ادريس

---

(١) مجلة «المباحث» العام ١٩٤٥، العدد ١١.

(٢) مجلة «المباحث» العام ١٩٤٦، العدد ٦.

(٣) مجلة «المباحث» العام ١٩٤٥، العدد ١٠.

(٤) راجع اقاصيص «سببه القط» و«في رمضان» و«العبقري» الخ... في اعداد مختلفة من مجلة «العصبة»

بنادق في لواء الجليل

قصة جديدة

بقلم الدكتور عبد السلام العجيلي

١ . بندقية فراضة

التقينا بحسون في فراضة .

وفراضة قرية تقع في غربي صفد على الطريق الذي يصلها بالرامة وعكا .

اما حسون فهو صبي في الثانية عشرة من عمره ، بدوي ، خلق الثياب ، تبدو في عينيه نظرة لص ، او هذا ما خيل الينا حين رأيناه لأول مرة مقعياً في رأس الزقاق الذي يفضي الى مخزننا ، يراقب بعين لا تطرف المجاهدين وهم يضعون في المخزن ذخيرتهم وغذاءهم .

وكان اول من انتبه منا الى حسون هو ابو سليم كسار الخيل. ولم يكن ابو سليم كساراً للخيل في الحقيقة ولكننا اطلقنا عليه هذا اللقب لما رأيناه من خوفه وللرعشة التي كانت تنتابه كلما ذكر امامه ان الانكليز سيهاجموننا أو ان فدائية الهاغانا تدور حول مراكزنا ليلاً لتنسفها بالالغام كما فعلت في دور قرية سعسع . ولعلكم تسألون ماذا كان ابو سليم يفعل مع المتطوعة من المجاهدين المفروض فيهم ان يكونوا شجعانا لا يهابون الموت . لقد كان ابو سليم صف ضابط متقاعد فأرادوا هناك ، فوق ، حيث كانت تدار عمليات المجاهدين ان ينفعوه فأرسلوه الينا برتبة ملازم مديراً لاعاشتنا . وقد احببنا ابا سليم على جبنه ، وذلك لما رأيناه من اهتمامه بمصالح بطوننا ، ولأحتجاجاته التي لا تنتهي حين يضطرنا اهمال من هناك، فوق ، الى ان نأكل الفاصوليا البيضاء مسلوقة بالماء دون خبز ولا دهن .

حاصله ... كان ابو سليم كسار الخيل اول من انتبه الى حسون وهو يرمق ذخيرتنا واغذيتنا بعين الشره . ولعل ابا سليم ظن حسون من الهاغاناه، فقد امسك بيدي بينا كنت احمل على كتفي صندوقاً من ذخيرة الرشيشات واشار بحذر الى وقفة هذا الصبي التي تدعو الى الاشتباه . ولما كان نصيبي من الحذر اقل من نصيب ابي سليم بكثير ، فقد عدت بعد ان وضعت صندوق الذخيرة في المخزن وفي يدي رأس من البطاطا عفن كبير وألقيت به في صدر ذلك الصبي الذي كان لا يتحرك من مكانه في رأس الزقاق. وكان الصبي مقعياً ولذا فقد اختل توازنه من قوة الصدمة برأس البطاطا، فانطرح على الارض. وندت من ابي سليم زفرة ارتياح حين رأى الصبي ملقى على جنبه . ولكني في الحق ندمت على ما فعلت ، فهرعت نحوه لأرى ماذا اصابه . ولعله ظن اني جئت لأضربه ، فقد قام من مكانه وتهيأ في حذر، لا للهرب ، بل لتلقي اللطمة التي خيل اليه اني سأكيلها له . ويجب ان اقول ان النظرة التي كانت في عينه لم تكن نظرة خوف ولا نظرة استسلام بل كانت نظرة صبر من هذا الخلق الذي اعرفه في البدو ، والصبر المشوب بالتمرد . ولم اكن اريد ضربه طبعاً فقد شعرت اني جرت عليه بما فيه الكفاية في قذفي له برأس البطاطا الكبير العفن . سألته :

– ما اسمك يا صبي ؟

– حسون .

– لماذا انت واقف هنا منذ الصباح ؟ أما لك عمل تعمله ؟

فسكت ولم يجب . فعدت اسأله :

– هل انت جوعان ؟

– لا ، ولكني اتفرج على البواريد .

فتطلعت الى صباه اليانع وقلت له :

– البواريد ليست للفرجة يا بني ، بل للضرب بها ...

وانصرفت لألبي نداء ابي سليم الذي كان يعد اكياس المؤونة بأصابعه بينما كان قلمه مثبتاً وراء اذنه على هيئة صغار التجار في سوق البزورية . ولما انتهينا من وضع كل شيء في موضعه خرجت امسح العرق عن جبيني بكم بذلة المتطوعين العسكرية التي كنت ارتديها، فأبصرت حسون لا يزال مكانه من رأس الزقاق وعينه مثبتة على المخزن . فقلت له :

ألم تشبع من الفرجة ؟

فأجاب ببساطة :

– لا ، لم اشبع .

فأحطت كتفه بساعدي وانا اقول

– هل تحب ان تكون لك بندقية ؟

فرفع بنفور البدوي يدي عن منكبه ، وقال :

– ستكون عندي واحدة عن قريب .

– من اين ؟

– ذهب ابو العبد الى سوريا ليشتري سلاحاً فأعطيناه خمسة وعشرين جُنيهاً ليشتري لنا بها بارودة جيدة . وقد قرب ان يعود .

ثم ادار ظهره وانصرف .

ومضت لنا ايام في فراضة ألفنا فيها حسون وألفناه . ولم يعد ابو سليم كسار الخيل يتخوف منه او يحسبه عيناً للهاغاناه ، بل انه اخذ يستعين به في الامور التي لا يستطيع غير صبي من اهل البلاد القيام بها . وهكذا اصبح حسون ينام على صناديق الديناميت في مخزننا ، ويتسلم من المجاهدين الذاهبين في اجازة بنادقهم او يسلمها الى المجاهدين الجدد الذين كانوا يجتازون الحدود في طريقهم الى قواتنا المتوزعة في لواء الجليل . ويبدو ان حسون كان يرى في كل بندقية يمسك بها صورة البندقية التي سيحملها اليه ابو العبد من سفرته الى سوريا. وكثيراً ما وقعت عيني عليه وهو يسير بأصابعه برفق على حديد البندقية او يربت بكفه على خشبها قبل ان يسلمها الى صاحبها . وكنت بين الحين والحين ، كلما لحظت عليه خنوه على احدى البنادق ، اصيح به :

– حسون ! ألم يعد ابو العبد ؟

فينتبه من استغراقه ويضع البندقية مكانها ويقول :

– قرب ان يعود ...

الى ان عاد ابو العبد ذات يوم . وبالطبع لم اكن اعرف ابا العبد . ولكن حسون جاء الي في ذات صباح لا تكاد قدماه تمسان الارض من فرط حبوره ، فقد عاد تجار السلاح من سوريا ضحى امس ، هكذا انبأ القادمون من صفد اباه في العشية . وعاد معهم ابو العبد ببندقية جيدة لحسون ، هكذا اضاف ابو حسون من عنده ليبل غليل ابنه . وراح حسون يتساءل ويتخيل

ويبدع في وصف البندقية التي أتى بها ابو العبد والتي لم يرها هو بعد . لم تعد بنادقنا تعجبه . انها بنادق فرنسية ، قصيرة ، خفيفة ، تحمى بسرعة ، واذا اطلقت في الليل قتلت صاحبها اذ تدل عليه عدوه بالنار العظيمة التي تنطلق من فوهتها . بضاعة فرنساوية !... اما البنادق التي تأتي من سوريا فهي غير ذلك : بنادق المانية عجيبة ، او تركية من التي صنعها الالمان للاتراك ، واذا ساءت تلك البنادق التي تأتي من سوريا فهي بنادق كندية من التي نهبها اولئك الابطال السوريون من الانكليز . ترى ما هي البندقية التي حملها ابو العبد لحسون ؟ ان خمسة وعشرين جنيهاً ليست بالمبلغ الكبير، ولكن ابا العبد يعرف ابا حسون جيداً ويعرف انه باع كل ما عنده ليجمع هذا المبلغ ، لذلك فهو لا بد باذل جهده ليشتري به بندقية جيدة لحسون يتسلح بها كل يوم ويحملها في الليالي حين يجيء دوره للاشتراك مع شباب القرية في تولي الحراسة الليلية ... هكذا كان حسون يقول لنفسه دوماً ولي احياناً . ولا بد ان استمراره في محادثة نفسه بهذا طيلة فترة انتظاره عودة تجار السلاح جعلها مستعدة لأن ترى في البندقية التي سيحملها اليه ابو العبد خير بندقية في الدنيا . ولم يتغير اعتبار حسون لبندقيته حتى بعد ان رآها. فقد كانت في الحق بندقية هزيلة. مسكوفية بالية القاعدة الخشبية ؛ قد احيطت من وسطها بحلقة معدنية . اما رصاصها فلم يكن اصلياً ، اذ لا بد ان المعامل التي كانت تصنع ذلك الرصاص قد توقفت عن العمل منذ زمن بعيد ؛ ولذلك فقد كانت مرفقة بعدة امشاط من الرصاص الصب ، كان ابو حسون يحملها في حزام قديم . ولما رأيت حسون يختطف البندقية من يدي ابيه وينطلق فرحاً ليريها لأبي سليم كسار الحيل واصحابه من المجاهدين الباقين في فراضة ، سألت ابا حسون :

– الم يجد ابو العبد لك خيراً من هذه البندقية ؟

فقال البدوي في مرارة :

– هذا ما تأتي به الخمسة والعشرون جنيهاً .

وسكت قليلاً ثم اردف :

– ينبغي لك ان تسمع ابا العبد لتعلم ماذا تحمل حتى استطاع شراء البنادق التي جاء بها . لقد اصبح السلاح هناك ، في سوريا ، اغلى من الذهب . كلما تسامعت بأبي العبد قرية ارتفع سعر البندقية خمسة جنيهات ... واي بنادق ؟ نعم لقد عاد التجار ببنادق جيدة ، ولكنها ليست بخمسة وعشرين جنيهاً ولا حول هذا المبلغ ... الحكومة هناك سهلت مهمة ابي العبد، ولكن ماذا تفعل الحكومة مع من لا دين لهم ولا وطنية عندهم ؟ كأننا نريد البنادق لا لندافع بها عن اعراضنا ودمائنا بل لنغزو بها ونكسب الاموال !

وسكت ابو حسون وهو يتبع بنظره ابنه الذي لاح في احد منعطفات القرية يحمل مسكوفيته البالية ؛ ثم قال :

– يقول ابو العبد انه كاد ان يعود بالخمسة والعشرين جنيهاً دون ان يشتري بها شيئاً . فقد اعجزه ان يجد بها بندقيـة صالحة . تصور الخيبة التي كانت تصيب حسون لو حدث ذلك ! انه يهذي بالبندقية ليل نهار . ولكن شيخ العشيرة الذي اشترى منه ابو العبد سمع ببنادق صالحة بين عثمانية والمانية عرض عليه هذه البندقية بخمسة وثلاثين جنيهاً . فلما قص عليه ابو العبد قصة بقرتي التي بعتها رضي ان يتنازل عن هذه المسكوفية بالخمسة والعشرين جنيهاً . صحيح انها في زمن اليسر لا تباع بأكثر من عشرة جنيهات، ولكن ماذا نفعل ؟ ليس لنا إلا ان نشكر ابن الحلال شيخ العشيرة ذاك ان برد قلب الصبي ويسر لنا سلاحاً ينفعنا وقت الشدة . فشكراً له ، شكراً ...

وطرق اسماعنا فجأة صوت طلقة . كان في الاتجاه الذي ذهب فيه حسون . لقد استبد الفرح بالصبي فأراد ان يجرب بندقيته . ورأيت الوالد المسكين ترتسم على شفتيه ابتسامة حزينة وهو يقول :

– لو يقتصد في رصاصاته !

وعاد يحدثني. ولكن جلبة ارتفعت من آخر الزقاق ورأيت حسون مقبلاً. ولم تكن بندقيته معه. كان يمشي متخاذلاً وقد امسك احدى يديه بالاخرى. فهرعنا راكضين انا وابوه ، وصحت :

– ماذا حدث يا حسون ؟

فمد الي يده اليمنى وكانت كفها ممزقة يقطر منها الدم وتتدلى فوقها جلدة ذراعه . لقد اراد ان يجرب بندقيته فصوبها الى صخرة الجامع فانفجرت لأول طلقة في كفه ...

وكان واحد من اهل القرية يحمل حطام البندقية بيده . وخرج ابو سليم كسار الحيل يحمل المطهرات ولفافات الضماد ليسعف حسون . اما انا فقد تطلعت الى ابي حسون فرأيت عينيه تغرورقان بالدمع وهو يتنقل النظر بين اشلاء البندقية واشلاء كف ابنه . وسمعته يتمتم ، واحسبه كان يعني شيخ العشيرة ، الكريم ، بائع السلاح الذي باع ابا العبد بندقية مسكوفية مهترئة بخمسة وعشرين جنيهاً، احسبه كان يعني ذلك الشيخ فيما كان يقوله بينه وبين نفسه مردداً في خفوت :

– شكراً له ، شكراً ...

٢ . بندقية الحقاب

انا اوافقكم على ان حكاية بندقية فزاضة هذه محزنـة . هؤلاء الذين لا يخافون الله ولا يعرفون للوطن حقاً فيرفعون سعر السلاح حين يرون الناس بحاجة اليه ليدافعوا به عن ارضهم وعرضهم . واولئك الانذال الذين يبيعون

المجاهدين بنادق تالفة تنفجر في ايديهم . وحسون المسكين الذي اضاع مال ابيه واصابع كفه . كل هذا محزن . على اننا يجبان لا نتشاءم، فليست كل حكايات البنادق محزنة ، بل فيها احيانا مهازل ومضحكات . ومن هذه المضحكات حكاية بندقية الحقـــاب .

الحقاب خربة متهدمة كائنة في واد منعزل في جنوبي صفد في الطريق الذي يصل فراضة بجب يوسف . هل قلت في الطريق ؟ في الحق ان الحقاب لست على طريق ، اية طريق . وهذا ما اعطاها ميزتها بالنسبة الينا . فقد اودعنا في بنائها المتهدم ذخيرتنا حين استقرت جماعتنا في قرية الغديرية . وكان الرقيب سمعان مكلفاً بحماية الذخيرة والهرب بها على بغاله في المسالك الوعرة اذا ما حاول التسلل اليها عدو ، او اتلافها اذا لم يكن بد من اتلافها . والصحيح اني ، حين جئت من الغديرية لأحمل بعض الذخيرة الى جماعتنا، حسدت الرقيب سمعان على جواره للبغال وعلى سكناه في خربة الحقاب . فقد كان الوادي الذي تقوم فيه الخربة هادئاً في تنائيه عن القرى، تفرش الخضرة قاعه وتنمو في سفحه الاشجار البرية . وكانت هناك عين جارية وراع صبي يصفر بشبابته لجداء صغار تتواثب بين الاشجار المورقة ولا تهمها في شيء همومنا . واظن اني نسيت اخواني المجاهدين للحظة وانطلقت اريد محادثة الصبي الراعي.ولكن شبحاً لاح لي بين الصخور مقبلا من وراء السفح اعادني الى واقعي . فخرطت عن منكبي بندقيتي التي لا تفارقني وتهيأت لملاقاة هذا الوافد الغريب. وانحدر الشبح يتدهدى من اعلى السفح الى قعر الوادي في اتجاهي.كان احد المجاهدين عرفته من هيئته ولم اعرف شخصـــه ، مقبلاً في سرعة وبندقيته في يده . فصحت به :

– قف مكانك ... ماذا جاء بك الى هنا ؟

ورأيته يقف مرتاعاً ، لم يكن يتوقع رؤيتي ، واعدت عليه سؤالي :

– ماذا جاء بك الى هنا ؟

قـــال :

– لقد وقعت الواقعة هناك ...

فأحسست بان اصابع قاسية تقبض على فؤادي وان ريقي قد نشف في لهاتي ، وصحت به :

– ماذا جرى ؟

– لقد هوجمنا . قنابل الهاون، والرشاشات، والجيش الانكليزي يزحف.

ووجمت . كان ذلك منتظراً ، فما كنا نخاف اليهود وانما كنا نحسب حساب الانكليز . وكان يجب ان يطير فكري الى اخواني هناك في قلتهم والجيش الانكليزي بدباباته ومشاته يطوقهم . والى قرية الغديرية بدورهـــا الحجرية القليلة وبويتات الشعر المنتشرة بينها وقد ارتفعمنها صراخ الاطفال وعقل الذعر ألسنة النساء فيها. كان يجب ان يطير فكري الى ذلك،ولكن هذا لم يحدث، وانما الذي حدث ان عيني ثبتت على هيئة المجاهد الناجي بنفسه تتفحصه . كان شابا في مقتبل العمر مستقيم القد اسمر المحيا قد انسجمعليه الثوب الخاكي وانتعل حذاء جديداً مما يلبسه المتأنقون من الضبـــاط لا يمت الى بساطير المجاهدين الخشنة بصلة . وتوقفت نظرتي على بندقيته التي كان يحملهـــا في يده اليمنى من وسطها وهو مغذ في سيره . كانت بندقية انكليزية جديدة يلمع حديدها تلك اللمعة الكابية للبنادق التي لا تفارقها العناية . وكان حزامها القماشي المتدلي منها جديداً بالغ النظافة . فقلت لنفسي : ما اجملها من بندقية ! ولكن خيطاً غليظاً يشبه ان يكون خيط المجراد الذي تنظف به البنادق كان يخرج من فوهتها ويتدلى حتى ليكاد يمس الارض ، جلب انتباهي واثار تساؤلي .

غريب ان ينصرف الانسان في مثل هذا الموقف الى ملاحظة اشياء تافهة كهذه . ولكن هذا ما حدث لي . وبينما كنت في انتباهي اتتبع هيئة صاحبي المجاهد واثمن سلاحه كان لساني يتابع سؤاله بدون وعي :

– وانت ، ما الذي جاء بك ؟

قـــال :

– كما ترى ، غصت بارودتي بالخرقة التي انظفها بها ، وانا ذاهب لأخراجها وسأعود الى المعركة ، حتما سأعود ...

فسألته وكلي انتباه الى ما سيقوله هذه المرة :

– واين تريد تنظيفها ؟

– في القدار .

فرددت قوله الذي قاله ، متعجبا :

– في القدار !

لقد كان بيننا وبين القدار ساعتـــان للسائر المسرع ، أفكل هذه الرحلة لتنظيف بندقية مما علق بها ؟ وانطلقت اقهقه بقوة بينما خليت بين حامل هذه البندقيةالبديعة والطريق فمضىفيه مهرولا، قابضاً على بندقيتهمن وسطها وقد تدلى من دونها حزامها وسال من فوهتها خيط المجراد الطويل .. لقد علمت اني وقعت على فتى مسكين منقطع قلبه من الخوف .

ولا بد لي من القول اني عدت مسرعاً الى مقر جماعتي فوجدت ان ما رواه الهارب لم يكن الا وهما . لقـــد ارتفعت اصوات الصفارات في انحاء القرية لشأن ما فظن الفتى انها الواقعة، فطار فؤاده، فانطلق من الغديرية الىالقدار ليخرج من فوهة بندقيته خرقة المجراد... انطلق ولم يعد الى اليوم ! حينذاك عادت الى ذهني صورة تلك البندقية ، بندقية الحقاب ، فقلت لنفسي ونحن في مكان البندقية الجيدة فيه خير من لحى الرجال الخنع :

– ما اجملها من بندقية ، وما اضيعها في يد جبان !...

٣ . بندقيـة دلاّته

انا آسف اذا كنتم لا ترون في حكاية بندقية الحقاب ما يضحك . اما انا فقد اضحكتني يومها طويلا كما اضحكت معي كثيراً من المجاهدين . حين يطير محارب مسرعاً ، والمعركة محتدمة ، الى قرية تبعد ثلاث ساعات عـــن الميدان لينظف بندقيته فلا اقل من نضحك من ذلك المحارب . ولكن الملازم محمد لم يكن يضحك معنا بل كان كعادته يتفلسف حول فرار اخينا ذاك حتى ليكاد ان يقنعك آخر الامر انه في طيرانه لم يفعل غير انه قام بواجبه ، مثلما فعلت انت حين صمدت تحت وابل قذائف مدافع الهاون ورصاص الرشاشات.

وكان للملازم محمد فلسفته في كل موقف من مواقفنا في لواء الجليل . كان يشرح لنا تلك الفلسفة في محاضرات طويلة احياناً ، واحياناً يوجزها في جمل قصيرة لاذعة يلفظها بلهجة بلدته التي تقع قرب حلب في شمال سوريا ؛ فنحس انه يشق بتلك الجمل ستائر واهية عن الحقيقة العارية . ان لهجته الخاصة تلك اذ تمر بي ذكراه الان،لتقرع اذني وتتردد في مسمعي كأنه لا يزال بجواري حياً لم يمت. ذلك ان الملازم محمد مات في ايامنا تلك، قضت عليه في لواء الجليل رصاصة رشاش فدفن ، وهو ابن البلدة الشمالية من سوريا على رابية فيجنوب هذا الوطن الذي مات في الدفاع عن ارضه ومقدساته .

كان الملازم محمد ، بالطبع قبل ان تقضي عليه تلك الرصاصة ، رئيسي . قدم الينا حين كنا في طيطبا فواجهته اول ما واجهته مشكـــلة اعيت الرقيب الذي كان يقود جمـــاعتنا قبله . فقد ابى اهـــل طيطبا ان يعينونا في حفر خنادق حول بيوتهم المنتثرة ليرابط فيها الحماة ، بل قالوا للرقيب : احفرها انت ورجالك ، ليس هذا شأننا . وعبثاً كنا نشير لهم الى مستعمرة عين زيتيم القريبة منا والتي اقام اليهود حولها تلولا من التراب حتى لم يعد يبين منها غير

سقوف بيوتها . فقد كان جوابهم للرقيب دوماً: احفر انت ورجالك الخنادق ؛ فليس هذا شأننا ... فما كان من الملازم محمد إلا ان طبق على اهل قرية طيطبا نظام التجول الاجباري ! نظام التجول الاجباري اقول ، لا منع التجول . وذلك انه منع الرجـال منهم تحت تهديد البنادق المصوبة اليهم ، من دخول بيوتهم . فأجبرهم بذلك على البقاء في ازقة القرية طيلة النهار معرضين للريح الزمهرير ولطلقات بنـادق اليهود التي كانت على قلتها تدعو الى الحيطة والحذر. وظل اهل طيطبا كذلك حتى اقتنعوا ان حفر الخنـادق حول دور قريتهم هو من شأنهم مثلما هو من شأننا .

وبالطبع كان الغيظ في قلوبنا على اهل طيطبا يدفعنا الى نعتهم بكل نعت مشين . اما الملازم محمد فلم يكن يشاركنا في ذلك . كان يلتمس لهم الاعذار ويزعم ان الانسان مسؤول على قدر ما يفهم . ان اليهود في رأيه لم يكونوا يهددون طيطبـا ودلاته وعين الزيتون ، وان كانت مستعمرة عين زيتيم على مرمى رصاصة من هذه القرى العربية الثلاث، بل هم في الحقيقة يهددون قرية الملازم محمد الكائنة فيضواحي حلب . ذلك لأن الملازم محمد كان يدرك خطر اليهود على قريته وان بعدت عنهم مسافة ، بينما نام اهل طيطبا ودلاته وعين الزيتون على جهلهم. ان في نومهم ، هكذا كان يقول الملازم محمد، خيراً . أليس هذا النوم على علاته خيراً مما لو كانوا قد باعوا اليهود ارضهم فأصبحت مستعمرات ومعاقل يهودية كما هي الان عين زيتيم ؟... وكانت هذه الحجج المقنعة التي كان يسلسلها الملازم محمد ترغمنا على السكوت وعلى الاقتصاد في النعوت التي كنا نلصقهـا بهؤلاء الخاملين من اهل القرى التي كنا نرابط فيها .

وانتقلنا من طيطبا الى دلاته لنكون اقرب الى مستعمرة عين زيتيم التي كنا نطوقها . وكان يفصل بيننا وبين تلك المستعمرة تل يشرف عليها : كنا نحتله نهاراً ونضطر لضعف حاميتنا فيه الى الانسحاب عنه ليلاً خيفة هجوم لا قبل لنا برده . وكان ذلك يحز في نفس الملازم محمد فيظل يعض شفته حسرة عـلى رشاشين يقيمهما على قمة التل ويتحدى بهما كل هجمات اليهود . وانتظر الملازم محمد من قيادته الرشاشين حتى اعياه الانتظار ، حينئذ عاودته نوبة من نوبات فلسفته فقال لي :

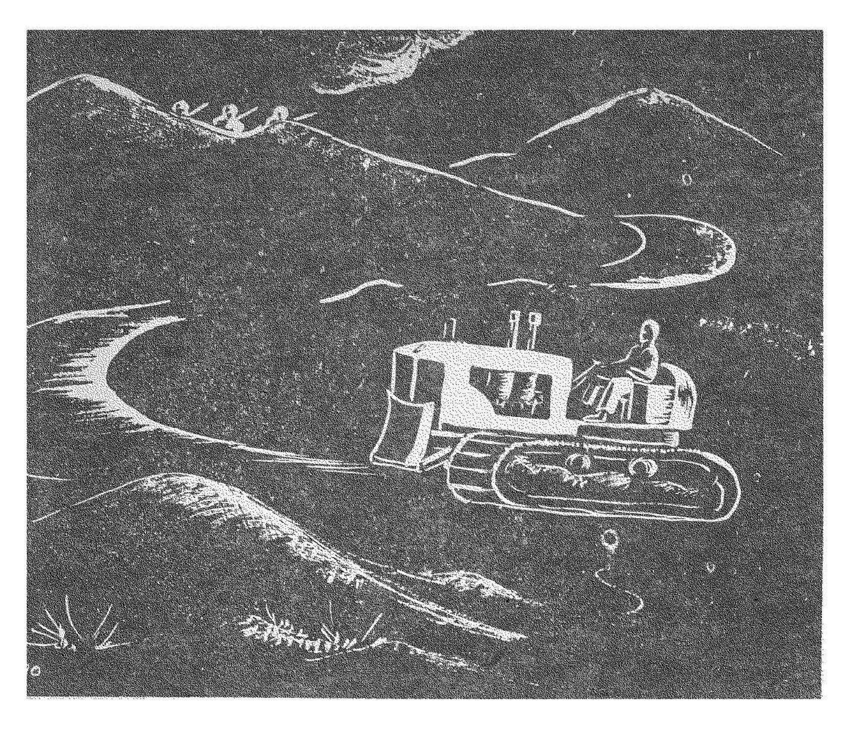
– اسمع . سنبيت الليلة على قمة التل . لتذهب الرشاشات الى سقر ، فان لدينا بنادقنا ، وهي بنادق صالحة على كل حال ... أليست خيراً من بنـادق المتطوعين المهترئة ؟ ...

فسألته عمن يريد أن يبقي الليلة على قمة التل ما دام قرر ان لا يخليه، فأجاب:

– نحن ، انا وانت وثلاثة آخرين من الجماعة؛ ممن يحب البقاء معنا .

فلم اجرؤ على الاعتراض خيفة ان يظن بي التهرب . كما كنت اعلم انه لن يتزحزح قيد شعرة عن رأيه فيما يتعلق بنفسه . ان له من فلسفته ما يقنع به نفسه ويقنعني دون عنـاء بوجوب بقائه على التل ، على الاقل لأول ليلة ! فأخذت اتهيأ دون معارضة لقضاء ليلة قارسة البرد على تل موحش مترقباً تسلل فدائيي اليهود وانفجار الغامهم وانطلاق نار رشاشاتهم .

ماذا أقص عليكم من حديث تلك الليلة ؟ انها الليلة التي فقدنا فيها الملازم محمد. كنا في خنادقنا التي حفرها رفاقنا قبلنا غارقين في الوحل اللزج الذي تخلف في قاع الخنادق من مزنة عارضة في صباح ذلك اليوم . وكانت اعيننا تتطلع في ثبات الى انوار ضئيلة تتسلل من شقوق براكات مستعمرة عين زيتيم التي لم نكن نميز اشباحها في الظلام المطبق وانما كنا نتوهمها توهماً . وكانت ايدينا تقبض على بنادقنا في شدة ونحن نعلم انها درعنا الوحيدة من عدو سلاحه الغدر وقوته في قدرته على التسلل في ارض يعرفها شبراً شبراً. وطرق اسماعنا صوت



هدير منطلق من اتجاه براكات المستعمرة فأمسكت بذراع الملازم محمد وقلت في همس :

هل تسمع ؟ ترى ما هذا ؟

وقدرت ان الملازم محمد ، دون ان اراه في تلك الظلمة ، قد هز كتفيه في لا مبالاة كعادته حين قال :

– لا ادري .

ثم اردف :

– لعله الجرار . ألم تر التراكتور الذي اقاموا به هذه التلول من التراب حول المستعمرة ؟ ربما لم تكفهم هذه الاسوار فهم يحرثون الارض ليزيدوا من علوها .

واخذ الهدير يزداد شيئاً فشيئاً ، وكان هدير جرار لا شك في ذلـك . كما كان واضحاً انه كان متجهاً الينا . بل لقد احسسنا بعد دقائق ان الجرار قد امسى في اسفل التل حيث توقف قليلاً ، ثم لم يلبث ان عاود سيره مرتقياً السفح الى حيث كنا . وقال الملازم في حزم :

– خذوا حذركم . الجرار يتجه الينا !

ولم ادر ماذا كان يريد الملاعين من قدومهم الينا بجرارهم . أتراهم يجهلون وجودنا على قمة التل فجاءوا به ليهدموا خنادقنـا ثم ليزرعوا فيها الغامهم ؟ ولكن الملازم محمد كان ادرى مني بالعدو فلم يلبث ان قال :

– اولاد الكلب يستخدمون جرارتهم كدبابة . فلا تطلقوا النـار قبل ان آمركم لئلا يعرفوا مواقعكم . انتبهوا جيداً .

وحركنا كلنا في آن واحد اصابع بنادقنا ونحن نملأ مخازنها بالرصاص . وكان الجرار ، بل كانت الدبابة ، تتسلق التل في عزم وتصميم متقدمة الينـا دون ان نرى لها شبحاً وان كنا نحس بمواقعها من سفح التل ادق الاحساس وقال الملازم يخاطب احدنا :

– عزيز ... هل تستطيع ان تلقي قنبلتك على برج السائق ؟

فقال عزيز ، رفيقنا الذي كان جندياً نظامياً قبل ان يلتحق بنا :

– امرك سيدي الملازم .

واصبح هدير الجرار زمجرة حين اقترب منا . وتمزق الظلام فجأة اذ انطلق من الهيكل الضخم الذي كان امامنا نور قوي لرصاصة كشافة فضحت مواقعنا امام عيون من في الجرار . ولم يكن هذا في حسابنا . ولقد نسيت

«قبية الشهيدة»

قلبي لظى النيران ، تشهقُ في دمي الذكرى المثيره
انا لا ازال أمور بالأغــلال ، بالغصص المريره !.
يقظانَ ، ملتهب الشعور ، أعاف عاطفتي النضــيره
أترقّبُ الفجــر الســنيَّ يضيء دنيــاي الضريره
متفجّراً من غور أعمــاقي ، وأنفاسي الأخــيره !.

★

في خافقي جرحٌ أحسُّ من الصدى الدامي ... زئيره !.
ماذا هنــاك ؟.. أخالُ بركاناً ، تفجّر في الجزيره
أسمعتَ عن صرعى اللئام ، تجذّها الأيدي الحقيره
في زحمة الطـرُقات ، تصخب بالجمــاهير الغفيره ..
ومساء « قبيا » المستجير ، يلوذ بالظلل النثــيره
بجماجم المستشهدين ، تضــجُّ بالمِزَق الوفــيره !.
من وحشة الأطلال ، تحلم بالهوان – طوى نذيره !.
ويعجُّ سفح الطهر ، بالجثثِ المِــلاح المستنــيره
عن إخوتي الغرثى ، عبيد الشمس ، في وهج الظهيره
يصحون ، من وقع السياط عــلى ظهورهم الحسيره

★

ودعِ الأساة يثرثرون !! ويلحسون دم العشيره !!
في معبد الشهوات بين الكأس ، من شَبَق السريره
واهتفْ معي !.
عـبْر الدمار ، بزفرة « الموتى ! » الكسيره
في مسمع الثـأر المقيَّـــد ، والأعــاصير الأسيره
طوبى لـكم !!
مرحى لنصر العـــار !!
عشتمْ ... يا نسوره !!

بغداد — **علي الحلي**

امر الملازم فانطلقت الرصاصات من بندقيتي دون وعي مني . اما الجرار فقد تطاير منه شرر متلاحق هو نيران رشاش سلطت علينا فأثارت حول رؤوسنا التراب الرطب . ودارت نار الرشاش نصف دورة فوق رؤوسنا بينما سمعت الملازم محمد يصيح بي ليسمعني خلال زمجرة الجرار :

– هل انت سليم ؟

– نعم . ولكن كيف نحارب الدبابة بالبنادق ؟

قال : ألم اقل لك لا تطلق النار ؟ كدت تقتل نفسك .

وكان رشاش الجرار لا يهدأ ولكنــه كان يصوب الى لا هدف ، او لعل من فيه قد توهموا ناساً غيرنا على قمــة التل . واختلط بالزمجرة وازيز الرصاص صوت انفجار قنبلة يدوية هي قنبلة عزيز التي قذفها . وصاح الملازم في حسرة :

– ضاعت القنبلة ...

ودار الجرار حولنا دورة كاملة دون ان يعثر بخنادقنا . كان جد قريب منا ولعل هذا ما انقذنا منه . وسمعت الملازم محمد يقول في غيظ :

– اولاد الكلب ، سيعودون سالمين !

فقلت له : لا يسمعونك .

قال : هذه الناحية ، لعنة الله عليها ... يلزمنا رشاش مضاد للدبابات على هذا التل . ثم اردف مسرعاً :

– اسمع . ابعد عني واخفض رأسك . اظن ان باستطــاعتي ان اصيد سائق هذه الدبابة .

فتطلعت في الظلام الى الكتلة التي كانت فيما يخيل الي اقرب من ارنبة انفي. كان الرشاش قد هدأ ولكن زمجرة الجرار بقيت تصم الآذان . وخيل الي أن رأساً ناتئاً كان يبدو واضحاً فوق الكتلة الضخمة المتجانسة. وابتعدت الى آخر الخندق كما اراد الملازم ولكني لم استطع ان اخفض رأسي بــل ظللت اتطلع الى هيكل الجرار المتحرك . وفجأة لمع ضوء حاد اعقبه ترنح الرأس الناتيء ... لقــد اصاب الملازم الهدف !.. ولكن شواظاً من نار اعقب رصاصة الملازم فقد انطلق الرشاش ينثر رصاصه علينــا اذ فضح الملازم نفسه بالرصاصة التي اطلقهـــا . وزحفت في الخندق ، فرأيته مكوماً على نفسه في قاعه ، فهتفت به :

– كيف حالك ؟

قال بهدوء :

– اظنني اصبته .

ويبدو ان احداً قد اصيب حقاً في الجرار اذ لم يلبث ان انسحب على اعقابه مزمجراً بعد ان بذر قمة التل بالرصاص .

ولما ايقنا ان الجرار قد بلغ قاعدة التل تجمعنا نحن الاربعة حول الملازم محمد الذي قال :

– ليشعل لي احدكم سيكارة .

وكان صوته في هذه المرة شديد الخفوت. فمددت كفي اتلمس وجهه فهالني ان وجدت اصابعي تنغمس في سائل لزج حار يغطيه ، فصحت :

– سيدي ، انت مصاب .

فأجاب في هدوء :

– نعم يا بني ، انا مصاب . فضحتني هذه البندقية اللعينة . ولكن مـــاذا نستطيع ان نعمل ؟ أليست خيراً من ان نهجم على الدبابة بايدينا ؟ ...

لا شك في ان ذلك خير من هذا. انه منطق الملازم محمد الذي لم يفارقه حتى وهو ينزف آخر ما في عروقه من دم . رحم الله ذلك المنطق وصاحبه. اترى لو ملكت ان اسأل الملازم محمد اليوم وملك هو ان يجيبني على سؤالي، أكان جوابه في غير ان يقول لي :

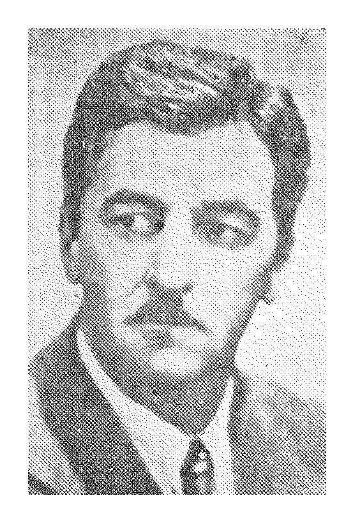
– نعم لقد قضيت برصاصة رشاش بعد ان فضحتني رصاصة بندقية في دلاته . قضيت هنا في فلسطين ودفنت في حفرة ضائعة بعيداً عن قبور الاهل والاصحاب ... ولكن أليس هذا خيراً من ان أعود ، كما عدتم انتم ، محزوناً خاسراً ذليلاً ? ...



الرقة سوريا – **عبدالسلام العجيلي**

تحليل نقدي لرواية وليم فوكنر





« غداً ، وغداً ، وغداً ،
وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوماً إثر يوم
حتى المقطع الأخير من الزمن المكتوب ،
واذا كل أماسينا قد أنارت للحمقى المساكين
الطريق الى الموت والتراب .
الا انطفئي ايتها الشمعة الوجيزة !
ما الحياة إلا ظل يمشي ،
ممثل مسكين يتبختر ويستشيط ساعة
على المسرح ، ثم لا يسمعه أحد .
إنها حكاية يقصها معتوه ، ملؤها الصخب والعنف ،
لاتعني اي شيء مطلقاً . »

(مكبث لشكسبير)

— ١ —

عندما منح الكاتب الامريكي وليم فوكنر William Faulkner جائزة نوبل للأدب عام ١٩٥٠ ، كان عمره ثلاثا وخمسين سنة . وكان قد قضى اكثر من ربع قرن بكتابة الروايات ؛ وانجز منها عدداً كبيراً. وهي ليست بالكتب اليسيرة القراءة . بل ان اكثر القراء كانوا يجدون بادىء الامر في اسلوب فوكنر الطويل الجمل ، المركب الصور ، المعقد المبنى ، المليء بالكلمات المزدوجة الصياغة ، اشارة الى ضرب من الفوضى الذهنية والعاطفية في المؤلف، وعائقاً لهم عن تذوق فنه . ولكن فوكنر ظل منزوياً في بلدة صغيرة في احدى الولايات الجنوبيــة (اكسفورد ، مسسي) ، منصرفاً عن المعارك الادبية الى كتابته واسلوبه ، وقد خلق اسطورة بعيدة الأصول ، منتشرة الفروع ، تضيف اليها كل رواية يكتبها تفصيلا جديداً واتساعاً جديداً . وكان رائده في ايجاد هذه الاسطورة الخلاقة ان يصور ما يدعوه الامريكيون (الجنوب) : وهو يتألف مــن الولايات التي انتعشت على زراعة القطن واستخدمت الزنوج رقيقاً الى ان اندلعت نيران الحرب الاهلية بين الشمال والجنوب ، فخسر الجنوب الحرب ، والغي الرق ، وغزا الشمال الجنوب في شتى الطرق وتغيرت معالم الحياة فيه .

بقلم جبرا ابراهيم جبرا

وهذا التغيير ، بما فيه من انحطاط او سمو ، من شهامة او حقارة ، بما سبقه وتلاه من جرائم وصراع وهتك عرض ، هو موضوع فوكنر .

و « الشرف والاباء » كلمتان تترددان في اكثر كتبه. الشرف والاباء والحب والشجاعة ، وقد أحاطت بها قوى الفساد والجريمة والمادية والجشع والخسة . فان فوكنر يرى في قصة الجنوب مصغراً لما حل بالعالم من فوضى خلقيــة وانحلال اجتماعي ، ويرى في ذلك مأساة كونية ، وقد قيــل ان فوكنر لا ينتقي من المواضيع إلا ما كان قبيحاً او مرعباً ، كأنــه بذلك يغذي الغرائز الدنيا في القراء . وهذا في الواقع عكس ما يرمي اليه . لقد اراد ان يجابه مشكلة الشر ، ويتفحصها من كل جانب ، لكي يرى فعلها في حياة الانسان . وهو لذلك لم يترك رذيلة او جريمة لم يجد لها مكاناً في كتبه : فصور الاغتصاب والسلب والزنا بذوي الرحم ، والقتل والانتحار ، وقتل الاخوة ، وادمان المخدرات والمسكرات ، وسلب القبور ، وتزاوج البيض والسود ، ومضاجعة الموتى ، والفحشاء والبغاء ، وقتل الجماهير للشخص ، والخيانة والانانية ونكران الجميل . فهي كلها تصور مأساة (الجنوب) ، وبالتالي مأساة الانسان . وتنطلق كلها من قلم المؤلف عنيفة عاتية ، تعبر عن غضبه واشمئزازه . ولكنه يضع إزاءها الفضائل التي يراها آخذة في الزوال : الشهامة ، الشجاعة ، الحب ، الشرف ، الاباء ، الشفقة .

وقد وضع فوكنر لاسطورته حدوداً جغرافية ، وارقاماً للمساحة وعدد السكان ، واوجد للمقاطعة عاصمة وقرى ؛ كلها من خلقه . وجعل هــذه المقاطعة الخيالية في ولاية مسيسبي ، واسمها « يوكناباتوفا » ، وعاصمتهــا « جفرسن » ، (وهذه تشبه كثيراً بلدة اكسفورد ، حيث يقطن المؤلف). واكثر السكان – عدا اصحاب الحوانيت والحرف – مزارعون او حطابون، وحاصلاتهم هي على الاغلب بالات القطن التي يشحنونهــا الى مدينة ممفيس (وهذه حقيقية ، ويجعلها فوكنر مركزاً لكل ما يعناج في المدن مــن فاحشة) . والبعض منهم يقيم في بيوت ضخمــة ، وهي بقايا عصر انقضى ، والبعض الآخر في منازل خشبية لا بأس بها . اما الاكثرية فمستأجرون ، وليست منازلهم بأفضل من منازل العبيد أيام ما قبل الحرب الاهلية .

ولكي يحسن القارىء فهم اية رواية من روايات فوكنر ، يجب ان يطلع مقدمــاً على موجز للاسطورة التي تحمل من الروايات اجزاء متواشجة . وفحواهــا أن « الجنوب القصي » Deep South كان يأهله قوم مــن الارستقراطيين ، كعشيرة سارتوريس ، وجماعة من القادمين الجدد ، امثال الكولونيل ستبن . وكلتا الجماعتين عازمة على انشاء نظام اجتماعي دائم

على الاراضي التي اغتصبوها من الهنود الحمر ، وذلك بتخليف نسل يحافظ على التقاليد الاوروبية ، وهي تقاليد الشرف والفروسية . ولكن كانت في صلب خطتهم خطيئة لازمة ، وهي الرق (اذ استحضروا الزنوج من افريقيا بمئات الآلاف لهذا الغرض) . فوضع الرق لعنة علـى الارض ، وسبب الحرب الاهلية ، فلما خسروها ، ارادوا استعادة خطتهم بطرق اخرى ، فلم يصيبوا إلا نجاحاً جزئياً. وبمرور الزمن اكتشفوا ان بين ظهرانيهم اعداء جنوبيين وهم الطبقة الاستغلالية الجديدة ، احفـاد البيض الذين كانوا ايام الرق بلا أملاك او أراض . وتتمثل هذه الطبقة في آل سنوبس ، وهي طبقة لا ضمير لها ولا وازع ، ولا غاية لها سوى الكسب المادي . واذ نشأ الصراع بين آل سارتوريس (الارستقراطيين) وآل سنوبس، كانت الهزيمة قد كتبت على آل سارتوريس مقدماً، بسبب تقاليدها التي تمنعها عن استعمال سلاح العدو المشين . ودفعاً لثمن هذا النصر ، كان على آل سنوبس انفسهم ان يخدموا مدنية الشمال الآلية ، وهي مدنية – كما يراها فوكنر – واهية اخلاقياً، وهي التي أفسدت في النهاية اهل الجنوب.(١) .

فالوضع في روايات فولكنر مبني على ان الشمال مادي وآلي ، يعتمد على على المدن الكبيرة التي تعيش فيها الملايين لا وجه لهـا ولا شخصية ، وان الجنوب زراعي يعتز شعبه بالشرف . وتيار الشمال الارعن يهدد بالقضاء على تقاليد الجنوب العريقة ، ولكنها تقاليد فيها كثير من البلى والوهم ، وتنبث منها رائحة الموت (٢) .

– ٢ –

« الصخب والعنف » The Sound and The Fury ، أول رواية نشرها فولكنر عن قصة الجنوب هذه . وكان قد كتب قبلها رواية « سارتوريس » ، ولكنه نشرها فيما بعد . وقبـل هـذين الكتابين أمل المؤلف ان يحظى بالشهرة في روايتين اخريين ، ولكن دون جدوى ، لانها كانتا عاديتين . اما اول ما نشر فهو ديوان من الشعر ، شديد التأثر بالشعر الرومانسي ، لم يلتفت اليه آنئذ احد . وهذا يدل على ان فوكنر (ككثير من الروائيين ومن جملتهم بلزاك) بدأ حياته الادبية شاعراً . ولما تحول الى النثر بقيت الروح الشاعرية في كل ما يكتب . فنثره مشحون بالصور الشعوية والالفاظ غير المتوقعة ، مذكراً القارىء احياناً بثروة شكسبير اللفظية .

« فالصخب والعنف » كتـاب فوكنر الخامس . وقد اشتغل عليه زهاء ثلاث سنوات ، وكان عمره عنـد نشره (١٩٢٩) اثنتين وثلاثين سنة . وفي الحال التفت النقاد اليه ، ورأوا في كتابه رواية رائعة البناء والاسلوب ، سماها البعض « رواية الروائيين » . غير ان القارىء يحتاج في تذوقها وتخطي صعوباتها الى حساسية فنية مرهفة ، وأناة شديدة. فكان الكتاب نصراً أدبياً لصاحبه ، وإن لم يكن نصراً مادياً [١] .

والآن وقـد كتب فوكنر حوالي العشرين كتاباً ، واتضحت خطته فيها ، نجد أن « الصخب والعنف » ما زال أحسن ما كتب . قد يضـع البعض رواية « نور في آب » Light in August (١٩٣١) في المرتبة العليا ليسر تناولهـا ووضوحها ، غير ان التركيب الفني في « الصخب والعنف » ما زال في جماله وبراعته معجزة من معجزات الخيال .

والكتاب ، من نواح كثيرة ، تبدو فيه الاتجاهـات الاسلوبية والشكلية التي شاعت بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠. وهي من اهم الفترات واخصبها في تاريخ الرواية ، لا لظهور عـدد من الروائيين الكبار فيها فحسب ، بل لكثرة التجارب ، ونجاح الكثير منها ، في فن القصة. فهي الفترة التي لمع فيها شعراء مثل تي.اس.اليوت وإزرا باوند ، وكلاهما يجمع بين الشعر والنقد وكلاهما واسع العـلم ، عقليّ ، وكلاهما اثر في تغيير اشكال الادب لا في الشعر فقط بـل في النثر ايضاً . وهي الفترة التي غدت فيها نظريات فرويد في اللاواعي حافزاً على معالجة مشاكل النفس الخفيـة ، بحيث يتغلغل المؤلف نزلاً في طوايا الشخصية ويكتشف طبقات الوعي السفلى ، الى ان يبلغ القرارة التي ترسبت فيها تجارب الحياة وذكرياتها واحلامها . وهي الفتـرة التي ظهرت فيها السريالية ، مستمدة قوتها من نظريات اللاواعي ومن « الكتابة السحرية » اشعراء كان لهم تأثير عظيم ، امثـال رامبوولافورغ وغيّوم ابولينير (الذي نحت كلمة «السرياليزم»). وإلى هذا وذاك ، ظهرت روايتان مهمتان في هذه الفترة اثرتا في معظم ما كتب فيما بعد ، وهما: « البحث عن الوقت الضائع» لمارسل بروست، و « يوليسيز » لجيمز جويس. وكلتا الروايتين تعتمد على استثارة الذكرى والتداعي ، ولكن لكل اسلوبها. فبينما تعتمد الاولى على السرد المسهب الدقيق ، تعتمد الثانيـة على استخراج ما في النفس من تجمعات الحوادث والخواطر لا سرداً بل دفقاً ، عن طريق المونولوغ الداخـلي . والمونولوغ الداخلي يعتمد على التداعي ، والرموز المتواترة ، والصـور

---

(١) انا مدين في هـذا الملخص لمالكم كاولي في مقدمته الممتـازة لكتاب The Portable Faulkner

(٢) ويرمز فولكنر الى ذلك في الرواية التي شهرته فجأة ، وان تكن اقل قيمة من معظم كتبه الاخرى : « الحرم » Sanctuary . ففيهـا يغتصب رجل من الشمال فتاة عذراء من اهل الجنوب ، ولكنه عنين (ويرمز بذلك الى الشلل في نفس الشمال) فيقضي وطره منها باستعمال كوز الذرة ولكن الفتاة بعد ذلك تلتهب شبقا، فكأنها بذلك تمثل انهيار القيم في الجنوب.

(١) ولكن اختلفت الحال مـع فوكنر في النهاية ، فبيع في السنوات الثلاث الاخيرة ما يقارب الثلاثين مليون نسخة من رواياته .

المترددة . وانتشرت بين الادباء عادة ، من الصعب ردها الى اصلها ، وهي ان يبني الكاتب قصيدته او قصته على اسطورة قديمة في لباس حديث ، او ان يدخل في كتابته حوادث تعود في الواقع الى مراسيم بدائية ، كمراسيم الخصب ودفن الموتى (كنتيجة لانتشار النظريات الانثروبولوجيه) او ان تبنى الحوادث على عبارة في كتاب لأرسطو او مقطوعة لشكسبير ، او ان يجمع كل ذلك معاً في كتاب واحد ، كما فعل جيمز جويس في « يوليسيز » . ولم يستخدم هذه الاساليب الكتاب العقليون فقط ، امثال تي. اس. اليوت (مثلاً: قصيدته «الارض القاحلة») وجيمز جويس ، بل استخدمها ايضاً السرياليون ، امثال كوكتو وغيره .

ويبدو ان فوكنر الشاب ، وقد سئم الدراسة الجامعية (فتركها دون الحصول على شهادة) ، وحاول نظم الشعر ، وتسكع ما شاء له التسكع في نيو اورلينز ، والحي اللاتيني من باريس ، وبلدته الصغيرة اكسفورد (مسسبي) ، كان يتشرّب هذه التأثيرات على مهل . ويروي المحدثون كيف كان يتمشى في شوارع اكسفورد في تلك الايام مفلساً ، حافياً ، غير حليق الذقن ، يجلس القرفصاء في مدخل احد الدكاكين عند المجلات ويقرأ ، أو يستمع الى حديث الناس وثرثرة الزنوج ، واسطورة الجنوب تتبلور في ذهنه .

ولما جعل يكتب «الصخب والعنف» كان قد هضم تأثيرات فترته ، بحيث استطاع ان يجعل منها عُدّة لكتابة عجيبة . فالكتاب يعتمد على المونولوغ الداخلي ، وتأثير جيمز جويس واضح ، ولكنه تأثير خلاّق لا محطّم ؛ والقصة في خطوطها العريضة توسيع وتمثيل لعبارة مشهورة من مأساة « مكبث » ؛ وكل شخص من اشخاصها الثلاثة المهمين (وهم اخوة) يعبّر عن احدى الشخصيات اللاواعية التي اسماها فرويد : الهو id ، الأنا ego ، والأنا الأعلى super-ego ، والاخت وابنتها تمثلان الليبيدو — أي الطاقة الجنسية .

هذه عدة فوكنر . ولكنها وسيلة لا غاية. وسوف يتوقف نجاحه على مقدار ما اصاب من غايته. وغايته هي ان يصوّر انحلال اسرة آل كمبسن[١] Compson ، ضمن اطار الانحلال العام في « الجنوب » . وعليه ان يجعل من ذلك شيئاً فنياً ، مؤثراً .

(١) مؤسس الاسرة هو صديق الكولونيل ستبن وهي ايضاً عريقة التقاليد مثل اسرته .

وهذا بالضبط ما نجح في انجازه .

— ٣ —

حين يبدأ الكتاب نجد ان معظم الحوادث قد حدثت . ولن يعود اليها المؤلف إلا مستذكراً هنا وهناك، كأن القارىء يعرفها ، وما على المؤلف إلا ان يرى اثرها وموقعها في نفس احد الابطال، ملقياً عليها كل مرضوءاً جديداً. بل إن الحوادث نفسها تكاد تكون لا خطورة لها إذا قيست بما يحيط بها من ظروف وما تخلّف من وقع . والصعوبة في قراءة الكتاب تبدو في عدم معرفة القارىء للحوادث التي يشير اليها المؤلف كأنها معلومة لدى القارىء. وهو في الواقع لن يستوفي معرفتها إلا حين ينهي الكتاب . وعليه حينئذ ان يعيد قراءة الرواية من جديد ليستمتع بها المتعة الكاملة . ولعل هذا هو السبب في ان فوكنر ، بعد نشره الرواية بستة عشر عاماً ، كتب لها ملحقاً — يوضع في الطبعات الحديثة كمقدمة — يشرح فيه الحوادث المهمة في الكتاب بايجاز ، ويصف افراد آل كمبسن واحداً واحداً (راجعاً بتاريخهم حوالي مئتي سنة الى الوراء) ويوضح مكانهم في القصة . واذا هذا الملحق قطعة رائعة جديدة هي ولا شك من صلب الكتاب ، وتلقي عليه نوراً جديداً ، فهو يستمر في تاريخ افراد القصة حتى سنة ١٩٤٥ — بينما ينتهي الكتاب يوم ٨ نيسان ١٩٢٨ . فكأن اشخاص الكتاب فعلاً احياء يرزقون .

الرواية قصة اخوة ثلاثة ، هم كونتن Quentin ، وجاسن Jason ، وبنجامين (او بنجي) Benjy ، واختهم كاندس (او كادي) Candace ، وابنتها كونتن (وسميت باسم خالها بعد انتحاره) .

وقد كتبت على شكل سمفونية في اربعة اقسام ، كل قسم من الاقسام الثلاثة الاولى يتلوه احد الاخوة بالدور ، كل على طريقته ، والقسم الاخير يتلوه المؤلف ، هكذا :

١ — بنجي : بتاريخ ٧ نيسان ١٩٢٨
٢ — كونتن : ٢ حزيران ١٩١٠
٣ — جاسن : ٦ نيسان ١٩٢٨
٤ — المؤلف : ٨ نيسان ١٩٢٨

إنها سمفونية مروّعة بجمالها ومأساتها ، تتكرر فيها الاشارة الى الحوادث نفسها ، كأن كل حادثة « موتيف » في السمفونية تعزفها كل مرة آلة مختلفة . ومن بدئها حتى النهاية يتردد فيها

بكاء بنجي المعتوه ، كأنه نوح على الحياة وهي تتدهور ، كأنه «صوت كل بؤس لا صوت له» يرتفع فوق الصخب والعنف .

وكل قسم يختلف كل الاختلاف عن الاقسام الاخرى ، للاختلاف الشديد بين الاخوة : فبنجي معتوه يسمع ولكن لا ينطق ولا يستطيع إلا الصراخ والعويل . وهو حين يتلو الحوادث لا يستطيع ان يرتبها ترتيباً زمنياً . وما حدث قبل عشرين سنة ، وما حدث اليوم ، كلاهما متساوي الاهمية في سرده ، متساوي الوضوح . وكل شيء يذكره يبدو كأنه يراه لأول مرة ، بكل ما فيه من جدة وبراءة . إنها حكاية يقصها معتوه ..

وكونتن – في ١٩١٠ ، لا في ١٩٢٨ كما في المقطع السابق – طالب في هارفرد ، مفرط الحساسية ، شديد التعلق بشرف الاسرة .

وجاسن – ونعود الى ١٩٢٨ – فظ ، شرس ، سادي ، اناني ، يبغي من الحياة النجاح وتجميع الثروة ، عن اي طريق .

وكل منهم يشير الى الحوادث نفسها على الأغلب ، ناظراً اليها من زاويته . وخلاصة هذه الحوادث هي :

أن اسرة كمبسن (المقيمة في دار كبيرة في مدينة جفرسن ، وفي خدمتها عدد من الزنوج ، أهمهم الخادمة دلزي) تحاول التمسك بالتقاليد الارستقراطية عبثاً . فالأب ، وهو بليغ الكلام ، يعتكف على مطالعة الكتب الكلاسيكية ومعاقرة الويسكي ، ينشد فيهما نسيان تيار الحياة الجديدة ؛ والأم « سيدة » شديدة الكبرياء والترفع ، ولكنها دائمة المرض تقضي اكثر اوقاتها في الفراش مصرة على منزلتها الاجتماعية ، ولا تثق الا بابنها جاسن ، وهو يسلب مالها لأغراضه الشخصية . تبيع الاسرة قطعة ثمينة من اراضيها لأرسال كونتن الى هارفرد ، وهو يحب اخته كاندس حباً شديداً ، ولكنه يتألم جداً عندما يعلم انها عشقت رجلاً غريباً وضاجعته . فلا يستطيع ان يتحمل فكرة فقدانها العفاف ، وما في ذلك من وصم لشرف آل كمبسن ، فيدعي لأبيه انه هو الذي ضاجعها ! ثم تتزوج اخته وهو في هارفرد ، وبعد ذلك بمدة قصيرة ، حال انتهاء السنة الدراسية الاولى ، ينتحر غرقاً في نهر تشارلز في كمبردج ، ماساشوستس ، وذلك يوم ٢ حزيران ١٩١٠ . أما اخته كاندس ، فيكتشف زوجها انها حامل من رجل آخر ، فيطلقها . وتضع بنتاً تسميها « كونتن » احياء لذكرى اخيها ، وتهجر اهلها وتتنقل من رجل الى آخر وتسوء سمعتها (وقد اخذت الاسرة ابنتها كونتن لتربيتها) ، الى ان نسمع اخيراً انها في سنة ١٩٤٣ عشيقة لجنرال الماني في باريس .

وفي هذه الاثناء ترسل كاندس اول كل شهر مقداراً من النقود ليصرف على ابنتها ، ولكن جاسن – وقد كان يكرهها ويشاكسها ، يكره ويشاكس ابنتها ايضاً – يتسلم المال ، ويخفيه عن الفتاة كونتن (عدا عشرة دولارات كل شهر) ، ويجمعه في صندوق مخبأ في غرفته . فتنشأ الفتاة تحت اضطهاد مستمر منه . وفي ليلة ٨ نيسان ١٩٢٨ تتسلق شجرة الاجاص التي تمس فروعها نافذة غرفة جاسن ، وتكسر الزجاج ، وتقتحم الغرفة ، وتسرق المال (حوالي ٧ آلاف دولار) ، وتهرب به مع عشيق لها من المغنين في « السيرك » .

وبنجي طوال هذه السنين يُعنى به الخدم الزنوج مع عطف شديد من دلزي . ولكن كاندس هي التي علق بها المعتوه المسكين على طريقته ، فقد كانت تلاعبه وتحنو عليه . وبعد ان اختفت كان كلما سمع اسمها يبكي وينوح ، وكلما اشتم رائحة اوراق الشجر في المطر يتذكرها لأنها مثل رائحة اخته . ويهاجم مرة فتاة دون نجاح ، فيطلب جاسن الى ابيه ان يخصيه دون جدوى ، الى ان يموت الأب فيخصى بنجي ، ثم تموت الام ، فيضع جاسن اخاه في مستشفى المجانين (١٩٣٣) ويسرح الخادمة دلزي (وكان يكرهها) واولادها ، ويبيع الدار لرجل يحوله الى نزل ، ولا يبقى من الاسرة شيء .

– ٤ –

هذه هي الحوادث الرئيسية ، ويحسن بالمرء ان يعرفها مقدماً قبل الشروع في الكتاب ، ولا سيما المقطع الاول منه .

فهذا الجزء ، الذي يقصه بنجي المعتوه ، متقطع ، قصير الجمل ، غير بادي الارتباط ، فجائي الانتقال بين فترات الزمن كأنها كلها موجودة آنياً معاً . والحوادث هنا أشبه بلعبة الـ jigsaw ، يضع القارىء اجزاءها في امكنتها ببطء الى ان يفرغ من الجزء فتكتمل الصورة . والقصة هنا لا تنمو بقدر ما تدور على نفسها أو تتحرك في خطوط متوازية . فنرى كاندس في صباها ، ونرى ابنتها الصبية ايضاً ، في نفس الصفحة . ولكن كاندس تحنو على بنجي ، في حين ان ابنتها شرسة تقسو عليه . ونرى جاسن رجلاً كاملاً ، ونراه ولداً ، وهو في كلتا الحالتين شكس مكروه .

بنجي هو الانسان الاول . هو « الهو » في سيكولوجية فرويد . فيه البدائية وفيه البراءة المطلقة . وهو لا يفهم ماذا يجري حوله . انه مجموعة احاسيس فقط : بل ان حواس الشم والسمع واللمس قوية جداً هنا . فهو « يسمع السقف » (لان المطر يسقط عليه) ، ويشم الليل ، ويريد لمس النار لانه يحب نور اللهب . يقول فوكنر : «ما أحب بنجي الا اشياء ثلاثة : الارض الخضراء التي بيعت لارسال كونتن الى هارفرد ودفع نفقات زواج كاندس ، واخته كاندس ، ونور اللهب . وكلما ناح او صرخ ، اعطاه الولد الزنجي زهرة ليحملها فيسكت .»

هذه هي الحركة الاولى من السمفونية : قصيرة النغمات ، متقطعة ، تدور وتلتف على نفسها . ولكن جوها مفعم بأصوات الطبيعة وروائحها ، بخفق المطر وتراقص اللهب وبكاء بنجي ، والتجاذب والتناحر بين افراد عائلة تحوم فوقها اشباح الموت .

فاذا جئنا الى الحركة الثانية ، تغير الاسلوب ، وتغير الجو ،

وتغيّرت صفة الزمن. فالقاص هنا كونتن يوم ٢ حزيران ١٩١٠. ويبدأ من ساعة نهوضه بعيد السابعة في غرفته بجامعة هارفرد ، ويستمر حتى الثامنة مساء عندما يلقي بنفسه منتحراً في مياه نهر تشارلز . والجمل هنا تبدأ طويلة متداخلة متواصلة ، بعكس المقطع السابق . وكونتن ، وقد عزم على الانتحار ، يشعر بعبث الزمن، وعبث الساعات التي تدق ثانية ثانية ، دون معنى. ولعل فوكنر هنا يفصّل قول مكبث :

... وكل غد يزحف بهذه الخطى الحقيرة يوماً اثر يوم
حتى المقطع الاخير من الزمن المكتوب ،
واذا كل امسينا قد أنارت للحمقى المساكين الطريق الى الموت والتراب .

واول ما يذكر كونتن هو عن وعيه بآلة الزمن :

« عندما سقط ظل عارضة الشباك على الستائر ، كانت الساعة بين السابعة والثامنة ، فقد افقت-اذن في الوقت المطلوب ثانية ، وأنا اسمع الساعة . كانت تلك ساعة جدي ، وعندما اهداني اياها ابي قال : كونتن ، إني اعطيك ضريح الآمال والرغبات كلها . وانه لمن المناسب حتى الألم انك ستستعجلها لتكسب النهاية المنطقية الحمقاء لأختبارات الانسان جميعها ، وهي التي تنسجم وحاجاتك الشخصية اكثر مما انسجمت وحاجات جدك أو أبيه . اني اعطيك اياها لا لكي تذكر الزمن ، بل لكي تنساه بين آونة واخرى ، فلا تنفق كل ما عندك من نفَس محاولاً ان تقهر الزمن . لأن ما من معركة ربحها احد ، قال أبي . لا بل ما من معركة حارب فيها أحد . فالميدان لا يكشف للمرء إلا عن حماقته ويأسه،وما النصر إلا وهم من اوهام الفلاسفة والمجانين.»

ثم يقوم ويكسر عقربي الساعة ، ولكنها تستمر في التكتكة : تحصي الزمن ولا تشير اليه ، في آن واحد . ويضعها في جيبه .

وهذا المقطع ، من اوله الى نهايته ، يتحرك تحت ظل الساعة . فبينما كان الزمن في مقطع بنجي موجوداً كله آنياً لا ترتيب فيه ، هنا يسمع كونتن دقات ساعات المدينة ربعاً ربعاً ، وتظل ساعته المكسورة العقربين تدقدق في جيبه—وقد بطل كل ما فيها من معنى .

والفكرة الملحاح في نفس كونتن هي كيف ضيعت اخته كاندس بكارتها مع رجل يحتقره ، وكيف انها قبل شهرين تزوجت من رجل آخر غني يكرهه . فيتمنى لو استطاع هو ان يضاجعها لكي يحفظها لنفسه ، فيحفظ الاسرة من التفكك وفساد الدم . وهذا ما يقوله فوكنر في « الملحق » ، ملخصاً بعبارة رائعة شخصية كونتن المأسوية :

« ما عشق جسد اخته ، بل عشق فكرة ما عن شرف آل كمبسن، وهو الشرف المحمول مقلقلاً ومؤقتاً على غشاء بكارتها النحيف الدقيق ، كمن يريد ان يوازن مصغراً للكرة الارضية الشاسعة على انف فقمة مدربة. وما عشق فكرة الزنا بالأخت ، وذلك ما لن يقترفه ، بل فكرة دينية عن العقاب الابدي لخطيئة كتلك . وبذلك يستطيع هو ، عوضاً عن الله ان يقحم نفسه واخته في الجحيم ، فيحرسها هناك الى الابد ، ويبقيها سليمة الى الابد وسط النيران الازلية . ولكنه عشق الموت اكثر من اي شيء آخر ، ولم يعشق إلا الموت . فعشق وعاش متقصداً ومتوقعاً الموت ، كمن يعشق جسد حبيبته الطري الموالي المستسلم ولكن يحجم عنه متقصداً ، الى ان يعجز عن تحمل المنع لا الاحجام ، فيلقي ويقذف بنفسه ، هاجراً كل شيء ، غارقاً في النهر ... »

ويخرج كونتن من غرفته ويذهب في سيارة نحو بوسطن ، بمحاذاة النهر مدة ، وهو يستذكر ما حدث له ولاخته . والمعجزة الكتابية هنا هي في الطريقة التي يعرض فيها المؤلف احياناً ثلاث طبقات من الوعي معاً . فكونتن إذ يتمشى يلقى فتاة ايطالية صغيرة لا تتكلم الانكليزية ، فيشتري لها خبزاً وكعكاً ، ويساعدها في البحث عن بيتها . وفي النهاية يهاجمه اخوها متهماً إياه بمحاولة اختطافها . ولكننا في الوقت عينه نجد انفسنا داخل ذهن كونتن وهو يتذكر كلَفه باخته وغضبه على فسقها بتفصيل مترع بالاحاسيس . وخلال هذه الذكرى نطلع على مشهد آخر عنيف له وهو يحاول معانقة فتاة اسمها ناتالي في الطين والمطر ينهمر . لست اعتقد ان في الادب المعاصر قطعة من « سيل الوعي » كتبت بهذه البراعة وهذا السحر . ولا ريب ان بين هذه الاجزاء الثلاثة ارتباطات خفية من الرغبة والسخرية . إذ يقترن غضبه على اخته وتعلقه بها بشهوته لناتالي ، مع كل ما في الطين من رمز الى المصاعب والقذارة . وما يكاد يساعد فتاة صغيرة مساعدة بريئة ، حتى ينصب على رأسه غضب اخيها وقد أخطأ القصد ، بينما لم يخطىء هو القصد في غضبه على عشيق اخته .

وفي خلال هذا المقطع يتبدى لنا رمز قوي آخر هو زهر العسل . ولا يستطيع كونتن ان ينساه (كما لا يستطيع ان ينسى الساعة) ، لانه رمز لكل ما يشتهيه ويكرهه في كاندس فهناك مشهد يتذكره عن محاولته واخته الانتحار معاً ، وأقلاعهما عن ذلك ، ثم محاولته الفاشلة لقتل عشيقها (وتختلط هذه الذكرى فيما بعد بمحاولته ضرب صديق له يلقاه بعد حادثة الفتاة الايطالية) . والجو مشحون بشذا زهر العسل ، ومن اليسير ان نرى انه اضحى رمزاً لكاندس نفسها [1] :

« عندها جعلت ابكي ولمست يدها ثانية وجعلت ابكي ووجهي على قميصها الرطب ثم استلقت على ظهرها وانطلقت نظراتها بمحاذاة رأسي نحو السماء فرأيت مداراً من البياض تحت بؤبؤ عينيها وفتحت سكيني

(١) من عادة المؤلف ان يهمل الترقيم في سرد الذكريات ليوحي بسيولتها المستمرة .

اتذكرين عندما مات خادمنا وجلست انت في الماء بثيابك السفلى
نعـم
ووضعت طرف سكيني على حنجرتها
لن تستغرق إلا ثانية ثانية فقط ثم اطعن حنجرتي انا ايضاً
لا بأس استطيع ان تطعن حنجرتك بنفسك
نعـم فالشفرة طويلة لا بد ان بنجي قد نام
نعـم لن تستغرق إلا ثانية وسأحاول ألا أؤلمك
حسنا أغمضي عينيك
لا اذا وضعتها هكذا عليك ان تضغط بعزم أشد
المسيها بيدك
ولكنها لم تتحرك وكانت عيناها مفتوحتين باتساع تنظران بمحاذاة رأسي الى السماء
كاندس اتذكرين كيف جعلت دلزي تصيح عليك لأن ثيـابك السفلى تسخت بالطين
لا تبك
لست ابكي يا كاندس
ادفعها الا تريد ان تدفعها
اتريدينني ان افعل ذلك
نعم ادفعها
المسيها بيدك
لا تبك مسكين كونتن
ولكنني لم استطع الكف عن البكاء فأمسكت برأسي عند صدرها الصلب الرطب وجعلت اسمع قلبها ينبض بثبات وبطء وما عاد يضرب كالمطرقة والمـاء يثرثر بين اشجار الصفصاف في الظلام والتوت ذراعي وكتفي تحتي
ما هذا الذي تفعله
واجتمعت عضلاتها فجلست منتصباً
سكيني لقد اسقطتها »

ويستمر تذكره كيف قاما وحاول ان يمنعها عن الذهاب لمقابلة عشيقها ، وهي تطلب اليه ان يعود الى البيت :

« وتساقط زهر العسل في رذاذ إثر رذاذ واستطعت ان اسمع الزيزان ترقبنا في دائرة حولنا .. »

واخيراً يعود في اتجاه البيت بين الشجر وهو يسمع الزيزان والضفادع ولا يستطيع نسيان زهر العسل :

« وركضت على الحشيش الاغبر بين الزيزان ورائحة زهر العسل تشتد وتشتد وكذلك رائحة الماء ثم جعلت ارى الماء في لون زهر العسل الاغبر وارتميت على الضفة ووجهي لصق الارض لكي لا اشم زهر العسل فلم اشمه ثم بقيت ملقى هناك اشعر الارض تخترق ثيابي واصغي الى الماء ... »

وبعد ان يفرغ من هذه الذكريات ، وهو ما زال يتمشى عودةً نحو الجامعة ، ندرك ان زهر العسل والمـاء قد اضحيا عنده شيئاً واحداً . ولذلك حالما يرى النهر ثانية يقول :

« هنا رأيت النهر لآخر مرة هذا الصباح . وجعلت اشعر بالمياه واشتمها وراء الاصيل . عندما كان الزهر يتفتح في الربيع ثم يهمي المطر ينتشر الشذا في كل مكان ... فاذا امطرت السماء فان الشذا عند الاصيل يأخذ في التسرب الى الدار وعند الاصيل إما ان المطر يشتد او ان في ضوء الأصيل شيئاً يجعل الشذا حينئذ اقوى رائحة . فقد كانت الرائحة تشتد فاجدني مستلقياً على فراشي وانا اقول متى ستقف ، متى ستقف . واذا دخل الهواء من الباب حمل رائحة الماء كنفس رطب مستمر . وكنت احياناً انوم نفسي وانا اعيد ذلك ، الى ان اختلط زهر العسل به ، وأمسى كل ذلك يرمز الى الليل والقلق... »

وهكذا يختلط زهر العسل والماء وكاندس ، فيرمز الواحد الى الآخر . واذا انتحر غرقاً فكأنه انتحر بالشذا وبتلك الخطيئة المريعة التي يتصور انه اقترفها . واذا اقترن كل ذلك بغضبه على تزعزع الاسرة وتلويث شرفها ، اضحى انتحاره نهاية محتومة ، لأنها تعبّر عن تلك النزعات كلها معاً . والى هذا وذاك تبقى الساعة تهذر بالثواني ، ولا تدل على الزمن ، وقد اضحى الزمن عبثاً مؤلماً لم يأت إلا بالموت والانحلال

— ٥ —

وما نكاد نطفر زمنياً الى ٦ نيسان ١٩٢٨ ، لنبدأ المقطع الثالث من السمفونية ، حتى يجابهنا جاسن بقوله رأساً : «عاهرة يوماً ، عاهرة كل يوم . هذا ما اقوله أنا . » فنعلم اننا مع رجل هو نقيض اخيه كونتن . فاذا كان كونتن هو « الأنا الأعلى » الذي تتمثل فيه تقاليد الاسرة ، فان جاسن هو « الأنا » — بأقبح مظاهره . ففيه الغطرسة النامية عن حقد ، وهو الرجل المتكالب على النجاح المادي مهما تطلب ذلك من خسة . فهو يختلس مال امه الواثقة فيه ، ويسرق النقود التي ترسلها كاندس شهرياً لتربية ابنتها كونتن سبعة عشر عاماً متوالياً . ويجمل ما يتصف بـه من اخلاق تقليدية هو نقمته على غراميات الفتاة الناشئة كونتن (وهي التي يعنيها بقوله : عاهرة يوماً ...) ، فيراقبها سراً ويلاحقها « من اجل امي » كما كان يراقب في صباه امها كاندس . ومع هذا فان عشيقته مومس في ممفيس . ويتصف جاسن بكل الرياء المعروف عن الذين يخشون على مكانتهم الاجتماعية من « كلام الناس » ، فيرفض مقابلة اخته كاندس في دكانه علناً ، لأن سيرتها قد ساءت ، ولكنه يقاضيها مئة دولار ليريها ابنتها الصغيرة دقيقة واحدة ! وهو ساديّ ، يصرّ على خصي اخيه المعتوه (لأن المسكين تطاول على فتاة دون وعي بما يفعل) ، الى ان يخصيه فعلاً ثم يضعه في مستشفى للمجانين ، رغم انـه لا يؤذي احداً ويجد سلوى بمرافقة الخدم الزنوج . ويطلب جاسن الى امه بان تأذن له بجلد الفتاة كونتن . وللحقارة التي في نفسه يحقد على الخدم الزنوج الابرياء . وقد حصل مرة على تذكرتين للسيرك الذي قدم الى بلدة جفرسن ، ولكنه لم يستطع الذهاب . وكان الخادم الصبي « لستر » طيلة اليـوم

يترجى هذا وذاك للحصول على ثمن تذكرة للذهاب الى السيرك، ولكن جاسن يحرق امام الصبي كلتا التذكرتين واحدة واحدة، ولا يعطيه احداهما رغم توسلاته ...

فجاسن يمثل قوى التصدع الناشئة عن الاسرة العريقة نفسها. كما تمثلها كاندس في شكل آخر - بانطلاقها الجنسي، وكما يمثلها الأب بتهربه من الواقع، وكونتن بعشقه للموت. ولكن ليس من الصعب الحكم على اي منهم انه قد بلغ الحضيض بالفعل!

والزمن عنصر هام من عناصر هذا المقطع ايضاً. ولكنه هو الآخر يختلف عن الزمن عند كونتن او عند بنجي. فالزمن عند جاسن هو زمن التقويم (الرزنامة) هو تواريخ الدفع والقبض، ولا تدق الساعة الا لتدل على اوقات الاكل، فتح الدكان او اغلاقها. فالزمن عنده هو الزمن كما يعرفه التاجر، ولا مغزى آخر له البتة. بل إن كل شيء عند جاسن لا قيمة له إلا من ناحية الربح او الخسارة. فهو مغضب على انتحار كونتن لأنه انتحر بعد ان بيعت قطعة الأرض لدفع نفقات تعليمه في هارفرد، وبالتالي لم يستطع هو (جاسن) ان يدرس في جامعة. وعندما يموت ابوه ويدفن يلاحظ ان اخته (وقد جاءت لتحضر دفن ابيها محجبة لئلا يتبينها أهل البلدة) قد احضرت كمية كبيرة من الزهور، وللحال يقول «انها تسوى خمسين دولاراً» ...

ولذلك فمن المناسب ان الحادثة المركزية التي تتفرع عنها الحوادث الاخرى والذكريات (وأغلبها يشير الى الحوادث التي عرفناها)، هي الاختلاس: كيف يتسلم جاسن صكاً من كاندس، بمبلغ مئتي دولار لينفقها على الفتاة كونتن، وكيف جاءته كونتن الى الدكان تطالبه بشيء من النقود، فيدعي انه لم يتسلم من امها إلا عشرة دولارات يعطيها اياها، فتشتمه لأنها لا تصدقه. ثم يراها بعد الظهر مع احد ممثلي السيرك في سيارة، فيلحق بها في سيارته ولكنه يفقد اثرها. وبعد سحب الفلوس، يزوّر صكاً بنفس المبلغ ويأخذه الى امه، وهذه - وهي السيدة الشريفة التي تتألم لسوء سيرة ابنتها كاندس - ترفض ان تصرف على حفيدتها اجور الفحشاء، ويتظاهر جاسن بالموافقة (كما يفعل كل شهر) ويحضر لها معولاً تحرق فيه الصك المزوّر ارضاءً لضميرها! وينتهي المقطع في الليل بدخول جاسن غرفته التي يقفل بابها بحيطة شديدة، ويخرج الصندوق المخبأ الذي يجمع فيه الدولارات المسروقة، فيعدّها ثانية، ثم يعيدها الى مكانها، وهو يردد «عاهرة يوماً، عاهرة كل يوم» ويمنّي نفسه بأنه سيبز كل يهود نيويورك في الحصافة المالية.

ويتبدّل الاسلوب في الحال حين نبدأ الحركة الرابعة من الكتاب بصباح اليوم الثامن من نيسان - فكل مقطع يبدأ صباحاً وينتهي مساء - ويقصها المؤلف، الذي نسمع صوته لأول مرة: «طلع الفجر قاحلاً قارس البرد ...» ويصف لنا طلوعه على الخادمة الزنجية دلزي، وهي التي نشاهدها في المقاطع السابقة تعمل باستمرار على راحة كل فرد في الاسرة، تعرفهم جميعاً خيراً مما يعرف بعضهم بعضاً، وتحنو عليهم بعطف رؤوم ولا سيما المستضعفين منهم.

وفي الفقرات الاولى يصفها المؤلف: يصف وقفتها وثيابها وهي تفتح الباب، ثم يأتي إلى جسمها فيجعل منها ضرباً من القديسة في هذا الوصف الذي يجمع بين الدقة والشاعرية:

«كانت امرأة ضخمة فيما مضى، ولكن هيكلها الآن ينتصب، يكسوه إهاب واسع غير محشو، يشتد ثانية عند بطنها الضامر، كأن العضل ولفائف اللحم كانت يوماً شجاعة او جلداً اتت عليهما الايام والسنون، حتى لم يبق إلا الهيكل العظمي الذي لا يقهر، منتصباً كالخرائب او المعالم فوق الاحشاء الوسنانة التي لا تشق، ويعلو جميع ذلك وجه متداع يوحي للرائي بان عظامه خارج اللحم، يرتفع أمام النهار المندفع بتعبير في القسمات قدري.»

فدلزي تختلف عن الآخرين لانها مثال التحمل والصبر والعطف، وإذا كانت الاسرة في طريقها الى الانحلال والاضمحلال فإن الزنوج - وهم ليسوا إلا خدماً - هم الذين يبقون و«يجالدون». ما أشد الفرق بين دلزي وبين سيدتها «مسز كمبسن» - تلك السيدة العليلة ابداً، المصرة ابداً على انها من كرام القوم، وقطعة القماش المخضلة بالكافور دوماً على جبينها لتلطف عنها الألم.

لعل هذا المقطع ما وجد إلا من اجل دلزي. إلا ان الحادثة المهمة هنا هي اكتشاف جاسن ان الفتاة كونتن قد تسلقت شجرة الاجاص ودخلت منها الى غرفته بعد ان كسرت زجاج النافذة، وسرقت أو استردت) مالها، وهربت مع ممثل السيرك. فيجن جاسن، ويخرج للبحث عن كونتن ويبدو انه سيقتلها إذا وجدها. ولكنه لا يعثر لها على اثر (ولا نعرف شيئاً عنها بعد ذلك)، بل إنه لحنقه يتعدى على جزار بريء اثناء البحث، فيكاد هذا يقتله لو لم ينقذه بعض الواقفين هناك.

اما دلزي فانها في الصباح الباكر، قبل الذهاب الى الكنيسة، تقبع في المطبخ وقد سمعت ضوضاء جاسن عندما

اكتشف امر كونتن . واذا المؤلف يذكرنا بالزمن مرة اخرى :

« وراحت الساعة تدق ، تك تك ، تك تك ، في وقار وعمق ، كأن ذلك نبض البيت المتداعي نفسه ... فأخذ بنجي يئن ... »

وبعد ذلك تذهب الى كنيسة الزنوج ، وتأخذ معها ابنها وبنجي ، لتسمع الموعظة ، واليوم هو احد العيد الكبير ، يوم بعث المسيح . وهناك ، وقد هزت مشاعرها كلماتُ الواعظ الرهيبة عن الموت والقيامة ، « تدحرجت دمعتان على خديها المهدّمين ، وهما تدخلان وتخرجان من ملايين التجاعيد ، تجاعيد التضحية ونكران الذات والزمن ... »

ويفرغ الواعظ من خطبته ، وتخرج دلزي من الكنيسة برفقة بنجي وابنها « فروني » :

« لم تنس دلزي بحس ، ولم يرتعش وجهها والدموع تجري في مجاريها الهابطة العديدة ، ومشت برأس مرفوع دون ان تحاول مسح دموعها .

فقال فروني : « لماذا لا تكفي عن ذلك يا اماه ، وهؤلاء الناس يرقبوننا؟ وبعد لحظات سنمر بالقوم البيض . »

فقالت دلزي : « لقد رأيت البداية والنهاية . لا عليك . »

— اية بداية واية نهاية ؟

فقالت دلزي : « لا عليك . لقد رأيت البداية ، وها انا الآن ارى النهاية . »

وإذ يصرخ بنجي وينوح من جديد حين يبلغون البيت ، تحض دلزي ابنها على اخذه في عربة الى المقبرة ليشاهد قبر اخيه المنتحر . فيفعل ابنها ذلك ويعطيه زهرة ليحملها فيهدأ . ولكن جاسن يرى العربة في ميدان المدينة — وقد عاد خائبا من بحثه عن الفتاة الآبقة — فيستشيط غضبا ، ويوقف العربة ، ويصفع الصبي ويلطم بنجي ، ويأمرهما بالعودة الى البيت ، فيعودان وبنجي ينوح والزهرة مكسورة الساق في يده من لطمة اخيه.

ويتردد في الذهن صدى كلمات دلزي بعدما شاهدته من صخب وعنف في بيت آل كمبسن ، كأنها كلمات الكورَس في المآسي الاغريقية : « لقد رأيت البداية والنهاية . »



جبرا ابراهيم جبرا

كمبردج — ماساشوستس

(الولايات المتحدة)



جديد ... في القصة العربية

في العدد السابق من « الآداب » ، قصة « اللص » لليلى بدور (حلب) ، وقصة (بشر وأرض وزمن » لمحمد روزنامجي (بغداد) ، وهما اقرب الامثلة في ذاكرتي الآن ، الى الفكرة التي اريد ان اوضحها في هذه السطور .

ليست القصتان من النمط العالي في القصة العربية الحديثة ، ولكنهما تنهجان - في منحاهما الفني - هذا النهج الجديد في تصوير الحياة الواقعية التي نحياها ، بحيث يصح ان نضرب بهما مثلاً على ما يدخل قصتنا العربية الآن من دم جديد ، وحياة جديدة ، واتجاه جديد .

كلتا القصتين تتحدث الينا عن شيء من واقع حياتنا العامة ، أعني حياتنا الاجتماعية ، أو قل : حياتنا الانسانية الوطنية، ولكنهما تختلفان كل اختلاف ، بالطريقة الفنية ، او المعالجة ، او المنحى « الشخصي » في تناول التجربة الانسانية .

ففي القصة الاولى مشاهد وصور وحوادث تتصارع في حياة إنسان ، هو من صميم انسانيتنا الحاضرة التي يصطرع فيها جيلان ، وتصطرع فيها عقليتان ، ثم يصطرع فيها ، مع ذاته ، نظام قد استنفد كل طاقته ، واصبح غير قادر ان يهب انسانيتنا الحاضرة هذه ، غير الآلام ، او الآثام .

وفي القصة الثانية طراز من هذا الانسان الذي نعيشه في حياتنا اليومية الواقعية ، هذا الانسان الذي يملأ نفسه صراع الجيلين وصراع العقليتين ، وصراع النظام الاجتماعي مع ذاته . فهو يتوثب الى ان يكون إنساناً جديداً ، ولكنه يرى اثقال الجيلين والعقليتين ، واثقال النظام الذي يصارع ذاته بذاته ، قد ملكت عليه امره ، فهي تشده الى الفراغ ، الى وجود تافه : « مجرد وجود . بشر وأرض وكفى ! أي شيء ؟ وجود . مجرد وجود . بشر وارض وزمن !. أما المستوى ، مستوى الحياة ، مستوى العيش ، أما النتيجة ، قيمة الانسان، فلا شيء ... لا شيء ! مجرد وجود ! »

كلتا القصتين - إذن - من معدن واحد ، أعني من معدن هذه الحياة الانسانية التي نعانيها - نحن العرب - في مرحلتنا التاريخية الحاضرة ، ولكن هذا قاص يصوغ من هذا المعدن ، حياة ذات تجارب خاصة وملامح متميزة ، وذاك قاص يصوغ من هذا المعدن نفسه حياة ذات تجارب خاصة وملامح متميزة ايضاً ، ثم يقع الاختلاف بين الحياة في قصة، والحياة في قصة اخرى ، بما تستمده كلتاهما من تجارب القاص الفكرية والنفسية والتعبيرية ، ومن ملامح « شخصيته » المتميزة ، ومن مقدار الاصالة الفنية عنده .

وهذا يعني ان القصة الواقعية ، ليست « حكاية » للواقع كما هو ، وإنما هي تنصهر انصهاراً كاملاً في تجربة القاص ، أي في عناصر ذاته ، ووجدانه ، وأداته .

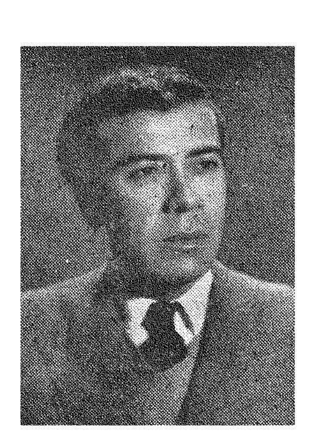
ولقد كان هذا ، الى زمن قريب ، غير واضح في اذهان اهل الفن والادب عندنا ، ولكن القصة العربية الطالعة علينا الآن ، من بغداد والقاهرة ودمشق وبيروت وحلب وعمان ، وحتى تونس وفاس والدار البيضاء ، وحتى الظهران والبحرين والكويت وسائر المدن والحواضر العربية ، قد اخذت سمتها الى هذا النهج الفني الانساني ، وأخذت تدل على قيمة « الواقعية » في الفن باطلاقه ، وهي جاهدة ، الآن ، في تبديد هذا « الضباب » الكثيف الذي كان يحول بين بعض الاذهان وبين هذه « الطاقات » الفنية العظيمة التي يستطيع الواقع من حياتنا اليومية ان يتفجر بها فناً قوياً حياً حين تطالها ايدي الموهوبين من الشعراء وكتاب القصة والمقالة والمسرحية .

ان هذه « الواقعية » الانسانية الحية ، في ادبنا الطالع عامة ، وفي قصتنا العربية خاصة ، لتدل دلالة قاطعة اننا نستقبل في مرحلتنا الانسانية الوطنية الحاضرة ، ادباً جديداً ، وقصة جديدة ، وفناً جديداً .

وما دام الحديث عن القصة بالذات ، ارى ان الجديد في قصتنا العربية الان ، ليس يقتصر على انتهاجها منهج « الواقعية » الذي قلت ، وإنما هناك عنصر آخر لا يقل شأناً - في عقيدتي - عن ذلك الأمر الجديد .

واعني به هذا التمرد والتحرر من « تقاليد » كان يلتزمها كتاب القصة في الجيل الماضي ، التزاماً شديداً يبلغ حد التزمت ، او التقديس ... فانه لقليل جداً بين كتاب القصة العربية الجديدة ، القصة « الواقعية » ، من يلزم نفسه بهذه « التقاليد » ، أو من يستعبد موهبته واصالته الفنية ، للمقاييس التي تفرضها هذه « التقاليد » من امثال العقدة ، والمفاجأة ، واصطناع الاثارة وهيج العاطفة ، وبعث الحماسة الخاصة ، وتركيز أمر القصة كله على هذا التجاذب الجنسي بين المرأة والرجل ، او على هذا التحايل النفسي الموغل في عزل النفس الانسانية عما يدور في محيطها الاجتماعي من احداث واوضاع وتصاريف وتطورات لا تقف عن الحركة والتقدم .

وأكاد ارى هذا العنصر الجديد ، عنصر التحرر من « تقاليد » القصة « الكلاسيكية » يثب بقصتنا العربية الجديدة وثوباً يتبين اثره يوماً بعد يوم ، وذلك بشير بان تكون لنا ، في القريب الآتي ، منزلة مرموقة في انتاج القصة العالمية .



حسين مروّه



بعد ان جلس على احد الكراسي المريحة ، اخذ يتفحص الرواد . كان ثلاثة من البحارة الاجانب يشغلون احدى الموائد على يمينه ، وعلى مائدة اخرى جلس احد (الشيوخ) بعقاله الضخم ، وكان يشرب كأسه بنهم ثم يمسح فمه بيده، وكانت احدى راقصات الملهى تحوم حوله ، وتبتسم له كلما رفع عينيه اليهـا ؛ غير ان جسدها الهزيل ، وانفها البارز ، وعينيها الكئيبتين الغائرتين لم تغر الشيخ ، فتجاهل وجودهـا . والى يسار الرجل كان يجلس اثنان تكدست على مائدتها زجاجات (البيرة) وصحون (المزة) ، وعلى بعد منها جلست راقصتان وقد تسمرت عيونها في الكرسي الذي ظل فارغاً بجانب الرجلين. وتحت احدى الاشجار كان احدهم يحاول تقبيل راقصة تجلس بجواره وهي تتمنع .

ونظر الرجل الى المسرح فوجد جماعة كبيرة من السوقة والعمال يشغلون الصفوف الامامية، وكان بعضهم يمزح مع افراد التخت، وكان عازف الكمان يقلد على كمانه – تقليداً رديئاً – اصوات بعض الحيوانات فيضحك هؤلاء . ثم راحت عيون الرجل تستعرض الجالسين في الجانب الآخر من الملهى : رجل وراقصة ، مائدة فارغة ، ثلاثة رجال، مائدتان فارغتان ، رجل يشرب وحده وراقصة تحوم حوله كالكلب الجائع . موائد فارغة ، وراقصة تجلس وحدها ! وعندها وقفت عيناه . كانت جميلة : وجه ممتلىء مستدير ، وعينان كانتا – رغم المسافة والاضواء الباهتة – تتألقان كنجمتين،وتشعان كقطعتين من الماس.. لا .. ليست هذه كالأخريات ، انها من تلك الوجوه التي لا تظهر في الملاهي إلا نادراً ، ثم لا تلبث ان تختفي في مخدع احدهم لبضعة شهور او لبضع سنين لتعود حطام امرأة .

– الويسكي عمي .

– قاسم .. من هي !?

ونظر الخادم حيث اشار الرجل .

– ساجدة !

– اتشتغل هنا ?

– نعم عمي .

– ترقص ام تغني ?

– ترقص وتغني !

– لطيف .. ادعها الى مائدتي .

فسكت الخادم .

– اسرع .

– لكنها لا تجلس مع الرواد .

– لا تجلس !! اسمع .. هذه اسطوانة قديمة.. قل لها اني لست كالآخرين.

وذهب الخادم ، وتبعه الرجل ببصره ، ورآه ينحني على الغانية ويهمس شيئاً في اذنها ، ورآها تحرك رأسها رافضة . ولم ينثن قاسم وكان يجاهد ليغريها على القبول ، وكانت ترفض بعناد ، وكانت عيون الرجل – طيلة الوقت – معلقة فيهما ، تترجم حركة رأسيهما وقد نفد صبره . وضاقت به الدنيا عندما رآها تزجر الخادم ، وأحس كأن يدها تهوي على وجهه . لم يسبق ان فكرت غانية في رفض دعوته . وعاد الخادم خائباً .

– لا بأس .. لا بأس .

وحاول الخادم ان يقول شيئاً، فأشار له ان ينصرف . الحديث عن الهزيمة شيء لا يسر ، لقد رفضت . لا بأس .

– ويسكي

ونظر حوله فوجد الشيخ قد اجلس الراقصة التي كانت قبل برهـة تحوم حوله ، وطوقها بذراعه ، بعـد ان لطفت الخمرة – في نظره – تقاطيع وجهها المتنافرة ، وشاهد راقصتين تجلسان مع البحارة الاجـانب ، ووجد الكرسي الذي كان فارغاً بجانب الرجلين، على يساره ، تشغله احدى الغانيات وقد انكب عليها كلاهما ، كل يحاول ان يستميلها اليه ، وهي توزع ابتساماتها عليهما في براعة عجيبة . وابصر برواد جدد يشغلون بعض الموائد الفارغة في الجهة الاخرى ، وكانت الصفوف القريبـة من المسرح قد اخذت تزدحم بالرعـاع ، وقد اخذتهم الحماسة يصفقون لواحدة كانت تغني بصوت مبحوح « شاريك انا شاريك » .

– الويسكي عمي .

– قاسم.. متى يأتي دور ساجده ?

واشار الخادم الى المغنية فوق المسرح

– بعد جوهرة عمي .

وتردد قاسم قليلاً قبل ان يقول :

– ساهرة هنا .. هل أدعوها ?

– لا لا .. اسمع .. احمل الويسكي هناك .

واشار الى الصفوف الامامية . واستغرب الخادم ذلك الطلب . وقـام الرجل بجسده المترهل ، وشق له طريقاً بين الجالسين حتى وجد كرسياً في الصف الامامي . والتفت يحيي الرواد من حوله ، وعلى شفتيه ترتسم ابتسامة عريضة تنم عـن منتهى البساطة وطيبة القلب . وتبادل معهم كلمات رقيقة وصافح بعضهم ؛ فتملكهم شعور غريب ، وأحسوا بفرح عظيم يغمرهم ، وبانهـم اسمى مما كانوا يظنون ؛ ومع ذلك أحسوا بشيء من الحرج وكفوا عن التصفيق. واستغربت المغنية وجوده بينهـم ، وبان ذلك في صوتها . والتفت هو اليهم :

– لماذا سكتم !? صفقوا .. لا داعي للخجل .. نحن اخوان !

وبعثت الكلمة الاخيرة السرور الى قلوبهم ، فلاحت الابتسامات عـلى وجوههم ، وضحكوا فرحـاً : ضحكوا من القلب . كم هي جميلة كلمة « اخوان ! » وراح بعضهم يردد مع المغنيـة « الموت اطيعك يا ولد الموت اطيعك» وعادوا يصفقون كما كانوا والرجل يصفق معهم.وجاء قاسم بالويسكي فتراخت الايدي عن التصفيق : لقد افسد السائل الثمين ذلك الفرح الذي كان يغمرهم قبل برهة.ويسكي ! شيء غريب لا مكان له في الصفوف الامامية، ولاحظ الرجل صمتهم .

قاسم .. ويسكي للجماعة .. ويسكي لهم كلهم .

– ويسكي !! – لكن !! لا متشكرين !!

وبانت الدهشة واللهفة على وجوههم في آن واحـد ، وقال الرجل وهو يضاحكهم .

– نحن اخوان .. لا داعي للخجل .

وعاد اليهم مرحهم ، وصاح واحد منهم :

– انا اريد أبيض .. ابو سطعش .

– اشرب ويسكي .

– انا اريد ابيض .. اريد اسكر بسرعة .

– اشرب ويسكي الى ان تسكر .. اشربوا الى ان تسكروا .. قاسم

ويسكي للجماعة كلهم .

وانهت المغنية اغنيتهــا فغادرت المسرح ، والتفت الرجل الى القريبين منه يسألهم عن اعمالهم وعن حياتهم كيف تسير ؛ وبان الحزن على وجهه المنتفخ وهو يصغي اليهم يروون قصص حياتهم البائسة . وكان الجالسون بعيداً يروون في ما بينهم ما يعرفونه عن الرجل .

رجاء قاسم واثنان من الخدم بالويسكي ، فتألقت العيون ، وانتبه الرجل الى افراد التخت وهم يعزفون مقدمة احدى الاغاني ، ثم ظهرت ساجدة ، ترتدي فستاناً اخضر طويل الاكام ، وتمسك بيدها منديلاً ابيض ، وبدأت تغني « فرحانة فرحانة » فاطلق الرجل ضحكة صاخبة :

– انت فرحانة !؟ انت وجهك مأتم .

وضحكوا كلهم ، وكانت كؤوس الويسكي ما تزال بين ايديهـــم ، فقال آخر :

– وجهها أتعس من حظي .

فهتف ثالث :

– وجسمها ؟

فأجاب واحد من الخلف :

– خراب مثل دار العجزة .

وكان الرجل غارقاً في الضحك بعد ان اشعل الشرارة الاولى . وضاع صوتها ، ولحنه يجلس بينهم ، فعرفت قصده ، انها معركة سلاحه فيهـــا هؤلاء الرعاع . وجاهدت لتنتصر ، وأخذت ترفع صوتها «والدنيا ممايا ..» ولكن النكات اللاذعة كانت تهوي على رأسها من كل جانب ، فكمت عن الغنـــاء وحاولت ان تجرب سلاحـــاً آخر ، فأخذت ترقص ، ولم تكن ماهرة ، فبدأت تحرك يديها حركات رتيبة ، فصاح الرجل كما يصيح مدرسو الرياضة للطلاب الصغار :

– ثني . أعلى . مد . ثني . أعلى .

وردد معه الآخرون في صوت واحد «ثني . اعلى . مد» ولم تستطع ان تصمد ، وارتبك افراد التخت ، فانسحبت من المسرح ذليلة ، تخفف دموعاً انهمرت من عينيها . وقام الرجل وهو يشعر بلذة الانتصار ، وشق طريقه عائداً الى حيث كان يجلس . وكان ميخا ، صاحب الملهى ، قد شاهد كل شيء ، وقدر ربحه من اقداح الويسكي التي حملها قاسم والخدم الى الصفوف الامامية ؛ فذهب الى الغانيـــة التي كانت ما تزال تبكي في غرفة الملابس ، وافهمها انها كانت مخطئة في رفضها دعوة رجل من اشراف البلد،وجاء بها ميخا:

– ساجدة متأسف ، ما كان قصده شيئاً ، هو كان مريضاً فقط .

وقام الرجل وأجلسها بجانبه وهو يضحك .

– انا آسف ايضاً .. لكنها هي التي ارغمتني .

ثم التفت اليها .

– ويسكي ؟ جن ؟

– أي شيء ؟

– ويسكي من فضلك .

وهرع ميخا يلبي الطلب، وكانت هي ما تزال تحس برغبة في البكاء ، وكانت مرغمة على كبت تلك الرغبة ، فشعرت كأن شيئاً ينحشر في حنجرتهـــا ، وازداد وجهها احمراراً ، وكانت الدموع قد بللت اهدابها ، فبدت عيناها في اطار جديد ، وود الرجل لو خلا بها في مكان آخر .

– انت اسمك جميل ووجهك جميل ، فلا بد ان يكون جسدك جميلاً ايضاً، لم لا ترقصين عارية كالاخريات !؟



– اعطني سيجارة .

– لم لا ترقصين عارية ؟ ؟

– سيجارة من فضلك .

فتناولتها من يده وارادت ان تشعلها .

– لا . لا ، مثلك لا تشعل سيجارتها بعود ثقاب .. اسمحي لي لحظة .

وأخرج حافظة نقوده ، وتناول ورقة من فئة العشرة الدنانير ، وأشعل في طرفها النار ثم ادناها من سيجارة الغانية ، فأحست بشبه انتصار ، وزال ذلك الشيء الذي كان ينحشر في حنجرتها قبل لحظة ، وودت لو حرق كل ما معه من نقود .

– أتسهرين معي الليلة ؟

– لأ .

– عندك عشيق ؟

– لأ .

– إذن لمَ ! ؟

ولم تجب ، وتجرع كأسه ، ثم ضحك .

– أوه .. العفو .. نسيت انك راقصة فاضلــة .. شيء لطيف .. راقصة وفاضلة .

وراح يضحك حتى دمعت عيناه ، ثم صمت فجأة ، وكانت هي تشرب صامتة.

– لم انت حزينة ! ؟

– لست حزينة .

– لم لا تضحين إذن ! ؟

– بلا سبب ! !

– شارب الخمر يضحك بلا سبب .

– لا بد من نكتة .

– نكتة !؟ ان كل شيء في الملهى هو نكتة .. انظري .. الى المسرح..

الى زميلتك .. جسدها الهزيل .. انفها البارز .. وعينيها الغائرتين .. وذلك الكهل الثمل الذي يرقص حولها .. انها نكتة .. اضحكي فقط .. لأرى اسنانك الصغيرة البيضاء .

ونظرت الى المسرح ، وأحست كأن الرواد ما زالوا يهتفون ساخرين منها ، « وجهك مأتم .. اتعس من حظلي .. خراب مثل .. ثني . أعلى . » وتضخم الصوت، واختلطت كل تلك النكات اللاذعة التي قذفوها بها ، ونظرت الى الرجل في حقد ، وضحكت بعصبية ، وألقت سيجارتها وعاودها ذلك الاحساس بالاختناق .

– سيجارة من فضلك .

وامسكت السيجارة ، واخذت تنظر اليه،تنتظر ان يخرج حافظة نقوده.

– ألا تشعل لي ؟ ؟

– أوه طبعاً ، طبعاً .

واسرع يخرج حافظة النقود، وتناول ورقة .

– عود واحد فقط ؟

– واحد ! ؟ سأشعل لك علبة الثقـــاب باكملها .. اذا شئت ..اضحكي فقط .. لأرى اسنانك الصغيرة البيضاء .

وابتسمت تشجعه .

– ولكن .. الحساب ! ؟

– الحساب ! هه .. انت جديدة .. انت لا تعرفيني بعد .. انا استطيع ان اشتري الملهى .. وميخا صاحب الملهى .. وقاسم .. تعال قاسم .. ايعجبك قاسم !؟ وتلك المخلوقات .. تلك الحفنة من المخلوقـــات .. في الصفوف الامامية .. اشتريهم كلهم .. الأوغاد كانوا يضحكون منك ! ؟ لا بأس .. بشرفي .. انا عندما احلف بشرفي .. سأجعلهم غداً .. يصفقون اعجابا .. فقط .. فقط قولي .. أتسهرين معي الليلة ??

فلم تجب ، وادنت سيجارتها :

– ألا تولع لي ؟

– قولي .. اتسهرين معي ؟ ؟

– ولع لي .

وتناول رزمة كبيرة ، واشعل في طرفها النار ، فأسرعت هي واشعلت سيجارتها ، واندلع اللهب ، وسرى في الرزمة ، وقبل ان تحترق اصابعه القى بهـــا الى الارض ، وسحق النقود بقدمه وهو يضحك ، وضحكت هي . وكانت تحس في اعماقها براحة نفسية، وشعرت كأنها ثأرت لنفسها ، فضحكت عالياً ، ضحكت من القلب هذه المرة . وكان الجالسون قد شاهدوا الرزمة تلتهمها النار ، فأخذوا ينظرون صوبها مستغربين ، وذهل البحارة الاجانب، أمـــا رواد الصفوف الامامية ، تلك الحفنة من المخلوقات ، فقد تلاشى من رؤوسهم أثر كل ما سقـــاهم الرجل من ويسكي ، وتسمرت عيونهـــم في رماد النقود ، يخيم فوقهم صمت ابله كئيب ، وفجأة صاح واحد منهم ، وكان يبدو ثملاً جداً :

– لماذا سكتم .. صفقوا .. نحن اخوان !

ثم اطلق ضحكة كالعويل لم يشاركه فيها احد .

مهـدي عيسى الصقر

البصرة

الأقصوصة الروسية الحديثة

بقلم : ا. تاراسنكوف

نقلها الى العربية : منير البعلبكي

في تراث الادب الروسي الكلاسيكي الضخم ، الذي كان دائماً معين وحي لا ينضب لكتابنا المحدثين ، تنعم الاقصوصة الروسية بمركز ممتاز . فـ « العربة » لغوغول ، و « تامان » لليرمونتوف ، و « اوراق رجل رياضي » لتورغنيف ، و « فارسان » لتولستوي ، و « السيدة ذات الكلب » و « المنزل ذو العلية » لتشيكوف ، و « ستة وعشرون رجلاً وفتاة » ، و « ماكار شودرا » و « ايزرجيل العجوز » لمكسيم غوركي — كل هذه ليست غير نماذج قليلة من الجواهر النفيسة التي ابدعها اساتذة القصة الروسية العظام .

ومع ذلك فحين نقارن ما بين المركز الذي تحتله الاقصوصة في الادب الكلاسيكي الروسي والمركز الذي تحتله في الادب السوفياتي الحديث لا يفوتنا ان نلاحظ ان كتّاب اليوم يؤثرون النفَس الطويل — نفس الكتب والريبورتاجات — الذي يشغل في عهدنا هذا معظم حقول الصحف الادبية الصادرة في الاتحاد السوفياتي .

ولكن المسألة ليست مسألة إيثار للقصة على الاقصوصة ، او للاقصوصة على القصة ، فللأقصوصة وظيفة هامة وضرورية كوظيفة القصة . إنها تفسح المجال واسعاً لتصوير المواقف والنزاعات النموذجية ، وتتطلب قدراً رفيعاً من البراعة الادبية . انها لا تستطيع ان تقدم لوحات جارفة . ولكنها تجتزيء بأن تعكس جانباً صغيراً واحداً من جوانب الحياة . انها لا تصوّر المجتمع كله ، ولكن فلذةً صغيرة نموذجية من الكلّ . بيد ان سحرها كامن في ايجازها نفسه ، في ميزة السرد الدينامي ، في ذلك الانضغاط الذي لا يترك متسعاً للحشو والترهل المفسدين لجميع الانواع الادبية .

وفي السنوات الماضية ، وبخاصة خلال الحرب الاخيرة ، اخرج الكتاب السوفيات عدداً صالحاً من الاقاصيص البارعة ، انتظمت مختاراتٍ منها مجموعةٌ صدرت حديثاً في ثلاثة مجلدات هي في الحق سجل يؤرخ لتطور القصة الروسية المعاصرة منذ نشأتها حتى اليوم .

ولو ألقينا نظرة على هذه المجموعة لوجدنا اقاصيص لميخائيل بريشفين ، الذي يبرع في وصف الطبيعة وصفاً شعرياً لا سبيل الى مضاهاته ، واقاصيص لبازهوف منتزعة من مجموعته « صندوق اليَشب » ، وحكايات من فزيفولود فيشنيفسكي تمجد بطولة البحارة في الحرب الاهلية ، وقصتين نابغتين بالحياة هما « والدنا » و « الراية » لفالانتين كاتاييف وهو كاتب ذو براعة ملحوظة في حبك العقدة وفي سرد التفاصيل وإدارة الحوار . وقصة « موكب الفرسان » لتيخونوف باوصافها البارعة لمشاهد القوقاز البرية وحياة رعاة الماشية . وقصة « المخرِّب » لفيرا إينبر وهي تصور حياة الاطفال في لننغراد المحاصرة ، وتنبض بنَفَس دعابي رفيق يتكافأ والمأساة التي تمثلها القصة . كذلك نجد في هذه المجموعة اقصوصة « الافعوان » لألكسي تولستوي ، وهي مفرغة في اسلوب كلاسيكي صاف . واقصوصة « الحياة » وهي قوية باسلوبها الواقعي المكبوح . ليس هذا فحسب بل اننا نجد في هذه المجموعة نماذج من آثار كتّاب آخرين وثبوا الى القمة منذ الحرب العالمية الاخيرة على الرغم من ان بعضهم استهلّ حياته الادبية قبل ذلك بكثير ، من مثل ج. نيقولاييفا ، وم. بوبينوف ، و ج. غوليا ، و ف. ماتوف ، و ف. فومنكو ، و ي. ناجيبين .

وبالاضافة الى هؤلاء الكتّاب كسبت القصة الروسية الحديثة قاصين موهوبين آخرين هما س. زاليجين من سيبيريا و ف. دودينتسيف من موسكو . ولكن إطلالتهما على المسرح الأدبي كانت جدّ حديثة فلم يكن من سبيل الى ان تضم المجموعة التي نتحدث عنها شيئاً من آثارهما .

وإذ كانت هذه المجموعة تمثل باقة غنية كثيرة التنوع من الشخصيات، والأمزجة، والأساليب، والموضوعات، والمشكلات المتصلة بمختلف مراحل التطور التي مر بها المجتمع الروسي الحديث، ففي ميسورنا ان نعتبرها مثلا على تفتح الموهبة والشخصية المبدعتين تفتحاً ليس يتسنى نظيره في غير المجتمع الاشتراكي.

صحيح ان في المجموعات مواطن ضعف، وان ثمة نقاطاً كثيرة يمكن ان تكون موضع جدل بين المرء وجامعيها، ولكن الهدف الذي يرمي اليه الكاتب ههنا هو الكشف عن القواعد الرئيسية التي ينهض عليها بناء الاقصوصة الروسية المعاصرة لنرى بعد الى اي حد تأثرت بالقوانين المؤثرة في تطور الادب السوفياتي جملة.

خذ قصة غالينا نيقولاييفا «موت قائد» مثلا، وهي أثر دينامي درامائي تتجلى فيه بعض الخصال الرئيسية التي تميز الادب السوفياتي. فأما الشخصية الاولية في القصة فجندي من جنود المصفحات يدعى انطون، «كان ابداً يعي المعركة ككل، ويستشعر نفسه مسؤولاً شخصياً عن نتائج العمليات الحربية.» لقد وُلد انطون قائداً. «فرجاله يطيعونه على رغبة وفي تلهف. حتى إذا اصيب في المعركة بجرح مميت، حُمل على متن «باخرة مستشفى» الى خارج ستالنغراد المحترقة. وفي الطريق تهاجم الباخرة طائرات المانية كانت تهبط واحدة إثر واحدة لتصب نيران مدافعها على

المركب الاعزل . وكان انطون مضطجعاً في مخدعه بالسفينة، وهو من العجز والضعف بحيث لا يستطيع ان يفكر بالقيام بمحاولة ما للنجاة بنفسه سباحة . وهنا تبرز كتيبة المانية على ضفة النهر وتقذف الباخرة المستشفى بقنابل مدافعها . ويتعاظم عدد الضحايا على ظهر الباخرة . ويُقتل كل من قائد الباخرة ومفوّضها . وتندلع النار ، وتجنح الباخرة الى الغرق قليـــلا قليلا . ويدفع انطون بحزام الحياة الخاص به الى كاترينـــا إيفانوفنا، طبيبة الباخرة . إنه اعجز من ان يحاول السبح الى الشاطيء ، فهو لا يكاد يطيق حراكاً . فكان كل ما سألها إياه ان تأتيه ببندقيته وتساعده على ان يتخذ موقعـاً يستطيع ان يطلق منه النار .

ولكنها لم تستطع ان تحمل نفسها على مغادرتـــه . وفي انعطافة انثوية عاجزة ضغطت خدها على كتفه .

« وفيما هو يصارع الالم لامس رأسها ملاطفاً . ووجه اليها كلمات تبعث في النفس العزاء ، وكأنما كانت هي – لا هو – التي تنتظر الموت على ظهر هذه الباخرة . كان معترفاً بجميلها . ومرة اخرى عرف بهجة القوة والحماسة المتجددتين اللتين أوقعتهما انعطافتها العاجزة في ذات نفسه . »

بهذه الكلمات القليلة تبصّرنا نيقولاييفا تبصيراً مذهلاً صافياً بشخصية بطلها .

ويبقى انطون على متن السفينة المحترقة بعدان يُغري كاترينا إيفانوفنا بالمضيّ الى الشاطيء . إنه مستلق هناك يطلق النار على العدو ، فيقتل منهم خلقاً كثيراً . واخيراً تصيبه احـدى الرصاصات العدوة ، ولا تكاد كاترينا ايفانوفنا تبلـغ الشاطيء وتتلفت الى الوراء قليلاً لتتزوّد بنظرة اخيرة حتى يكون كل شيء قد انتهى ، « وتنتشر مياه الفولغا الناعمة الثقيـلة انتشاراً واسعاً بعيداً . »

ويمثل سباق البدَل ، سلـّم انطون المحتضر بطريقـة ما ، مأثرة حياته الى كاترينا ايفانوفنا . ففيما هي تنهض من لجة المياه المثلوجة ، مرتجفة تحت وطأة نسج الخريف ، اذا بها تجد نفسها وقد انطوت اضلاعها على صورة انطون التي سوف تظل عالقة ابداً في فؤادها . وحين تشقّ هي وصديقها سبيلها ، عائـدين الى ستالينغراد المحترقة ليواصلا القتال من اجل حرية شعبهما واستقلاله ، تفكـّر كاترينا في رفيقها الشهيد ، وتأخذ على نفسها عهداً ان تتابع حمل رسالته من حيث تركها هو .

والحق ان كثيراً من الاقاصيص الروسية الحديثة تعكس صوراً من البطولة لا تقل روعة عن هذه ، ولكنْ في طرائق تختلف بقدر اختلاف الشخوص الذين يعيشون في تلك الاقاصيص . إن اساليبها الفنية تتميز بفردية بالغـة ، ولكن القاسم المشترك بينها جميعاً هو ذلك الايمان العجيب بالانسان بوصفه جزءاً من الشعب ، وبإيمانها بشرف ابطالها وكرامتهم وقوتهم المعنوية ، وكلهم رجال ونساء قادرون على احتمال اقسى المحن وتحقيـق اسمى مآتي البطولة البشرية .

وإذا كانت مظاهر الحياة الروسية المعاصرة تجد تعبيرها في الاحداث ذات الاهمية التاريخية الكبرى ، من مثلَ جماعية الزراعة ، وموقعة ستالينغراد ، ومشاريع الدولة الانشائيـة الضخمة ، فان استشراقنا التقدميّ للحياة يمكن ان يجد تعبيره كذلك ، في اشياء صغيرة وحوادث ثانوية في ميسور الكاتب الموهوب ان يرتفع بها الى اعلى مراتب التعميم .

والى هذا الضرب من الكتابة تنتسب قصتاً بيوتر بافلانكو : « الصوت الذي ينادي » ، و « قوة الكلمة » . والواقع ان ثمة رسالة ملهمة في هذه الاقاصيص الدينامية المومضة الدائرة على شؤون الحياة اليومية . وليس من ريب في ان التلاحم العضوي بين دعامتي الكتابة الابداعية – واقعية التصوير والرسالة الصريحة المباشرة – هو ميزة بافلانكو ككاتب .

ولكن هناك طرقاً اخرى لمعالجة هذه المشكلة المعقـدة . وهي تتمثل في كثير من البراعة والاصالة في اقصوصة سيرجي انطونوف (ولم تنشر مع الاسف في المجموعة لصدورها بعدها) وتدور حول عاملة مكتب مغمورة تستيقظ، ولو متأخرة، على عظمة ما يجري حولها ، ويعمر قلبها شوق مبدع الى العمـل ، لتذهل بعدُ ، بعض الشيء ، ليقظتها تلك .

والقصة كلها كناية عن رفض للنفسية المنفعلة التي تكشفت عنها الشخصية الرئيسية . وههنا تكمن قوة هذه القصة . لأنه لا حب من غير نضال ، ولا إثبات من غير نفي .

وانطونوف يكره ان يتخذ المرء موقفاً رسمياً غير ابداعي من الحياة . انه يؤكد حق الانسان في ان يسرح في دنيوات الخيال ، وحقه في ان يخلق ، ويغامر ، ويحب ، مهما كلفه ذلك من الم ومشقة وحرمان . وهو يوحي دائماً بهذه الفكرة، ويومىء اليها مجرد ايماء ومن غير ما نصّ صريح . وان القاريء ليستشعر ان انطونوف كاتب يؤمـــن بأنه كلما كانت نية المؤلف

مستترة كانت الانطباعة الفنية اعمق واقوى . ولكنه امتياز من امتيازات القاص ان يختار طريقته الخاصة في وصف العالم كما يراه . وليس في استطاعة ناقد ان يزعم ان تأتي آنطونوف الفني لا محل له ضمن إطار الواقعية الاشتراكية.

وفي الوقت نفسه يتعين على القاص فيما هو يصف مجرى الحياة العام من خلال مظاهره الثانوية ، ان لا يسمح لنفسه بالانحراف عن الموضوعات الرئيسية ، عن الفكرات الشاملة التي يتميز بها عصره ، وإلا وجد نفسه متخلفاً عن ركب التطور الاجتماعي .

وثمة اخطار اخرى تعترض سبيل المشتغل بكتابة القصة القصيرة ، وهي منعكسة الى حد ما في هذه المجموعة . فقصة « ملازم ثان ايضاً » ليوري تينيانوف — وهي قطعة ادبية بارعة — تعالج الماضي على نحو وهمي جمالي اكثر مما تعالجه على ضوء قوانين التاريخ الموضوعية . ومثل هذه المسحة من الجمالية المنفعلة تلمس في عدد من قصص الكاتب الموهوب قسطنطين باوستوفسكي . ففي قصته « النطاق رقم ٢٧٣ » مثلاً — وقد كتبت سنة ١٩٤٩ — يقع القارىء على كلام طويل يدور حول صورة ناصلة الالوان تمثل غاريبالدي ، ووصف متمهل بطيء لدراسة المؤلف لبعض الزهرات المجففة تحت زجاجة مكبرة ، وشيء من الفلسفة الخلافية من مثل قوله : « إن سحر الحياة لا يكمن في توقع المستقبل والاستمتاع بالحاضر ، بل يكمن جزئياً في ذكريات المرء ايضاً . » ومن حق القاريء ان يتساءل عن مهمة هذه البضاعة التي تقرب ان تكون من سقط المتاع في قصة وقفها صاحبها على جمال الطبيعة الروسية ؟

وميزة ثانية تتكشف عنها الاقصوصة الروسية الحديثة هي تصويرها لضروب النزاع والصراع . وليس في عصرنا اعظم من الصراع بين القديم والجديد ، بين الرجعية والتقدمية . ومن هنا نجد الاقصوصة الروسية المعاصرة تضع توكيداً شديداً على تفسخ النظم العتيقة ، وولادة عهد جديد في تاريخ العلاقات الاجتماعية . وهذا ما تراه في « الافعوان » لألكسي تولستوي ، و « الفقر والثراء » لفاديييف ، و « النسيب البعيد » لجيرازيموفا ، وغيرها .



منير البعلبكي



نقلها الى العربية اميل شويري

كتب المعرّب مستأذناً المؤلف بنقل مسرحيته الى العربية، فكان مما قاله:

« ان مسرحيتك « العادلون » لم تكتب لكم انتم الفرنسيين فحسب، بل كتبت للجميع، وخاصة لنا نحن العرب. ولئن كان القارىء الفرنسي يعجب بها ويتأملها ويتعمقها، فان العربي الاشتراكي الثوري، يعيش آلامها كل يوم... والحق اننا نحن ابناء العروبة، نعاني الآن الفترة الحاسمة من تاريخنا الحديث، فترة البعث الحقيقي...

... فاسمح لي يا سيدي، ان انقل الى العربية هذه المسرحية، التي تلامس من قريب جميع مشاكلنا، فردية كانت ام اجتماعية ... »

وقد أذن الأديب الفرنسي الكبير، للمعرّب بنقل المسرحية، وكان ابرز ما جاء في جوابه:

« ... سوف اكون سعيداً حقاً، اذا استطاعت مسرحيتي « العادلون »، ان تبلغ العالم العربي، الذي ولدت فيه، العواطف التي تربطني به في عالم الحرية ... ».

★

البير كامو **Albert Camus**

ولد كامو في ٧ تشرين الثاني ١٩١٣ في مدينة موندوفي بالجزائر. وكانت اسرته من الطبقة العاملة. وقد ابدى منذ حداثة سنه، اجتهاداً عجيباً، فأعطي منحاً مالية اتاحت له ان يتابع دراسته الثانوية والعليا. ومن اجل ان يكسب البير كامو حياته، امتهن كثيراً من المهن. فكان بائع لوازم سيارات، وخبيراً بالاحوال الجوية، وموظفاً في الشرطة في الوقت نفسه الذي كان يمارس فيه الرياضة، الى ان حصل على ليسانس الآداب، ودبلوم الدراسات العليا. على ان كامو اظهر ميلاً شديداً الى المسرح، فأسس فرقة مسرحية، مثلت كثيراً من الروائع، وكان بينها «الاخوة كرامازوف» التي مثل فيها كامو نفسه دور ايفان.

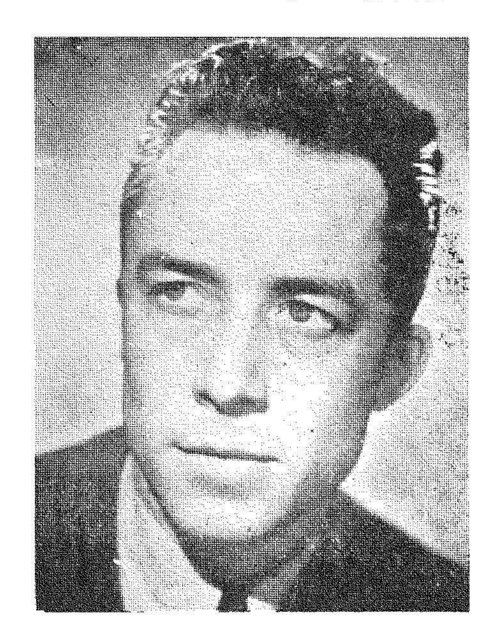
ثم مارس الكاتب الفرنسي الصحافة في الجزائر وفي باريس قبيل الحرب الثانية. وبعد تحرير فرنسا، كان رئيساً لتحرير جريدة « كومبا » لسان حال حركة المقاومة الفرنسية التي كان منتمياً اليها اثناء الاحتلال الالماني.

وقد الف عام ١٩٤١ رواية اثارت اهتمام الاوساط الادبية في العالم كله، هي رواية «الغريب» L'Etranger تبعتها دراسة فلسفية بعنوان «خرافة سيزيف» Le Mythe de Sisyphe ثم ظهرت له عام ١٩٤٣ مسرحيتا «سوء تفاهم» Le Malentendu، وكاليجولا Caligula. وعام ١٩٤٧ نشر كامو روايته «الطاعون» La Peste فكانت حدثاً هاماً كرس نهائياً الكاتب الشاب، اديباً عالمياً وزعيماً غير منازع للجيل الجديد من ادباء فرنسا.

اما « العادلون » « Les Justes » التي نقدمها اليوم، فقد اخرجت على المسرح للمرة الاولى عام ١٩٤٩ بباريس. وتعد ابلغ شاهد على نزعة المؤلف الالتزامية في الادب.

هذا وقد قدم كامو لمسرحيته بما يلي — « في شباط عام ١٩٠٥، نظم جماعة في موسكو، ينتمون الى الحزب الاشتراكي الثوري مؤامرة للقضاء على الدوق الكبير سيرج، عم القيصر. وهذه المؤامرة وما لابسها من ظروف تؤلف موضوع «العادلون». وبالرغم من غرابة بعض مواقف المسرحية وبعدها عن المألوف، فانها لا تعدو ان تكون تاريخية.

لقد وجد جميع اشخاصها حقاً، وتصرفوا كما صورتهم في مسرحيتي. وانما حاولت ان اجعل امراً محتمل الوقوع، ما كان حقيقياً بالفعل. وقد احتفظت باسم كالاييف على حقيقته، لا مدافع من قصور الخيال، وانما احتراماً واعجاباً برجال ونساء لم يستطيعوا في اقسى مهامهم ان يشفوا من ضعف قلبهم الانساني. ولا ريب ان تقدماً كبيراً قد احرز منذ ذلك، واصبح الحقد الذي كانت هذه النفوس الفريدة ترزح تحته كأنما هو عذاب لا يحتمل، مذهباً مأنوساً ومريحاً. فأحرى بنا اذن، ان نستعيد ذكرى هذه الاطياف العظام، وتمردهم العادل، واحاثهم العسير، والجهود غير المحدودة التي بذلوها ليسجموا مع الجريمة — وهكذا ندرك اين من ذلك اخلاصنا. »



أشخاص المسرحية

دورا دولبوت
الدوقة الكبيرة
إيفان كالياييف
الملقب : بـ « يانك »
ستيبان فيدوروف
بوريس أننكوف
الملقب : بـ « بوريا »
ألكسي فوانوف
سكوراتوف
فوكا
الحارس

الفصل الأول

منزل الارهابيين صباحاً .

(يرفع الستار في السكون ، أننكوف ودورا جامدان على خشبة المسرح . يطرق الباب طرقاً خاصاً ، مرة واحدة . تحاول دورا الكلام فيوقفها أننكوف باشارة منه . يسمع الطرق مرتين ، دقة إثر دقة) .

انكوف : ها هو (يخرج . تظل دورا جامدة تنتظر . يعود أننكوف مع ستيبان ممسكا بكتفيه) : ها هو ! هوذا ستيبان .

دورا (تتجه نحو ستيبان وتمسك بيده) : ستيبان ! يا للسعادة !

ستيبان – صباح الخير يا دورا .

دورا (تتأمله) – سنوات ثلاث تنصرم .

ستيبان – نعم ، سنوات ثلاث ، كدت ألحق بكم ، يوم اوقفوني .

دورا – لقد كنا في انتظارك والزمن يمضي وقلبي يزداد انقباضاً حتى بتنا لا نجرؤ على ان نتبادل النظر .

اننكوف – اضطررنا الى تغيير المنزل مرة اخرى .

ستيبان – أعلم ذلك .

دورا – وهنالك يا ستيبان ؟

ستيبان – هنالك ؟

دورا – المعتقل !

ستيبان – من الممكن الافلات منه .

اننكوف – اجل ، لقد سررنا عندما علمنا انك استطعت بلوغ سويسرا .

ستيبان – ولكن سويسرا معتقل آخر يا بوريا (*)

اننكوف – ماذا تقول ؟ انهم احرار هناك على الاقل .

ستيبان – ان الحرية لمعتقل ، ما دام ثمة انسان واحد مستعبداً في الارض . كنت حراً ولم اكف عن التفكير بروسيا وعبيدها .

(يخيم الصمت)

اننكوف – اني سعيد يا ستيبان بان يوفدك الحزب الينا .

ستيبان – كان لا بد من ذلك ، كنت اختنق . ها قد حان اخيراً وقت العمل ، العمل ... (ينظر الى اننكوف) سنقتله ؟ أليس كذلك ؟

اننكوف – بكل تأكيد .

ستيبان – سنقتل هذا السفاح . انت الزعيم يا بوريا وسأطيعك .

اننكوف – انني غني عن وعدك . كلنا هنا اخوة .

ستيبان – لا بد من التنظيم ، لقد ادركت ذلك في المعتقل . ان الحزب الاشتراكي الثوري يحتاج الى تنظيم . سنقضي على الدوق الكبير وسنصرع الطغيان اذا كنا منظمين .

دورا (تمشي نحوه) – اجلس يا ستيبان ، لا بد انك تعب بعد هذه الرحلة الطويلة .

ستيبان – لست ابداً تعباً . (صمت . تذهب دورا لتجلس)

ستيبان – هل كل شيء جاهز يا بوريا ؟

اننكوف (مغيراً نبرة صوته) – منذ شهر ، واثنان من جماعتنا يراقبان تنقلات الدوق الكبير . وقد جمعت دورا الادوات اللازمة .

ستيبان – وهل اعد البيان ؟

(*) بوريا : لقب اننكوف .

اننكوف – اجل . ستعلم روسيا كلها ان الدوق الكبير سيرج قد اعدم بقنبلة فرقة الفدائيين التابعة للحزب الاشتراكي الثوري حتى نعجل بتحرير الشعب الروسي . وسيعلم البلاط الامبراطوري ايضاً باننا عزمنا على ممارسة الارهاب حتى تعاد الارض الى الشعب . اجل ، اجل ، كل شيء مهيأ يا ستيبان ! لقد ازفت الساعة .

ستيبان – ما يتوجب علي ان اعمل ؟

اننكوف – اما الآن فستحل محل شويتزر الذي كان يعمل مع دورا .

ستيبان – وهل قتل شويتزر ؟

اننكوف – اجل .

ستيبان – وكيف ؟

دورا – من جراء حادث (ينظر ستيبان الى دورا ، فتغض الطرف .

ستيبان – وبعد ذلك .

اننكوف – سنرى فيما بعد . عليك ان تستعد لأن تحل مكاننا في الوقت المناسب ، ولتبقي على الاتصال بيننا وبين اللجنة المركزية .

ستيبان – من هم رفاقنا ؟

اننكوف – لقد اجتمعت بفوانوف في سويسرا . وانا واثق منه رغم حداثة سنه . الا انك لا تعرف يانك .

ستيبان – يانك ؟

اننكوف – كالياييف (*) . ونحن ندعوه بالشاعر ايضاً .

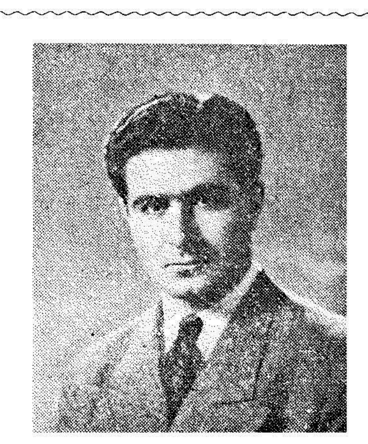
ستيبان – ليس هذا لقباً لارهابي .

اننكوف (ضاحكا) – اما يانك فيعتقد العكس ، فهو يرى ان الشعر ثوري .

ستيبان – لا ثوري الا القنابل (فترة صمت) اتعتقدين يا دورا بأني قادر على مساعدتك ؟

دورا – ولم لا ؟ حذار فقط من كسر الانبوب

(*) كالياييف : اسم يانك الاصلي .



إهداء إلى الفدائيين العرب في كل مكان "المعرب"

ستيبان – واذا كسر ؟
دورا – هكذا قضى شويتزر (برهة) لماذا تبتسم يا ستيبان ؟ .
ستيبان – انا ابتسم ؟
دورا – أجل .
ستيبان – هذا ما يتفق لي احياناً. (تمر برهة يبدو فيها ستيبان مفكراً) هل تكفي قذيفة واحدة لنسف هذا البيت يا دورا ؟
دورا – قنبلة واحدة لا تكفي ، غير انها تنزل به اضراراً .
ستيبان – واذا اردنا نسف موسكو باجمعها، فكم قنبلة نحتاج ؟
اننكوف – هل جننت ؟ وما الذي تقصده ؟
ستيبان – لا شيء .
(يقرع الباب مرة واحدة ، فيصيخون السمع منتظرين . ثم يقرع مرتين متتاليتين ، فيخرج اننكوف الى الدهليز ويعود بصحبة فوانوف *)
فوانوف – هذا انت يا ستيبان ؟
ستيبان – عم صباحاً يا فوانوف .
(يتصافحان . يذهب فوانوف الى دورا ويعانقها)
اننكوف – هل تم كل شيء على ما يرام يا الكسي ؟
فوانوف – أجل .
اننكوف – هل درست المسافة بين القصر والمسرح ؟
فوانوف – بل استطيع ان ارسمها في الحال. انظر (يرسم)منعطفات ، طرق ضيقة، انقاض... وستمر العربة تحت نوافذنا .
اننكوف – وماذا تعني بهذين الصليبين ؟
فوانوف – ميدان صغير تخب فيه الخيول ، والمسرح الذي تقف عنده العربة . انها في رأيي افضل الامكنة .
اننكوف – اعطنيها !
ستيبان – والمخبرون والعيون ؟
فوانوف – (متردداً) انهم كثيرون .
ستيبان – وهل يؤثرون فيك ؟
فوانوف – انهم لا يبعثون على الارتياح .
اننكوف – لا تقلق ،فما من احد يرتاح لهم.
فوانوف – انا لا أخشى شيئاً ، بل كل ما في الامر انني لم اعتد الكذب .
ستيبان – ان الجميع يكذبون ، وإنما نحن بحاجة الى ان نحترف الكذب !
فوانوف – ليس هذا بالامر اليسير . فعندما كنت طالباً، كان رفاقي يسخرون مني لأني لم أكن اعرف المداهنة والرياء . لقد كنت اقول ما اعتقد ، وقد انتهى بي الامر الى طردي من الجامعة .
ستيبان – ولم ؟
فوانوف – سألني الاستاذ في اثناء درس من دروس التاريخ كيف شيد بطرس الاكبر بتروغراد .
ستيبان – ونعم السؤال !
فوانوف – بل نعم الجواب ! فلقد اجبته ، إنما شيدها بالدم والسوط ! فكان ان طردوني .
ستيبان – وبعدها ؟..
فوانوف – تيقنت من انه لا يكفي ان نفضح الظلم، بل لا بد من ان نهب حياتنا لمحاربته. واليوم اراني جد سعيد .
ستيبان – ومع ذلك فأنت تكذب ؟
فوانوف – قد أكذب ، غير اني لن اكذب البتة يوم ألقي القنبلة .
(يقرع الباب: دقتان ثم دقة ، تهب دورا.)
اننكوف – انه يانك .
ستيبان – ليست هذه بالاشارة المصطلح عليها.
اننكوف – لقد قصد يانك الى الدعابة بتغييرها ، فله اشارته الخاصة .
(يهز ستيبان كتفيه . تسمع دورا وهي تتكلم في الدهليز ، ثم تدخل بصحبة كاليايف وهما متشابكا الذراعين . كاليايف يضحك .)
دورا – يانك ، هوذا ستيبان الذي جاء يخلف شويتزر .
كاليايف – اهلا وسهلا ايها الاخ .
ستيبان – شكراً .
(يجلس كاليايف ودورا قبالة الآخرين .)
اننكوف – هل انت متأكد يا يانك من العربة ؟
كاليايف – أجل ، لقد رأيتها مرتين متأنياً. فلتظهر بالافق وسأعرفها ولو كانت بين الف ! لقد سجلت جميع دقائقها بالتفصيل ، فأن مصباحها اليساري مثلا فيه صدع .
فوانوف – والعيون والمخبرون ؟
كاليايف – امواجهم لا تنفد ، غير اننا اصدقاء وهم يشترون مني سجاير . (يضحك .)
اننكوف – هل أكد « بافل » المعلومات ؟
كاليايف – سيذهب الدوق الكبير في هذا الاسبوع الى المسرح ، وسيستوثق بافل بعد برهة وجيزة من يوم خروجه بالذات ، وعندها ينقل الخبر اليقين الى البواب . (يلتفت نحو دورا ويضحك .) حظنا كبير يا دورا .
دورا – (تنظر اليه.) لقد بعد عهدك ببيع السلع وذرع الشوارع منادياً ، أليس كذلك ؟ ها قد اصبحت سيداً كبيراً . ما اجملك ! ألست متأسفاً على فروتك ؟
كاليايف – (يضحك .) بلى ، لقد كنت فخوراً بها حقاً. (يلتفت نحو ستيبان واننكوف) لقد أمضيت شهرين وأنا أراقب بائعي السلع ، واكثر من شهور وانا أتمرن وحيداً في غرفتي الصغيرة . ولم تخامر زملائي الشكوك في ، إذ كانوا يقولون : « إنه وافر الهمة بادي النشاط، بل ان في استطاعته ان يبيع حتى خيول القيصر » وكانوا بدورهم يحاولون محاكاتي .
دورا – وطبعاً كان هذا يضحكك .
كاليايف – إنك تعلمين جيداً ان ليس باستطاعتي الامتناع عن الضحك ، فهذه الحياة المتنكرة ، وهذا الطراز من العيش الجديد .. جميعها كانت تلهيني وتسليني .
دورا – أما انا فلا احب التنكر والتخفي (تشير الى ثوبها البالي) وهذه الخرق الانيقة ! كان بمقدور بوريا ان يجد لي غيرها ، هل انا ممثلة ؟ ان قلبي لبسيط .
كاليايف – (يضحك) ما اجملك في ثوبك هذا !
دورا – جميلة ! كم اكون سعيدة ، لو انني جميلة حقاً ، ولكن علينا ان لا نفكر في امر الجمال .
كاليايف – ولم لا ؟ ان لفي عينيك كآبة دائمة ، بدلاً من ان تكوني فرحة مرحة ؛ فالعزة والفخار يجب ان يملأا قلبك ، ما دام الجمال موجوداً، والفرح يملأ الدنيا !« في الامكنة الهادئة حيث كان قلبي يتمناك ... »
دورا- (مبتسمة) « تنسمت صيفاً ابديا... »
كاليايف – إي دورا ! لا زلت تذكرين هذه الابيات ؟ أتبتسمين ؟ ما أسعدني ...
ستيبان (يقاطعه) إننا نهدر وقتنا . أعتقد ان من الواجب ان نخبر البواب،أليس كذلك ؟
(ينظر اليه كاليايف عجباً .)
اننكوف-أرجو ان تنزلي يا دورا وتخبري البواب . اياك وان تنسي المكافأة وسيساعدك فوانوف على جمع المواد في الغرفة وتركيبها
(يخرج كل من جهة ويسير ستيبان نحو اننكوف بخطى ثابتة)
ستيبان – اريد ان اقذف انا القنبلة .
اننكوف – لا يا ستيبان ، فقد سبق لنا وعينا القاذفين .
ستيبان – ارجوك يا بوريا ، فأنت تعرف ما

(*) الكسي فوانوف .

يعني ذلك بالنسبة الي .

اننكوف – قلت لك لن تقذفها ! فالنظام هو النظام . وأنا ايضاً لن اقذفها وسأنتظر هنا . ان نظامنا لقاس يا ستيبان .

ستيبان – ومن سيقذف القنبلة الاولى ؟

كاليابيف – أنا . وسيقذف فوانوف الثانية

ستيبان – انت ؟

كاليابيف – أتعجب من ذلك ؟ فلست اذن واثقاً مني !

ستيبان – لا بد من ممارسة القذف اولاً .

كاليابيف – من ممارسة القذف ؟! انك لتعرف جيداً انه لا يمكن قذفها الا مرة واحدة، ثم ... لم يسبق لأحد ان قذفها مرتين قط في حياته .

ستيبان – لا بد من يد حازمة وصائبة .

كاليابيف – (مادّاً يده) انظر اليها. أتعتقد بأنها ستضطرب ؟ (يشيح ستيبان بوجهه) انها لن ترتعش ابداً . ماذا اقول ؟ أيكون الطاغية امامي واتردد ؟ كيف لك ان تشك بذلك ؟ حتى ولو ان يدي ارتعشت ، فلن اعدم وسيلة اقضي بها على الدوق الكبير بالتأكيد .

اننكوف – وما هي ؟

كاليابيف – ان ارمي بنفسي تحت سنابك الخيل .

(يهز ستيبان كتفيه ويذهب ليجلس بعيداً)

اننكوف – ليست هذه الاعمال ضرورية ، فان المنظمة بحاجة اليك، وعليك ان تصون نفسك.

كاليابيف – سأطيعك يا بوريا ! يا له من شرف عظيم ! أي شرف هذا الذي سأكون به خليقاً !

اننكوف – ستكون انت في الشارع يا ستيبان ، في حين يرصد يانك العربة والكسي يراقبها . عليك ان تمر بانتظام امام نوافذنا ، وسنصطلح على اشارة ما . واما دورا وانا فسنترقب هنا اللحظة التي فيها يعلو النداء، فان كان لنا بعض الحظ ، فسنقضي على الدوق الكبير .

كاليابيف – (بحماسة ظاهرة) : أجل سأقضي عليه ! يا لسعادتي ان نجحت في القضاء عليه ! ليس الدوق الكبير شيئاً مهما . لا بد من تحطيم الرؤوس العليا !

اننكوف – فلنبدأ بالدوق الكبير وبعد ذلك ...

كاليابيف – إي بوريا ، وان فشلنا ، فلا بد من محاكاة اليابانيين .

اننكوف – افصح ، ماذا تريد ان تقول ؟

كاليابيف – ان اليابانيين، ما كانوا يستسلمون اثناء الحروب ، بل كانوا ينتحرون .

اننكوف – لا ، لا تفكر بالانتحار .

كاليابيف – بم إذن ؟

اننكوف – بالارهاب من جديد

ستيبان – (يتكلم من صدر القاعة) يجب ان يحب الانسان نفسه كثيراً ، حتى يرضى بالانتحار ملاذاً ، اما الثوري ، الثوري الحقيقي فلا يستطيع ان يحب نفسه ابداً .

كاليابيف (ملتفتاً بحدة) : الثوري الحقيقي؟ أي سوء قمت به حتى تعاملني هذه المعاملة ؟

ستيبان – اني لا احب الذين ينخرطون في الثورة لأنهم سئموا حياتهم الرتيبة .

اننكوف – ستيبان !

ستيبان – (يقف ويتجه نحوهما) : أجل ، انني فظ شرس. غير انني لا ارضى ان يتخذ الحقد وسيلة للهو والعبث . لم نجتمع هنا لنتبادل الاعجاب والمديح ، وانما نحن هنا للنجاح في مهمتنا .

كاليابيف – (بتؤدة) : لم تعيرني وتهينني ؟ ومن ذا الذي حدثك عن سأمي ؟

ستيبان – لا ادري ، فأنت تغير الاشارات المتفق عليها ؛ وانت تحب تمثيل بائع السلع ؛ بل انت تنشد الشعر وتريد ان ترمي بنفسك تحت سنابك الخيل ؛ واخيراً تحاضر عن الانتحار ... (ينظر اليه .) انني لست واثقاً منك .

كاليابيف – (متمالكاً نفسه) : انك لا تعرفني يا اخي . فأنا احب الحياة ؛ وانا لست ضجراً ، وإنما دخلت الثورة لأنني احب الحياة .

ستيبان – اما انا فلا احب الحياة ، بل العدل الذي هو فوق الحياة

كاليابيف – (بجهد ظاهر) : كل يخدم العدل حسب استطاعته ، وعليك ان تقبل بان نكون متمايزين مختلفين ؛ علينا ان نتحاب ، ان كان ذلك في مقدورنا .

ستيبان – لسنا بقادرين على الحب

كاليابيف – (منفجراً) : وما الذي تفعله بيننا اذن ؟

ستيبان – انا بينكم لأقضي على رجل . انا لست هنا لأحبه واجله واشيد باختلافه عني .

كاليابيف – (بحدة بالغة) : لن تقضي عليه بمفردك ، ولا باسم لا شيء ، ستقضي عليه معنا وباسم الشعب الروسي ، وهذا هو تبريرك !

ستيبان – (دون ان يغير لهجته) : لست بحاجة الى هذا التبرير، فلقد بُررت في ليلة واحدة والى الابد منذ ثلاثة اعوام في المعتقل . ولن اتحمل ان ...

اننكوف – كفى ! هل انتم مجانين ؟ أتذكرون من نحن ؟ إنما نحن اخوة ، اندمجنا واتحدنا واتجهنا صفاً واحداً للقضاء على الطغاة وتحرير البلاد ! فان قتلنا ، قتلنا معاً ، وما من شيء يستطيع ان يفرق بيننا . (صمت . ينظر اليهم .) تعال يا ستيبان ولنصطلح على الاشارات... (يخرج ستيبان) (لكاليابيف) اما انت فلا بأس عليك . لقد تألم ستيبان كثيراً وسأحدثه ...

كاليابيف (شديد الشحوب) : لقد اهانني يا بوريا .

(تدخل دورا)

دورا – (تلحظ كاليابيف) : ماذا دهاكم؟

اننكوف – لا شيء

(يخرج اننكوف)

دورا – (لكاليابيف) : قل ماذا دهاك ؟

كاليابيف – ما ان تعارفنا حتى اصطدمنا ، فهو لا يحبني .

(تذهب دورا وتجلس صامتة ، برهة)

دورا – اراه لا يحب احداً . سيصبح سعيداً بلا شك عندما ننتهي من مهمتنا، فلا تحزن.

كاليابيف – بل انا حزين ، وانا احتاج الى محبتكم جميعاً . لقد تخليت عن كل شيء لأجل هذه المنظمة ، فكيف لي ان احتمل صدود اخوتي عني ؟ تمر بي فترات اعتقد خلالها انهم لا يفهمونني، أهي خطيئتي ؟ انا اعرف اني مرتبك ويعسر علي بلوغ هدفي ، اعرف ذلك ...

دورا – كلهم يحبونك ويفهمونك ، ولكن ستيبان يختلف عنهم.

كاليابيف – نعم ، اعرف ما الذي يفكر به ستيبان ، فقد كان شويتزر يقول ذلك من قبل : « لقد بالغ في الغرابة حتى بعد عن صفات الثوري . » بودي لو افهمهم انني لست غريباً ولا خارقاً للعادة ، انهم يجدونني مساً من جنون، ويرونني كثير العفوية، مع انني اعتقد مثلهم بالمبدأ، وعلى غرارهم اريد ان اضحي بنفسي . وانا ايضاً استطيع ان اكون ماهراً ، صموتاً ، مدارياً ، ناجماً ! ولكن الحياة ما انفكت تظهر لي آية في الروعة والجمال . احب السعادة ، احب الجمال ! من اجل هذا احقد على الطغيان ، كيف افسر لهم ذلك ؟ الثورة ؟ بكل تأكيد، ولكن الثورة من اجل الحياة ، من اجل اعطاء الحياة حظاً ونصيباً بل ملاذاً اخيراً ... اتفهمين ؟

دورا – (باندفاع) : أجل ... (بعد برهة من الصمت ، بصوت خافت) ومع ذلك ترانا سننثر الموت ذات اليمين وذات الشمال .

كاليابيف – من نحن ... ؟ آه ، تريدين ان تقولي ... كلا ليس الامر سواء آه ، لا ، لا ،

ليس الامر سواء. ثم اننا نقتل لنني عالماً لن يقتل فيه انسان بعد على الاطلاق ! نحن نرضى بان نكون مجرمين ، كيما تمتلىء الارض بالابرياء

دورا — وان لم يتحقق ذلك ؟

كاليابيف — دعك من هـذا الكلام ، فأنت تعلمين تماماً ان ذلك لا بد من تحققه ، وإلا فسيكون ستبيان على حق آنذاك ، وعندها لا بد من ان نبصق في وجه الجمال

دورا — انا اقدم منك عهداً في المنظمة ، واعلم ان ليس هناك من امر سهل ، غير ان لديك الايمان ونحن جميعاً بحاجة الى هذا الايمان

كاليابيف — الايمان ؟ لا ، لا ! لم يعرفه الا واحد على الأرض

دورا — بل لك من قوة روحك ما يدفعك الى اقصاء كل عسير لتبلغ غاياتك القصوى وإلا ، قل لي بربك ، لم طلبت القاء القنبلة الاولى ؟

كاليابيف — أمن الممكن ان نتكلم عن العمل الارهابي دون ان نسهم فيه بالفعل ؟

دورا — لا

كاليابيف — إذن ، لا بد من ان نكون في الطليعة .

دورا (تبدو عليها علائم التفكير) — اجل هناك الطليعة ، وهناك اللحظة الاخيرة ، وعلينا ان نبحث جميع هذه الامور . فهنا تكمن الشجاعة بل الحماس الملهب الذي نحتاج اليه … الذي تحتاج انت اليه .

كاليابيف — تأكدي تماماً يا دورا بأنني منذ عام وانا لا افكر بشيء غير هذا ، فانما عشت حتى الآن من اجل هذه اللحظة الاخيرة واعلم الآن ، انني ارغب في الهلاك هناك ، الى جانب الدوق الكبير . ان لي امنية وحيدة : ان أهرق دمي حتى آخر نقطة ، او احترق دفعة واحدة في لهيب الانفجار ، والا اخلف ورائي شيئاً على الاطلاق . اتفهمين الآن لم طلبت القذيفة ؟ ان الموت في سبيل الفكرة ، ان هو الا الطريقة الوحيـدة للسمو الى صعيد الفكرة ، ان هو الا تبريرنا الوحيد !

دورا — وانا كذلك ارغب في موت كهذا

كاليابيف — اجل ، انها لسعادة ترتجى . اي دورا ، انني اتقلب احياناً على فراشي القش ، فراش بائع السلع ، فتقض مضجعي فكرة : لقد جعلوا منا مجرمين . ولكنني افكر في الوقت نفسه بأنني سأموت ، فيهدأ قلبي آنذاك ، وعندها اضحك ، وانام ملء جفوني كالطفل الصغير .

دورا — اي يانك ، ونعم المصير ، القتل ثم الموت فوراً شيء جميل . ولكن هناك في رأيي سعادة

> **« إن الموت في سبيل الفكرة إن هو إلاّ الطريقة الوحيدة للسمو الى صعيد الفكرة ، إن هو إلاّ تبريرنا الوحيد . »**
>
> **البير كامو**

اعظم (ينظر كاليابيف اليها برهة فتغضي ببصرها) : المشنقة .

كاليابيف (بحماس ظاهر) — لقد فكرت في ذلك . ان الموت في اثناء الاغتيال يترك شيئاً غير ناجز . وعلى العكس من ذلك ، فان بين الاغتيال والمشنقة دهراً بكامله ، لعله خلود الانسان الاوحد .

دورا (بصوت ملح ، آخذة بيديه) — انها الفكرة التي لا بد وان تعينك في محنتك . فنحن ندفع اكثر مما نحن مدينون به .

كاليابيف — وما تقصدين من ذلك ؟

دورا — اننا مجبرون على القتل ، أليس كذلك ؟ وهكذا نرتضي ان نضحي بحيـاة ، وحيـاة واحدة فحسب .

كاليابيف — نعم .

دورا — وأما ان نعمد الى الاغتيال ونمشي بعدها الى المشنقة ، فهذا يعني اننا نهب حياتنـا مرتين : إنا ندفع اكثر مما نحن مدينون به .

كاليابيف — أجل ، هذا يعني بذل الحيـاة مرتين . شكراً لك يا دورا . وهكذا ليس لأحد ان يلومنا على امر ما . لقد وثقت الان مـن نفسي . (صمت .) ما بك يا دورا لا تنبسين بحرف ؟

دورا — بودي لو اساعدك ايضاً ، إلا انني …

كاليابيف — إلا انك ؟

دورا — لا ، انا مجنونة …

كاليابيف — أتحترسين مني ؟

دورا — لا يا حبيبي ، انما احترس من نفسي بالذات . فمنذ ان قضى شويتزر تعصف برأسي افكار على غاية من الغرابة . وبعـد فليست مهمتي انا ان ادلك على صعاب الامور .

كاليابيف — بل احب صعاب الامور . تكلمي ، ان كنت مكرماً لديك .

دورا (تنظر اليه .) — أعرفك ، اعرف انك شجاع ، وهذا ما يقلقني . انك لتضحك وتلتهب حماساً ؛ بل انك لتعدو نحو التضحيـة وانت مفعم بالحمية . ولكن ، لا بد من الخروج من هذا الحلم بعد ساعات قلائل ، ولا بد عندها من العمل . ولكن قد يكون من الخير ان نستبق الحديث عن هـذه الامور … لتجنب المفاجئات والخور …

كاليابيف — لن تخور قواي . افصحي ، افصحي عما تريدين .

دورا — التآمر ، الارهاب ، المشنقة ، الموت مرتين ، كلها امور في غاية السهولة . وان قلبك الكبير لينسع لها ولكن الصفوف الامامية … (تسكت فجأة وتنظر اليه ، وهي تبدو مترددة .) لا بد ان تراه في الصفوف الامامية …

كاليابيف — من ذا الذي سأرى ؟

دورا — الدوق الكبير .

كاليابيف — لحظة على الاكثر .

دورا — اجل ، يانك ، انهـا لحظة قصيرة تراه فيها ! اوه يانك ! لا بد ان تعرف ، ولا بد لي من تحذيرك ! ان الانسان هو الانسان … وقد يكون للدوق الكبير عينان عطوفان … ستراه يحك اذنه ، او يبتسم جذلاً طروبـاً . ومن يدري ؟ فقد يكون في وجهه آثار جرح من موسى حلاقة … واذا ما نظر اليك في تلك اللحظة ؟

كاليابيف — ليس هو الذي اقتل ، وانمـا اقتل الطغيان .

دورا — بكل تأكيد ، بكل تأكيد ، يجب يقضى على الطغيـان . سوف اهيء القذيفة ، واذ اختم الانبوب ، في احرج اللحظات ، عندمـا تتوتر الاعصاب ، لن يصعب على قلبي مع ذلك ان يستشعر سعادة غريبة . على اني لا اعرف الدوق الكبير . ولو انه كان في ذلك الوقت جالساً امامي ، لكان الامر أصعب من ذلك . اما انت فستراه يا يانك ، ستراه عن كثب …

كاليابيف — لن اراه …

دورا — وكيف ذلك ؟ وهل ستغمض عينيك ؟

كاليابيف — لا ، ولكن بعون الله ، سيمتلىء قلبي حقداً في اللحظة المناسبة ، فيعميني

(يقرع البـاب دقة واحدة فيتسمران .. يدخل فوانوف وستيبان . تسمع اصوات في الدهليز .. يدخل انتكوف .)

انتكوف — هوذا البواب . سيـذهب الدوق الكبير غـداً الى المسرح بالتأكيد . (ينظر اليهم جميعاً .) عليك ان تكوني مستعدة يا دورا .

دورا (بصوت اصم) — أجل . (تخرج متثاقلة)

كاليابيف (ينظر اليهـا وهي خارجة .. يلتفت نحو ستيبان وبصوت عذب) — سأقفي عليه ، بفرح !

— ستـتـار —

الفصل الثاني

مساء اليوم التالي . المكان نفسه

(يظهر انتكوف مطلاً من النافذة ودورا واقفة قرب الطاولة .)

انتكوف – انهم في اماكنهم. ها هو ستيبان يشعل لفافة التبغ .

دورا – ومتى سيمر الدوق الكبير ؟

انتكوف – بين لحظة واخرى . انصتي ، يخيل الي انها عربة الدوق ، كلا .

دورا – اجلس وكن صبوراً .

انتكوف – والقنابل ؟

دورا – قلت لك اجلس ، فلا يمكننا ان نفعل بعد الان شيئاً .

انتكوف – بلى ، ان نغبطهم .

دورا – إنما مكانك هنا بيننا ؛ انك الزعيم يا بوريا .

انتكوف – انني الزعيم ، الا ان يانك يفضلني كثيراً ، وهو الذي قد ...

دورا – بل نحن معرضون جميعاً للخطر ، سواء من يلقي القنبلة او لا يلقيها .

انتكوف – الخطر آخر الامر هو نفسه . غير ان يانك والكسي همـا الآن في خطوط النار . واعرف ان من واجبي ألا اكون معهما. ومع ذلك ، فاني اخشى احيانا ان ارتضي دوري بسهولة مبالغ فيها . وبعد فان من اليسير ان يجبر المرء على الا يقذف القنبلة .

دورا – وكيف ذلك ؟ ان المهم هو ان تقوم بواجبك وان تمضي فيه حتى النهاية .

انتكوف – ما اشد هدوءك !

دورا – ما انا بهادئة ، بل خائفة ؛ ها قد مضى علي ثلاث سنوات وانا اعمل معكم ، وسنتان وانا اعد القنابل . لقد أنفذت كل شيء ، واعتقد انني لم انس شيئاً .

انتكوف – بكل تأكيد يا دورا .

دورا – وها أنذا منذ ثلاث سنوات خائفة، هذا الضرب من الخوف الذي لا يكاد يتركك قبيل النوم ، حتى يلقاك عند الصباح طرياً نضيراً. فقد كان علي اذن ان اعتاده . لقد تعلمت ان اكون هادئة الاعصاب ، اذ يسيطر علي الخوف اشد السيطرة . ولا شيء في ذلك يدعو حقـاً للفخر .

انتكوف – بل كوني فخوراً حقاً . اما انا فلم اسيطر على شيء في نفسي اطلاقاً . اتعلمين يا دورا انني آسف على الايام الخوالي ، والحياة الخلابة والنساء ؟ اجـل كنت احب النساء ، والخمرة، وتلك الليالي التي لم يكن لها من آخر.

دورا – لقد حزرت ذلك يابوريـا ، ولذا تراني احبك هذا الحب ، فقلبك لم يمت ، وهو ان تاق الى المتعة فذلك خير من هذا الصمت الرهيب الذي يحل احياناً مكان الصراخ .

انتكوف – ماذا تعنين بذلك ؟ أأنت ... ؟ ان هذا غير ممكن ؟

دورا – اسمع (تنتصب دورا فجأة . صوت عربة، ثم يسود الصمت) كلا ، انه ليس هو. ان قلبي يخفق ! أترى الي كيف لم اتقن بعد شيئاً ؟

انتكوف (يطل من النافذة) – انتبهي الى ستيبان فهو يشير بيده ، انه هو بكل تأكيد .

(وبالفعل يسمع سير عربة من بعيد تقترب شيئاً فشيئاً ، تمر تحت النافذة وتبدأ بالابتعاد ، صمت طويل)

انتكوف – بعـد ثوان معدودات ... (ينصتان) ما اطولها ...

(تهم دورا بالكلام ، يسود صمت طويل . وتسمع اجراس من بعيد .)

انتكوف – هذا غير ممكن ، والا لكان يانك قد قذف قنبلته...لا بد ان تكون العربة قد وصلت الى المسرح.واين الكسي ؟ انظري ! انستيبان يعود القهقرى، ويركض نحو المسرح.

دورا (ترتمي عليه) – لقد اوقف يانك ، لقد اعتقل ، لا بد انهم اعتقلوه ، يجب ان نبادر الى عمل ما .

انتكوف – انتظري (ينصت .) كلا ، بل انتهى كل امل .

دورا – وكيف كان ذلك ؟ ماذا ؟ أيساق يانك الى السجن دون ان يفعل شيئاً ؟ لقد كان مستعداً لكل شيء ، فانا متأكدة من ذلك . كان تواقاً الى السجن ، الى المحاكمة ، ولكن بشرط ان يقضي على الدوق الكبير ! لا هكذا .. لا هكذا ...

انتكوف (ناظراً الى الخارج) – هوذا فوانوف ! اسرعي ! (تذهب دورا لتفتح،يدخل فوانوف وعلى وجهه علائم الانحلال .) تكلم يا الكسي ، أسرع ، أسرع في الكلام .

فوانوف – لست ادري شيئاً. كنت اترقب القنبلة الاولى ، رأيت العربة تسلك المنعطف فلم يحدث شيء. لقد فقدت وعي وحسبت انك ابدلت خططنا في آخر لحظـة ، فاحترت في امري ، وبعدها أنطلقت اركض اليكم ...

انتكوف – ويانك ، اين هو ؟

فوانوف – لم اره .

دورا – لا بد انه اعتقل .

انتكوف (ناظراً دوماً الى الخـارج) – ها هو !

(يتابع الممثلون طريقة تمثيلهم نفسها. يدخل كاليايف ووجهه ممتلىء بالدموع .)

كاليايف (بذهول) – اغفروا لي ايهـا الاخوة، سامحوني، لم استطع...

(تمشي دورا نحوه وتمسك بيده .)

دورا – لا بأس عليك .

انتكوف – ماذا حدث ؟

دورا (لكاليايف) – قلت لا بأس عليك ، ففي كثير من الاحيان ، ينهار كل شيء في آخر لحظة .

انتكوف – لكن هذا غير ممكن .

دورا – دعه يا بوريا، لست وحيداً في موقفك يا يانك ، فان شويتزر كذلك لم يستطع القاءها في المرة الاولى .

انتكوف – هل سيطر عليك الخوف يا يانك؟

كاليايف (منتفضاً) – ولكن مم اخاف،لا يحق لك ان تتهمني ...

(يقرع الباب وفق الاشارة المتفق عليها،يخرج فوانوف بايعاز من انتكوف ، يبدو كاليايف متهافتاً . صمت . يدخل ستيبان .)

انتكوف – ما وراءك يا ستيبان ؟

ستيبان – كان ثمة اطفال صغـار في عربة الدوق الكبير .

انتكوف – اطفال صغار ؟

ستيبان – أجل ، كان هناك ابن اخي الدوق الكبير وبنت اخيه .

انتكوف – ولكن حسب تعليمات اورلوف ، كنت اظن انه سيخرج وحيداً .

ستيبان – وكانت في العربة ايضاً زوجته ، الدوقة الكبيرة . وهذا يؤلف حشداً من الابرياء حسب رأي شاعرنا ... ولكن احمد الله ان احداً من المخبرين لم يرنا .

(يهمس انتكوف ببعض الكلمات في اذن ستيبان ؛ ينظر الجميع الى كاليايف الذي يرفع عينيه نحو ستيبان .)

كاليايف (شارداً) – ما كان لي ان اتنبأ... اطفال... اطفال صغار خصوصاً ... أرأيت الى اطفال صغار مرة في حياتك ، الى هذه النظرة ، نظرتهم الهادئة الرصينة احياناً ... انني لم استطع لحظة في حياتي ان اصمد لها ... مع انني كنت قبل برهة سعيداً حقاً في ظل زاوية الميدان الصغير، بل اقسم لك انه عندما ابتدأ مصباحا العربة يتألقان

من بعيد، احذ قلبي يخفق بالفرح... وكان يشتد خفقانه ما ازدادت سرعة العربة في جريها ... كان قلبي يضج في كياني كله ، وحسبت انني كنت اضحك . كان بودي ان اطفر، وكنت اردد « اجل، اجل » ... أفاهم انت ؟ (يحول نظره عن ستيبان،ويتحذ وضعه المسترخي من جديد.) وركضت نحوها ، نحو العربة ، وفي تلك اللحظة رأيتهما ، لم يكونا هما ليضحكان ، بل كانا منتصبين ينظران في الفضاء ، ما كان احزن هيأتهما . كانا غارقين في ثياب العيد وأيديهما مسبلة على فخذيهما وصدراهما مرتفعان عند بابي العربة !... ولم أر الدوقة الكبيرة ... لم أر سواهما . بل ليتهما نظرا الي ، إذن لكنت قذفت القنبلة... لا لشيء إلا لأطفىء هذه النظرة الحزينة ... غير انهما كانا ينظران دائماً الى امام... (يرفع نظره نحو الآخرين . صمت . بصوت اكثر انخفاضاً .) ولست ادري ماذا حدث بعد ذلك ، بل كل ما اعرفه ان ذراعي وهنت ، وساقي اضطربتا ، وما ان مضت ثانية حتى كان قد فات الاوان (يسود الصمت من جديد،ويطرق الى الارض .) وهل كان حلماً ما سمعته يا دورا ؟ لقد حسبت ان الاجراس كانت تقرع في تلك اللحظة .

دورا -- كلا ، يانك ، انك لم تحلم .

(تضع يدها على ذراعه.يرفع كاليايف رأسه فيراهم ينظرون جميعاً نحوه فيقف .)

كاليايف -- اخوتي ! انظروا الي جميعاً يا اخوتي ، حدقوا في ، حدق في يا بوريا ! ما انا بجبان ، ولم اتراجع قط عن عزمي . بل كل ما في الامر انني لم اتوقع وجودهما ، فقد جرت الامور بسرعة بالغة...امامي وجهاها ، وفي يدي هذا الثقل الرهيب ، وكان علي ان اقذفها به . هكذا رأساً ... آه ، كلا ! لم استطع ... (ينقل نظرته من الواحد الى الآخر .) فيما مضى،عندما كنت اقود العربة عندنا في اوكرانيا كنت اسابق الريح ، وما كنت اخشى شيئاً ... خشيتي من ان ادهس طفلاً . كنت دائماً اتصور الصدمة ، هذا الرأس الطري الصغير ، يضرب الطريق وهو يتدحرج في الفضاء ... (يسكت)

اعينوني يا اخوتي... (يسود الصمت) كان بودي ان انتحر ، ان اقضي على نفسي ، وما عدولي عن ذلك وعودتي اليكم إلا لأني كنت اعتقد بان لكم الحق في ان تحاسبوني وبانكم وحدكم قضاتي، وبانكم ستصارحونني اذا كنت مخطئاً او مصيباً . وبانكم لا يمكن ان تزلوا او تخطئوا ...ولكني اراكم صامتين لا تنبسون بكلمة ! (تقترب دورا منه حتى لتكاد تلامسه ، ينظر اليهم وبصوت كئيب) ها كم ما اقترح : اذا انتم قررتم القضاء على هذين الطفلين ، فسأنتظر خروج الناس من المسرح وسأقذف القنبلة بمفردي على العربة . ويقيني بانني لن اخطىء هدفي . أجمعوا على الأمر فقط ، وسأطيع ما تأمرني به المنظمة .

ستيبان -- اما المنظمة فقد امرتك بان تقتل الدوق الكبير .

كاليايف -- هذا صحيح، ولكنها لم تطلب الي ان افتك باطفال .

اننكوف -- ان يانك على صواب، فنحن لم نقدر ذلك .

ستيبان -- بل كان عليه ان يطيع الاوامر.

اننكوف -- انا المسؤول . كان يجب ان نستكشف كل شيء وألا يتاح لأحد ان يتردد فيما ينبغي عمله . اما الآن فيجب فقط ان نقرر : هل ندع هذه المناسبة تفوتنا نهائياً ، ام نأمر يانك بانتظار خروج الناس من المسرح . وانت يا ألكسي ، هل عندك ما تقوله ؟

فوانوف -- لست ادري ما اقول . احسب اني كنت اعمل كما عمل يانك . ولكنني لست واثقاً من نفسي . (بصوت اكثر انخفاضاً) : ان يدي ترتجفان .

اننكوف -- وانت يا دورا؟

دورا (بعنف) -- كنت تراجعت ايضاً مثل يانك، وهل بوسعي ان انصح الآخرين بالأمر الذي لا استطيعه ؟

ستيبان -- هل تعون ماذا ينطوي عليه قراركم من معان.هذا يعني ان نحبك خططنا من جديد طيلة شهرين آخرين ، ان تتهددنا اخطار رهيبة فنحاول تجنبها ، ان نهدر شهرين كاملين عبثاً ... وهذا يعني ايضاً ان ايكور قد اعتقل عبثاً وان ريكوف قد شنق من اجل لا شيء . يجب ان يعاد إذن كل شيء من جديد ، أليس كذلك ؟ يجب ان نسهر اسابيع طوالاً وان نفلت من مكائد لا تنتهي ، بل تلزمنا كذلك اسابيع طويلة من التوتر المستمر ، قبل ان تسنح الفرصة من جديد ... فهل انتم مجانين ؟

اننكوف -- انك تعرف جيداً ان الدوق الكبير سيعود الى المسرح بعد يومين اثنين .

ستيبان -- اجل ، طيلة يومين اثنين نكون مهددين بالاعتقال ، لقد قلت ذلك بنفسك .

كاليايف -- انا ذاهب .

دورا -- بل انتظر ! (لستيبان) : أفتستطيع انت يا ستيبان ان تطلق على طفل عن كثب وانت مفتح العينين ؟

ستيبان -- اجل ، استطيع ذلك ان امرتني به المنظمة .

دورا -- ولماذا تغمض عينيك ؟

ستيبان -- وهل اغمضتهما ، انا .

دورا -- أجل .

ستيبان -- اذن ، فقد يكون بودي ان اتصور المشهد بحذافيره ، وان اجيب وانا عليم بالاسباب والنتائج .

دورا -- افتح عينيك اذن ، وافهم تماماً ان المنظمة تفقد سلطانها وتأثيرها ان هي تسامحت لحظة واحدة في ان يسحق اطفال بقذائفنا .

ستيبان -- ان حنان قلبي لا يتسع لمثل هذه الترهات . انني اعلنها صريحة اننا يوم نعزم على ان ننسى الاطفال ، عندها نصبح سادة العالم ، وعندها ايضاً تفوز الثورة وتنتصر .

دورا -- وفي ذلك اليوم تزدري الانسانية جمعاء ثورتنا وتحتقرها .

ستيبان -- وأي حرج في ذلك ، ان نحن احببناها بكل جوارحنا لنفرضها على الانسانية جمعاء فنحررها من نفسها ومن عبوديتها .

دورا -- ولكن ما العمل اذا نبذت الانسانية جمعاء ثورتنا ، وما العمل اذا أبى الشعب باجمعه ، والذي من اجله نناضل ، ان يقتل اطفاله زوراً وبهتاناً ، فهل يجب ان نسحقه ايضاً ...

ستيبان -- اجل وبكل تأكيد ، يجب ان نعمل فيه هراواتنا اذا لزم الامر،الى ان يفهم..! وأنا ايضاً احب الشعب يا دورا !

دورا -- ليس للحب هذا الوجه .

ستيبان -- ومن قال هذا ؟

دورا -- انا ، دورا .

ستيبان -- انك امرأة، وان لك نظرة مسكينة الى الحب .

دورا (بحدة وانفعال) -- ولكن عندي فكرة صائبة عما هو العار ...

ستيبان -- لقد شعرت بالعار تجاه نفسي مرة واحدة في حياتي ، وذلك بسبب وزر الآخرين. وكان ذلك عندما جلدت . أجل فلقد جلدوني بالسوط ! السوط ، اتعرفون ما هو . كانت فيرا بجانبي آنذاك ، وقد انتحرت احتجاجاً على ذلك . اما انا فقد عشت. فاي شيء يشعرني الآن بالعار.

اننكوف -- اننا هنا جميعاً نحبك ونحترمك يا ستيبان . ولكن أياً كانت حججك فلا استطيع ان ادعك تصرح بان كل شيء مباح.لقد قضى مئات من اخواننا كي يعلم الناس ان ليس كل شيء مباحاً.

ستيبان -- لا شيء مما يمكن ان يخدم قضيتنا ممنوع .

انتكوف (غاضباً) – هل تسمح لأحد اعضاء حركتنا ان يتقلد منصباً من مناصب الشرطة فيلعب على الحبلين كما كان يقترح أيفنو ؟ هل تقبل بتمثيل ذلك الدور .

ستيبان – بلا شك ، اذا اقتضى الامر .

انتكوف (منتصباً) – اسمع يا ستيبان ، سننسى ما قلته منذ هنيهة ، اعتباراً لما قمت به من اعمال لنا وفي صفوفنا . ولكن تذكر جيداً ما سأقوله الآن : ان القضية هي معرفة ما اذا كنا سنقذف قنابلنا بعد برهة على هذين الطفلين !

ستيبان – ايضاً وايضاً اطفال ! ليس في افواهكم غير هذه الكلمة ! اتراكم لا تفقهون شيئاً ؟ ألأن يانك لم يقتل هذين الطفلين ، سيموت آلاف من الاطفال الروس جوعاً طيلة سنوات اخرى . هل رأيتم اطفالاً يموتون جوعاً ؟ اما انا فقد رأيت . ولعمري ان الموت بالقنابل لأمر ساحر اذا ما قيس بذلك الموت . ولكن يانك لم ير اطفالاً يموتون جوعا . لم ير سوى هذين الكلبين المدربين ، كلبي الدوق الكبير . ألستم بشراً ، أتعيشون فقط في اللحظة الآنية . اختاروا اذن الاحسان واشفوا فقط الداء يوماً فيوماً ، لا الثورة التي تبغي شفاء علل الحاضر وآفات المستقبل مرة واحدة .

دورا – لقد قبل يانك بان يقضي على الدوق الكبير لأن موته يستطيع ان يعجل الزمن الذي لن يموت الاطفال الروس فيه جوعاً بعد .. ان هذا لعمري ليس بالعمل اليسير . ولكن القضاء على ابن اخي الدوق الكبير لن يمنع طفلاً ما من ان يموت جوعاً . يجب ان تفهم يا ستيبان ان هناك نظاماً وحداً حتى في الهدم والتخريب .

ستيبان (بعنف) – لا حد ولا نظام ! الحقيقة هي انكم لا تؤمنون بالثورة (ينهض الجميع ما عدا يانك) . انكم لا تؤمنون بها ابدا . ولو كنتم تؤمنون بها ايماناً كلياً كاملا ، ولو كنتم واثقين باننا ان سنبلغ نشيد بتضحياتنا وانتصاراتنا ، روسيا محررة من الطغيان وارضاً للحرية ستعم العالم اجمع ، لما اقمتم وزنا لموت طفلين صغيرين . ولو كنتم لا تشكون لحظة واحدة ، في ان الانسان المحرر من اسياده وخرافاته سيرفع نحو السماء وجه الآلهة الحقيقيين لكنتم اقررتم جميع الحقوق ، جميعا ، أتسمعونني . واذا ما اوقفكم دون ذلك موت كهذا فذلك يعني انكم لستم واثقين من حقكم . هذا يعني انكم لا تؤمنون بالثورة . (صمت . كالياييف ينهض .)

كالياييف – انني خجل من نفسي يا ستيبان ، ومع ذلك فلن ادعك تستمر . لقد قبلت بالقتل لأقلب الطغيان . غير اني استشف وراء ما تقول طغيانا آخر لئن قام يوما ، فسيجعل مني مجرما ، فيا انا احاول ان اكون انسان عدل .

ستيبان – وأي حرج في ألا تكون انسان عدل اذا تحققت العدالة حتى على ايدي المجرمين . اننا ، انت وانا ، لا شيء .

كالياييف – بل نحن شيء ما ، وانك لتعرف ذلك تماما ، ما دمت تتكلم اليوم باسم كبريائك .

ستيبان – ان كبريائي لا تعني احداً سواي ولكن كبرياء البشر وتمردهم والظلم الذي يعيشون فيه ، ان هذه اشياء تعنينا جميعا .

كالياييف – ليس بالعدل وحده يحيا البشر .

ستيبان – فبأي شيء يحيا البشر اذن ، إذ يسلبون قوتهم ، إن لم يكن بالعدل .

كالياييف – يعيشون بالعدل والبراءة .

ستيبان – اما البراءة ، فلقد عرفتها على ما اعتقد . ولكني اخترت ان اتجاهلها وان اجعل الوف البشر يتجاهلونها ، كي تأخذ يوما من الايام معنى أجل .

كالياييف – علينا ان نثق تماما بان ذلك اليوم آت لا ريب فيه ، لا لشيء الا لننكر كل ما يجعل انسانا يرتضي بان يعيش .

ستيبان – انا من ذلك على يقين .

كالياييف – بل لا يمكنك ان تتيقن من ذلك . فلكي نعرف من منا نحن الاثنين على حق لا بد من تضحية ثلاثة اجيال بكاملها ، ومن عدة حروب وثورات رهيبة . وحين تجف هذه الامطار من الدماء ، نكون نحن الاثنين قد امتزجنا منذ زمن بعيد بالتراب .

ستيبان – وسيأتي آخرون آنذاك فأحييهم كأخوتي سواء بسواء .

كالياييف (صارخا) – آخرون ... أجل! اما انا فاحب الذين يعيشون على الارض نفسها التي اعيش عليها الآن ، وهم الذين سأحييهم . انني من اجلهم اناضل ، وفي سبيلهم ارتضيت بان اموت . ولن اصفع وجه اخوتي هؤلاء في سبيل مدينة بعيدة المنال . لن اضيف الى ظلم قائم يسعى ، ظلما اخر ، من اجل عداله لا تزال في طي العدم .

(بصوت اكثر انخفاضا ولكنه حازم) : إي اخوتي ! اريد ان اصارحكم ، وان اقول لكم على الاقل هذا الشيء الذي يستطيع ابسط فلاحينا ان يقوله : ان قتل الاطفال يناقض الشرف ، واذا ما انسلخت الثورة يوما عن الشرف ، وأنا على قيد الحياة ، فسأتنكر لها . واذا قررتم قتل الاطفال ، فسأذهب الى المسرح ، ساعة الخروج ، ولكني سارمي بنفسي تحت سنابك الخيل .

ستيبان – ان الشرف ترف يختص به من يملكون العربات الفاخرة ...

كالياييف – كلا ، بل هو اخر فلس في جعبة الفقير . وانك لتعرف ذلك تماما ، وتعرف بان للثورة شرفا ايضا ، هو الذي من اجله نحيا ، ومن اجله نموت . وهو الذي روضك يا ستيبان في يوم من الايام تحت لذعات السياط ، وهو الذي يحملك على الكلام اليوم ايضا .

ستيبان (صائحا) – صه ! اني أمنعك من الكلام في هذا الموضوع .

كالياييف (مهتاجا) – ولماذا أسكت . لقد تركتك تعلن بانني لا اؤمن بالثورة ، وهذا يعادل قولك لي بانني كنت قادراً على قتل الدوق عبثا ، وانني كنت مجرما . لقد تركتك تقول ذلك ولم احاول ضربك .

انتكوف – كفاك ، يانك !

ستيبان – عبثا يكون القتل احيانا ، اذا لم تمعن في التقتيل امعانا !

انتكوف – ليس احد هنا يشاركك الرأي يا ستيبان ، فلقد اتخذنا القرار الفصل .

ستيبان – اني لأخضع لقراركم اذن ، ولكني اردد بان الارهاب لا يتفق والمرهفين . انما نحن قتلة ، ولقد اخترنا ان نكون كذلك

كالياييف (خارجا عن طوره) – كلا ، وانما اخترت الموت كي لا ينتصر الاجرام . لقد اخترتُ بان اكون بريئا!

انتكوف – كفاك يا ستبان ! كفاك يانك! لقد قررت المنظمة بان لا جدوى من قتل هذين الطفلين . وعلينا ان نحبك المؤامرة من جديد وينبغي ان نكون مستعدين لاعادة ما حاولناه بعد مضي يومين اثنين .

ستيبان – واذا صحبه الطفلان من جديد .

كالياييف – عندها سنترقب فرصة اخرى .

ستيبان – واذا رافقته الدوقة الكبيرة .

كالياييف – لن اوفرها ابداً .

انتكوف – اسمعوا !

(يسمع صوت العربة . يندفع كالياييف دون مقاومة نحو النافذة ، بينما الجميع ينتظرون . تقترب العربة فتمر تحت النوافذ ثم تغيب) .

فوانوف (ناظراً الى دورا التي تتجه نحوه) – وهكذا نعيد الحكاية من جديد ، يا دورا ...

ستيبان (بازدراء) – أجل يا الكسي ، يجب اعادة الحكاية من جديد ، ولكن لا بد من ان نفعل شيئا في سبيل الشرف !

ستار

– التتمة على الصفحة ٨٩ –

قصة قلب

انا الماضي

ابراهيم العريض

(١) بين عهدين

في الريف ... حيث تفسّر الغدران احلام الجبالِ
فتحسّ بين خريرها روحَ الطبيعة في ابتهال
وكأنما الليل الطويل بموكب الزُّهُر العوالي
يروي الى الآفاق قصةَ عالم وشكَ اكتمال
ويكاد يهمسُ في الدجنّة كل نجم بالتتالي :
« نحن الحقيقة ، ما لجلوتنا حدودٌ ، كالخيال ! »
ويقطّر القمريّ عند الفجر من خمر الليالي
حتى اذا شرعت بحاجبها ، تُطلّ من التلال
ألفيتَ كل فراشة عذراء تجنحُ للوصال
وكأنما وزنَ الصّداق لها بحبات اللآلي
فاذا الطبيعة حفلة للعرس تفتن من رآها ...

★

كانت تعيش لسمعها عذراءُ ، تنتظر الاناره
في يقظة كالحلم من عهد طوته على الطهارهْ
فقدت أباها في الطفولة سيداً يحمي ذماره
مكنونةً في دلها القروي عن صقل الحضاره
كالدرّ غلّفه القذى عن إلفه وسط المحاره
كم جاء بالتحف الثمينة عمُّها من كل قاره
اذ كان يرحل — لا كوالدها المزارع — في التجاره
فتقبّلتها بالسرور وقبّلته للبشاره
ان المضيرة بين كفيها تَرجرجُ في الغضاره
ما ابرك العيدَ الذي في قربه تقضي نهاره
والعم يرعى « يتمها » عهداً يبرُّ به اباها

★

عذراء... ان ضاقت بها الدنيا ، على سعة الرحابِ
من نُزلها الريفيّ تُحدق في الفضاء على اكتئاب
فهناك يفتن ناظريها البحرُ من ثَبج العباب
في زرقة الافق البعيد كأنه لمح السراب
لا السيب يردعها ولا شوك القتاد ولا الروابي
عن ان تحوّل كل فجر خطوها نحو الهضابَ
حتى اذا ما ذرَّ قرن الشمس من خلف الضباب
تلعت — كخط اسود بقبابها تحت السحاب —
تلك المدائن ، حيث يعمل عمها نضوَ اغتراب
فتودّ لو لحقت به ما بين هاتيك القباب
فتحلّ من دنيا الحضارة — كالغزالة — في سماها

★

خرجت تَخايلُ ذات يوم بين احضان الطبيعهْ
في ملفع بنكاته كالليل اذ يوري شموعه
والعالم الانسيّ يشهد في مفاتنها ربيعه
والطير ينشدها — كما تهوي — اغانيَه الوديعه
والعشبُ يثني ركبتيه حيالها ، ليُري خضوعه
والزهر يوميء نحوها فتميل شاكرة صنيعه
والماء يلقط كلما ظهرت له ، صوراً سريعه
مستجلياً في كل وضع فتنةً تحني ضلوعه
فتطيل من تسريح مُرْسَلِ شعرها فوق الشريعه
لكأنما هي تجتلي في العين مرآةً بديعه
فاذا بها في الماء تُبصِرُ وجه انسانٍ سواها

★

ما راعها إلا فتىً يبدو غريباً في المكانِ
يرنو اليها في مباذلها بخبثٍ ... وافتتان
هي وحدَها ، هو وحدَه ، والطير.. يصدحُ بالأغاني
فتحسُ وخزاً ملءَ نهديها ، وتجهلُ ما تعاني
ماذا يريدُ ؟ وكيف جاءَ ؟ ولم تمرَّ سوى ثوان ..
وتراهُ يهتف باسمها فاذا به عذب اللسان
فكأن جمراً باتَ يلذعُ وجنتيها — وهْوَ دانٍ
قالت له « خلِّ الطريقَ ، فإن شأنك غيرُ شاني
قد عُذتُ بالرحمن منك ... » وأوغلتْ وسْطَ الجنان
وإذا به كالظلّ يتبعها و .... أوما بالبنان :
« لا تعجلي ! انّي ابن عمّك ، قد نكرتِني اشتباها ! »

★

وتضمُّها في الليل حجْلتُها على حزنٍ وعبرهْ

فلقد تغلغلها النعي وليتها لم تسقَ مره
لمَ مات عنها عمُّها من قبلِ ان تختالَ حره ؟
يا ليتها حضرته عند وفاته ، فتطيل بره
وتضم ذاك الصدر – آه – وبالدموع تبلُّ نحره
وتهيجها الذكرى إلى هذا الصباح وما أجره
يا للفضيحة حين تذكرُ أين لاقته ... مسره
لم تلقه من قبلُ ، حتى في ربيع العمر مره
وهو الذي كانت تحدث نفسها بهواه غره
أفبعدَ مخبرها تراه يحبها ... والحبُّ نظره ؛
لمَ مات عنها عمُّها ، وهو الوليُّ على صباها ؟

★

وتصف بين يديه ، في البستان – من رطبٍ جنيه
خرفوه تحت لحاظها لتقطاً ... كأنفاس الرميه
فتراه مبتسماً يغمغم وهو ينعم في الهديه :
« صُبّحتِ بالخيرات ... آنستي ! » فتطرق كالحييه
« ... هل عدتِ راهبةً ، توشحت السواد، من التقيه؟
لبس الحداد يزيد حسنك فتنة بين البريه ...! »
فتشيح عنه بوجهها وتغض نظرتها البريه
وتنمُّ عبرتها – وقد رقّت – على روحٍ زكيه
« قل لي–فديتك–.عمي المرحوم..هل أوصاك..فيّه؟ »
فيسرُّ ... أوصاني بحبك أنتِ .. أنت هي الوصيه ..
وسترحلين غداً معي تؤتي جوانحنا مناها ! »

★

حلّت مع الغالي بمنزله المقرمد بالمدينه
حيث القصور كأنها تنعى على الباني ديونه
حيث الصراعُ على الحياة ، ولا حياة بلا سكينه
حيث الفناء على حقيقته ، وان واروه زينه
فترى الغنى والفقر كالفيء الذي يمتدُّ دونه
حيث الكهانة للقوى وربها للحرب عينه
حيث الفنون كأنما توحي لصاحبها جنونه
فترى الجمال مع الفضيحة والكمال مع الضغينه
وترى الحضارة « نشوة » حتى « يقيء » المرء دينه
وترى الثقافة كلها في ان يحدثها مجونه
فتعلقت مثل الغريق بكل ما يطفو .. شذاها

★

وأبت عليه ان يطل على طلاسمها المشدّ
ان الحياء خدينها كيف السبيلُ لما يود
في البيت ... ليس لما تقومُ به من البدوات حد
لم يحتفلْ بوليمةٍ إلا وصادف ما يجد
هل كان يبصرُ – لو دنوا منها – سوى كم يود
فيغيبُ تحت خمارها شعرٌ غزير ... لو يمد
ويبينُ خلف شفوفه عينٌ – إذا التفتت – وخد
فحجابها كسفورها ما من كلا الحالين بد
شتان بين حياتها وحياته – لعبٌ وجد
حتى تململ من تحفظها ، وبانَ عليه صد
ومضى لطيته ، ينفس عنه ... لو أغنى غناها

★

قالت لدايتها «.. ابنُ عمي ، كيف اشرح ما اعتراه !
إني لأهواهُ ، ويأبى الله ان اهوى سواه
يا أمّ ! لا ادري أأقدر ان اسايره خطاه
شتان بين نفوسنا لولا يكونُ ابي اباه
ابداً يماطل بالزواج ولا يحقق لي هناه
فأودُّ ان اسعى اليه بكل ما فيه رضاه
لكن رضاه – ألا ترينَ – يثير في حلقي شجاه
هو أنسهُ في الليلِ ، حين يلمُّ بالغافي كراه
فيظلّ منصرفاً إلى متع الغرور ... فلا أراه
وانا التي لا يستمرُّ بيَ النهار على قلاه
كيف السبيل الى تملكه ، ليرعاني انتباها ؟ »

★

ويجيئها في ليلةٍ ثملاً ، فيخفل بالسجافِ
وكأنما في لحظه ما غار من اثر السلاف
فترنُّ في اعطافها اجراسُ وجدٍ غير خاف
ورأت – لروعتها – يداً تمتدّ من فوق اللحاف
أتخونه في نفسها ؟ ما كنزها غير العفاف !
فتحسُّ إحساس الفريسة وهي تجهد في انحراف
وتصيح « إنك قد جننتَ !. أما تخافُ ؟. ألا ينافي ؟
دعني العشيّة ... ريثما أفضي – غداً – لك باعتراف »
وتصدّه ... فيظل يطرق كل بابٍ ... للتلافي
حتى اذا ضاقت به الانفاس ... آذن بانصراف

ويعود بعد ثلاثة فكأنه القدر الموافي
وتنفس الصعداء . كالمحموم من بعد اعتكاف

قال « انعمي عيناً » ، فقد بُلّغت سؤلك بالتجافي
اني عقدت عليك ... يا غيرى ... بمن يرعى خرافي
قومي لزوجك فهو منتظر » .. فتشهق للزفاف ..
ايسوقها سوقاً الى الرجل الذي هو من قراها ؟

★

(٢) افاقة من حلم

عادت الى ايامها في الريف دامعة كئيبه
فكأنها لم تلبس الاحلام في حلل قشيبه
لا النزل اصبح نزلها – بعد الرجوع – ولا الزريبه
وتحس بالريحان – ملء الروض – احساس الغريبه
فكأنها لم تذك صبوتها على وهج الشبيبه
وكأن روحاً من صباها ضاع منها في المصيبه
لا الشمس تبعثها على امل ، ولا الدنيا حبيبه
لكن اهل الريف ما برحوا يفون لها بطيبه
مولاتهم في حرمة الذكرى ، كمولاهم ، مهيبه
ألأن عهدهمو بها دوماً على تلك العذوبه
من كان يسمع في الدجنة شجوها ... الا « اخاها » :

★

(همٌّ بصدري – ليت شعري – هل يقرُّ له قرار)
(لكأنني جُرعت – يا رباه – بالهمّ العقار)
(ما زال يقدح في الحشا ناراً تأجج فوق نار)
(حتى لو ان اضالعي انفرجت لطار له شرار)
(يا همّ ! مذ جاورت قلبي ما لليلته نهار)
(روّحت من زهري الشذى وخنقت في روضي الهزار)
(حتى مَ بالخفقان يؤذن ان عهدك غير سار)
(وتريد الا ان يحين ، اهكذا حق الجوار ؟)
(زل – ويك – غير مودّع ان كان لي فيك اختيار)
(او لا ، فزرْ غبّاً ، وحسبي شقوة بك ان ازار)
ويجيئها الزوج الكريم ولا يمس لها شفاها

★

في الصيف اقبل للتنزه في مزارعها ، مساءَ
حشدٌ توزعت المدينة ما يقوتهمو غلاء
لا يعملون لخيرهم او غيرهم الا رياء
يحدو بهم ربُّ الحدائق في الحدائق حيث شاء
ضاقت به الانفاس مثلهمو ، وأمّهمو الفضاء
فاذا الوجود كأنه كأس تدور بهم هناء
والريح ما اندى ! تحس ولا تحس بها ، رخاء
قد زان محفلهم مغنٍ ظلّ يطربهم غناء
حتى اذا وضعوا الكؤوس وما تشع به صفاء
واستقبلوا من لهوهم « جداً » يزيدهمو ارتخاء
اخذت نفوسهمو تملُّ حديثها ... الا شفاها

دار الحديثُ على الجمال و « رمزه » في الخافقين
فأجاب واحد فنه عن خبرة بالنهضتين :
« ما الحسنُ في « حواء » موقوفاً على ذين .. وذين ..
انظر الى تلك البليلة وهي تنسلُ باليدين
والماءُ يجري فوق كاهلها المقوّس كاللجين
حسناً كهذا في زوايا الارض لم ترَ قط عيني
لا في الرواء ، ولا الخطوط ، ولا اعتدال المنكبين
وانا الذي حيرتُ سني راحلاً في المشرقين »
فيُطيل – حيث أشار – صاحبنا التأمل ، كرتين
فيرى لأول مرةٍ حسن الحياة بناظرين
واذا بها ابنة عمه بالسدر تنسلُ ، لا سواها

★

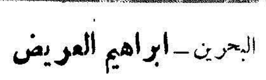
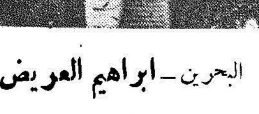
ما كاد يبسط طالعُ القمرين فوق الارض نورَهْ
حتى رأته مقبلاً ، وكأنّ في يدها مصيره
قال « اسمعي ! فاتحتُ زوجك امس فيك .. لأستخيره ..
فرأيته متردداً والأمر أمرك بالضروره
وعليك حقٌّ للجمال ، وكنت منهُ على بصيره
أرجوك لا تذريه مثل الورد يذوي في الهجيره
إني ابنُ عمك ، لم تخنك عليَّ في الماضي سريره
عودي اليَّ نعش معاً من أفقنا في خير جيره
قصرٌ اكون انا الخفير له ، وانت به الاميره
فاذا حلا لك ، فاطلبي منه الطلاق ، فلن يضيره
ونعود كالنجمين ، نسطع للحضارة في دجاها ! »

★

فتبسّمت من قوله واستعرضت ذكرى مريره
قالت « لعلك يا ابن عمٍّ نسيت اني ذات غيره
كم قال عمي : لا تحبي غير زوجك ، يا صغيره !
لا شأن لي في غيره ما دام لي في الحب خيره
إني رضيت به ، وإن تمضِ الشئون بنا حقيره
أما هواك ، فقد كفرت به كتاباً .. غير سوره[1]
والله ، لو امسى اليك البحرُ تخرط لي شذوره
وجعلت لي – في وسعه – ملكاً ، تبوّئني سريره
لرفضتُ بالحسنى عروضك لي ، وقد قبّحت سيره
وأبيتُ ان ألقاك – إلا مثل ما ألقاك – ضوره !

***

بالأمس في هذا المكان جرحتَ من قلبي شعوره
ولقد أعيدُ عليك ما فوّهتنيه – بلا جريره :
خلّ الطريق ، فإنَ شأنك
غيرُ شاني .. في فضاها ! »

البحرين – **ابراهيم العريض**

(١) سورة البراءة .



بين الاصيل والمساء كانت الشمس ترف على النيل مترفقة بمن اقبلوا على ضفته الوارفة ملتمسين جمال العشية وهدوء النهار، وكان النسيم يداعب النخيل فتهتز اعاليه كالمراوح وابدانه السمر المقدودة تلوح من بعيد كجنّيات ليلية خرجت من كهوف الغيب ، والماء يدور حول نفسه حيناً وينطلق حيناً منسرحاً صامتاً ، كأنه صفحات لماعة مواجة لا تلبث ان تعلو وجه الماء حتى تضيع فيه ، فاذا انسحب النسيم الى الحواشي والضفاف نسج الماء حبيكة كأنها سلاسل من فضة مسرّدة تشبه دروع الفرسان في القرون الوسطى .

وحين هبط المساء بالعتمة على المتنزه المترامي الاطراف لم يكن موحشاً ، والأماسي ذات وحشة وكآبة ، فقد استطاع الانسان الجبار في عصرنا ان يحوّل الليل الى نهار ، فكان هذا المتنزه يتلألأ بالأنوار المستديرة والمستطيلة ، فيرتمي شعاعها على وجه النيل مترقرقاً لو رآه الشعراء القدامى لعزفوا عن وصف الماء عند الأصيل والمساء باسلاك الذهب ، ولوصفوا لنا تهاويل من اشكاله تحت الكهرباء .

لم يكن في هذا المتنزه الجميل إلا القليل ممن يحبونه ويفضلونه على غيره ، وقد جاء احدهم مطرقاً يبدو عليه الاضطراب ، اقبل على الضفة تحت المظلة وهو شارد الطرف واجم ، يكلم نفسه بكلام خافت ويشير بيده ويحرك مرة حاجبيه ، ومرة يقلب شفتيه مهمهماً . سار في بطء وتثاقل حتى بلغ مكانه الذي يحتله كلما جاءه فجلس على كرسيه وهو ينظر الى الضفة الثانية ، ولم يطل صمته وتفكيره ، فقد قطعهما عليه مجيء امرأة في ريق الصبا وضاحة المحيا ، عليها مسحة من ملاحة تجتذب الناظر اليها لولا ما يبدو عليها من الجد والحشمة . وكانت تتهادى بعدها امرأة تودع الكهولة ممتلئة الجسم عنيفة الملامح ، تتثاقل بمشيتها فلما رآها الرجل الذي سبقها نهض يعدّ لهما المكان ، ويصلح وضع الغطاء على المنضدة ، وكان حريصاً على ان تجلس الصبية في جنبه .

جلس الثلاثة لا ينبسون ولا يهمسون ، ثم تبادلوا بعد قليل كلاماً فاتراً متقطعاً ، دون ان ينظر احدهم الى الآخر ، فما وقعت عين على عين ، ولم يأخذوا بحديث متتابع ، بل كانوا يتكلمون همساً اذا اقترب منهم احد ، او لمحوا جاراً او صديقاً ، وكأنهم جاؤوا ليستأنسوا بالنيل حين فقدوا في انفسهم المؤانسة ، وضاقوا بغيرهم من الاهل والاصحاب .

كانوا مثل شخوص ثلاثة من لحم ودم ، تقاربوا حتى كادوا يتلاصقون ، ولكنهم في هذا التقارب الذي ليس فيه تجاوب كانوا متنائين ، متنائين متقاطعين ، حتى كأنهم لم يتعارفوا . كان كل منهم يعيش في دخيلته وسريرته عيشة لا تشبه عيشة الآخر ، إذ كان في نفسه متوحداً منفرداً ، وكأنما ألقي في عالم صاخب متشعب . ما أقدر الانسان على إخفاء طويته ! أضعف من يخفيها ذوو السذاجة ومن يبدو على طبيعته دون تكلف ، ولم يكن هؤلاء ممن عرفوا بالسذاجة او البعد عن التصنع ، بل كانوا ثلاثة اقانيم للمكر الازرق ، اثنان منهما صديقان في الظاهر يعيشان في إهابي عدوين لدودين ، والثالث كان السبب في هذه العداوة .

اخذت انوار المدينة تتلألأ حين اوشك الليل ان يدخلها ، فانعكست المصابيح وضاءة على الماء ، وقد تراءت أعمدتها كأنها مرايا مصقولة كبيرة ، اما الشخوص الثلاثة الصامتون الذين جمعتهم الحياة فكانت مصابيح الارض تعجز عن اضاءة الليالي المستديمة في صدورهم الموحشة .

لولا حدود القانون لبطش الفتى بالكهلة الحانقة الضجرة ، فاستل منها الصبية وضمها اليه ضمة ، كانت فيها سعادتها ونقمة الماضي الغاشم الذي عاش فيه معها ، ولولا العقوق والجحود لمكرت الصبية بالفتى والمرأة معاً فقد شقيت بهما وشقيا من اجلها وكانت حياتها لولاهما سعيدة صافية .

اما المرأة الخطيرة التي امتلأت نكداً وندماً ، فلو تمكنت من ذلك لضمت الفتاة اليها ضمة الظفر والخلاص ثم مدت رجلها على عنق الرجل فداستها وضغطتها حتى تفيض روحه .

كذلك كان يعيش هؤلاء الثلاثة إذا خلوا الى انفسهم ،

لكنهم اذا جمعتهم اطراف الليل والنهـــار وبعض السهرات والزورات بالأهل والاصحاب ، كانوا يصطنعون البهجة والمرح فيتناسون مــــا شغل قلوبهم ، فاذا هم يذهبون مذهب غيرهم ويشاركون فيما يشارك به سواهم ، فكانوا محسودين على الوئام الظاهر والائتلاف المنشود .

ولقد قيض لي ان أتسلل الى تلك الأنفس وأتدسس الى ما ظهر منها وما بطن ، دخلتهـــا وبيدي مصباح انطفأ كثيراً وارتجف نوره ، غير اني حين استطعت مداراته كشف لي عن الخبايا في الزوايا والاعماق .

فالفتى الساهم الواجم الذي كان لا يستطيع ان يثبت نظره في الكهلة المتوقرة ، كان زوجاً لفتاتها الوحيدة . لقد احبهـــا وتعلّقها ولم يستطع ان يتخلى عنها . لم يعرف امرأة قبلها فأشبه ريفياً جاء لأول مرة مدينة تضج باللهو والحضارة ، وكان في ريعان الشباب فأخذ بهذه المدينة الخالبة وبهرت عينيه مفاتنها .

وكانت تلك الزوجة تبادله الحب وتؤثره إيثاراً شغلها في فرحة العرس عن امها التي فدتها ونذرت لها عمرها . تزوجته ولم تدر ان هذا الزواج سيكون لأمها بعد شهور جحيما مقيما . لقد ربتها بالدمع والحسرات ، لأنها نشأت يتيمة فأفرغت عليهـــا فيض حنانها ووهبت لها ما تبقى من صباهـــا وربطت بها ما انقطع من احلامها التي لم تتحقق .

وانها لتلعن الساعة التي رضيت فيها بتزويجها ، فقد عدت الزوج غاصباً مستأثراً وكره هذا الزوج قرب حماته ، متمنياً ان تكون له الزوجة وحده .

وكانت هذه الزوجة موزعة بين جاذبين عنيفين متنافرين ، ولم تكن لها ثقافة تبصرها بامرها او بصيرة تستطيع معهـا ان تعرف ما في الاغوار .

تنازع حبها قلبان كان كل منهما يريد الاستئثار والتفرد . مشكلة ليس لها حل ، وأعنف المشكلات تعقيـــداً وإجهاداً ما كان في السريرة كامناً أو دفيناً من هوى النفوس .

كانت الحياة تمر بالثلاثة في ايامها واطوارها ، فلا تزيدهم إلا هماً وغماً ، ولم يكن للأم احد تلجأ اليه ، ولو هي وجدت لما استطاعت ان تترك بنتها يوماً . وقد شق الامر على الزوج ، فان قرب الأم كان يؤذيه ومكرها يضنيه . حاول مرة ان يشترط على زوجته فراق امها فغضبت وانتفضت ، وهجرته شهراً على قهر وغضاضة .

ما هذا الطمع الانساني العسير الذي سوّد وجه الحياة في نفوس ثلاثة تحت سقف في بيت واحد ؟

ولم يتدخل القدر فيحوّل المجرى ، وكان بيده هذا التحويل والتبديل مثل العامل الموكل بدرب القطـار ، يحرك المفاتيح الحديدية فيجري القطار الى غاية ثانية . وكان حلّ المشكلة سهلاً عليه لو كتب زوال الام . ومن يدري ، فقد تحزن البنت حزناً يكون على زوجها أشقى وأشق من بقاء امها . أما فقـــده هو فكان أشدّ هولاً لأن الأم لن ترضى بزوج آخر ولو كان ملاكا .

اما هي ، هذه التي شقيت بزواجها ووقعت بين ويلين ، فان القدر يعلم انها إن هلكت وانطوت جرّت الانتحار والدمار على المتنافرين المتناكرين . وكنت وما زلت افكر في حل لهذه المشكلة المستعصية حتى قهقه القدر الذي لا يستعصي عليه شيء .

ما كانت الأم عجوزاً حيزبوناً ، ولا ضعيفة سخيفـة ، بل كانت في كهولتها الاخيرة اشدّ تعلقاً بالحياة وتمسكاً بالاماني وما يردّ رونق الشباب ويخفي عدد السنين .

كان يشق عليها ان يخلو الطريق امامها ، تجتازه وحدها على خزي ووحشة ، مقهورة محسورة ، واثنان معها كأنها طيفان لا يعرفان سرها . وكانت من نساء الجيل الماضي لا تعرف ريبة الجنس وتتورع عن كل محرم ، لكنها وقد مات زوجها وهي

اعلام الفكر

في مطلع السنة الجديدة تقوم دار بيروت – للطباعة والنشر ، باصدار مجموعة تحت عنوان – اعلام الفكر – تقدم فيها نخبة مختارة من اعـــلام الفكر العالمي ، في الشرق والغرب ، وهي دراسات عميقة كاملة عن حياة كل مفكر ، يتخللها عرض قيم لمذهبة العلمي والاجتماعي واثره في تاريخ الفكر . وقد توخت الدار ان تختار لتأليف هذه المجموعة وترجمتها نخبة من الادباء والعلماء اصحاب الاختصاص ، تبدؤها بـ

١ – **كارل ماركس** تأليف الاستاذ هنري لوفابر
٢ – **ابن قتيبة** « الدكتور اسحاق موسى الحسيني
٣ – **الامام علي** « الاستاذ رئيف خوري
٤ – **برنارد شو** ترجمة الاستاذ عبد اللطيف شراره
٥ – **جعفر الصادق** تأليف الاستاذ عبدالعزيز سيد الاهل
٦ – **انجلز** ترجمة الدكتور علي سعد
٧ – **عمر فاخوري** تأليف الاستاذ حسين مروه
٨ – **تاغور** « « خليل هنداوي
٩ – **غاندي** « « محمد روحي فيصل
١٠ – **برغسون** « « محمد عيتاني

في ريعان العمر ضنت بنضرة صباها ونشاطها على غير فتاتها فالتصقت بها وشغلتها عن الزوج الثاني ، واقد بقي في اعماق نفسها شبح الزواج مستخفياً في مجاهل روحها لا يتكشف لها لانه لا يستطيع الثبات امام حنوها الفياض على البنت اليتيمة . وحين شبت هذه البنت عاد الشبح يدور برأسها ، ولما زوجتها اشتد دورانه وأخذ يبحث عن منفذ ، وكانت المنافذ قد سدت عليه فانسل الى صدرها يوسوس فيه ويغريها بكره الشريك الجديد .

وطال تفكير الزوج في هذه المسألة التي لم يجد لها جواباً ولا حلاً ، ولم يستطع منها فراراً ولا عنها حولا . لقد أذعن لهذه الآفة التي نغصت حياته . كان يتلهف شوقاً الى الانفراد بزوجته ومعيشته ، حتى كاد يختنق من اللوعة المكبوتة والرقابة الدائمة .

وكان يرجو من زوجته الخلاص فلا يلقى رجاؤه الا الخيبة والاعراض ، كلما عاد الى السؤال والرجاء . وكان الجواب الذي يشفي نفسه وحسه عند القدر الذي هداه في درب نفسه المظلمة فحك جلده بظفره ، حتى فقأ الدماميل التي صحبته بضع سنين فاستراح قبل فوات الاوان .

ولم يكن لهذا الزوج ما كان لبعض الناس الذين وقعوا في مثل شأنه ، فهو شاب ما عرف الحرام والانحراف ، وان حماته لفي حمايته غصباً وكرها ، وإنها لفي حرمة هو يبني قدسها ويقيم جداره .

وبقي القدر يضحك ويقهقه ، حتى ساق الى الزوج المقهور عماً من البلد البعيد كان قد رباه في الصغر ، ثم جاءه على الكبر هرباً من شماتة الذين عرفوا كبرياءه حتى أذله التبذير فجمع بقايا ثروة موروثة ، وحل بدار وريثه المنتظر حتى صاروا اربعة ، فهل اراد القضاء ان يزيد في الحرج والتنافر ؟

واشتد الحيف على الام التي أعياها شأنها فلم تجد حيلة ولا وسيلة للفرج والخلاص ، وقلبها لم يكن يطاوعها على فراق ابنتها التي لم تذعن لرغبتها وما استجابت لاغرائها . أتتركها مقهورة مغلوبة على امرها ؟

لقد اشتد تبرم الأم وسأمها ، بل ازدادت تململاً بحلول الضيف القريب ، فهي لا تبرح حجرتها حتى يخرج من البيت ولا يغادره إلا في مواعيد يضربها له بعض الذين عرفوا مجده المفقود فأحبوا ان يدبروا له عملاً يمسك الحياة والكرامة على نفسه . وقد حلف ابن اخيه ان لا يخرج من بيته حتى يتيسر له الرزق وينفرج باب الامل .

وضاقت الزوجة بهذا الضيف الذي طال مقامه وقل تحوله فاستثقلت ظله إذ حرم امها الحرية ، وكان مثل غمامة دائمة حالت بين الشمس والبيت ، ولم تستطع هذه الزوجة ان تفرج كرب امها حتى عاد الدهر بعد عامين يقهقه في ليلة هبت فيها رياحه فزحزحت تلك الغمامة المقيمة وكشفت عن النجوم اللامعة فتألقت الدار بالبشاشة والايناس على البيت الذي طال وجومه وحل فيه الكمد والضجر .

وكفكف الاهل وبعض الجيران والاصحاب تساؤلاً طويلا وهمسات ووشوشات فيها الدهش والعجب ، وفيها الغبطة والاشفاق ، فقد دارت كؤوس المرطبات بشراب الورد والليمون ، ونهض المأذون داعياً مباركاً ..



ان الزوج الجديد حل المشكلة المستعصية بعد ان كان ضيفاً ثقيلاً .

وداد سكاكيني

القاهرة

أقصوصة

احتضار الفنان

للدكتور احمد زكي ابو شادي

حينما حضرت الرسام المثال الاسباني ألونسو كانو الوفاة سنة ١٦٦٧ م . كان معه راهب رفع الصليب امامه وعليه تمثال السيد المسيح محفوراً حفراً سيئاً بعيداً عن الذوق الفني ، فاشمأز منه الفنان المحتضر وأقصاه بيده عنه . فتعجب الراهب منه وذكره بان هذا تمثال السيد المسيح ، فأجابه ألونسو كانو : « هذا صحيح يا ابتي ! ولكن لا تغظني بهذه الدمامة ، بل ناولني صليباً بسيطاً وسأتوهم بعين خيالي ان عليه تمثالاً جميلاً ! »

وقد صور الشاعر هذا المشهد ممهداً له بمناجاة ألونسو كانو لنفسه، ثم مصوراً الحوار الذي جرى بين الفنان والموت قبل دخول الراهب عليهما وبعد دخوله.

الفنان :

أيا (موتُ) إني لك المنتظر — فعجّل ، وأقبل ، ولا تنتظر !
هلم وقبّــل فؤادي الخفوق — هلم فهيهــات تلقى العقوق
فاني أتوق لهـذا اللقــاء — وهذا العناق وهذا الفنـاء
أيا ساحراً فرّ منـه الأنام — وقد جحدوا حبـه للسلام
تقـدّم فاني المحب الوفي — تصوّف في حسنك العبقري
تقدم !

الموت :

لمـاذا؟ لماذا ؟ أجبني ! — ألم تك من قبل مني فرّ مني ؟

الفنان :

اجل كان ذلــك إبان حبي — وإذ كان قلبي قريراً بجنـبي
وإذ كان حولي يرف الجمـال — وأرقى به لمراقي المحـال
وها انا قد شخت والحب ضاع — فأصبحت من بين غث المتاع !
وما قيمة العيش دون الهوى؟

الموت : بحسبك في الفن نبع روى !

الفنان :

لقـد عقّني الفن لمـا تولى — حبيبي ، فلم أغدُ للفن أهـلا
وأصبحت مثل الشريد الطريد — ومالي حتى هوان العبيـد
لقد شخت يا (موت) !

الموت : هــذا عجيب — فما شاخ إلا الوحيد الكئيب

الفنان :

أما قلت اني بمنفى غريب — وقد غاب عني الهوى والحبيب
فأصبحت ذاك المسن المريب — وقد كنت قبلاً بنور وطيب
فلم يبق غير نزوحي القريب — فكن انت لي يا صديقي الطبيب
وخذني الى عالم لا يُشيب !

الموت : لك ما تشاء فدائماً يتغلب الفنـان !

الفنان : يا ليت هذا كان في عيشي فقد كان كفاحا
بل مزقت قلبي الجراح !

الموت : ألم تكن مِمْراحا ؟

الفنان : قد كنت أمرح مثلما النيران تمرح باللهيب
وتغيب تأكل نفسها في روعة الشفق العجيب
تستأسر الأنظار وهي تذوب في حزن المغيب
أوّاه من عمر مضى عبثاً !

الموت : غداً تبدأ عمرك !

الفنان : أوّاه من ألمي !

الموت : تشجع ! سوف أقهر ما أضرّك !

(يدخل الراهب)

الراهب : عم مساء يا بني !

الفنان : أوّاه يا أبتي !

الراهب : تشجع وقبّل صليب المُخلّص !

الفنان : لا ! لا ! (يقصي التمثال والصليب عنه)

الراهب : (متعجباً) لا يا بني؟! وهذا تمثال فادي الانام !

الفنان : هذا صحيح يا أبي — لكنني آبى الدمامه
أرضى صليباً هيناً — لا ان يشوه بالعيوب
فلتعطني خشباً بسيطاً ثم ألزمني احترامه
واترك خيالي واهماً تمثال فادينا الحبيب!

الموت :

توهّمْهُ يا فنان ! مثلك خالق !
وهيا الى الخلد الذي حقّ للفن
ستحتفل الدنيا متى انت فتّها
بمجدك ، لكن سوف بي عنه تستغني !

(يموت الفنان)

نيويورك — احمد زكي ابو شادي

القطار الصاعد الى بغداد

قصة جديدة بقلم محمود عبد الوهاب

عندما صفر القطار صفرته الثانية الحادة المتقطعة، فكت امي عقدة فوطتها وسلمتني الدينار الوحيد الذي تملكه واستبقت لنفسها ثلاثين فلساً اجرة عودتها من المحطة الى البصرة . وتقدم مني صديقي عودة النجار الذي كان واقفاً على انفراد ، تتحسس نظراته التائهة رصيف المحطة، فشد على يدي بعنف وقوة، فغرقت كفي الصغيرة في كفه العريضة الدبقة ، واحتقن وجهه الضخم الملامح وارتجف شاربه الكثيف الاسود المصفر من تكالبه على الدخـــان ، وتمتم كلمات لم استوعبها؛ بينما كانت عينا امي لا تفارقان وجهي الابيض . وتخضخض القطار فأسرعت الى العربة واخذت مكاني الى جانب رجل كثير الكحة ، انكمش ، بضآلة ، على المقعد الخشبي المنهك ... ثم أطللت برأسي من النافذة أودع الوجهين الحبيبين اللذين سأتركهما ؛ فألفيت امي قد علقت عينها الدامعة على نافذة عربتي بينما كان عودة يبتسم بمرارة .

وسار القطار متثاقلا ، كأنه لا يود ان يفاجىء المودعين بسرعته بعـــد ركوده المديد في المحطة ، وقد اخذ يقذف من جوفه ، بحنق ، ماء حـــاراً وبخاراً كثيفاً ابيض، يشكل في مقدمته منظراً مفزعاً يزيده رهبة قعقعته الخشنة المقززة وكان صفيره الحاد يمزق الجو الذي يغطيه ... ولويت رأسي صوب المدينة فانزلق نظري الى برية معتمة تلمع فيها من بعيد مصابيح مستوحشة كئيبة تمد ظلالها المريضة في شوارع البصرة الفوارة بالناس . وحفت وجهي المتطلع نسمة باردة فارتجفت ، بلذة غامضـــة ، وادخلت رأسي ، بارتعاش ، وتركت النافذة فاغرة تتلاطمها انسام البر المترامي المظلم .

كان جو العربة مليئاً بدخـــان السجاير الخانق ، وثرثرة الركاب وصراخ الاطفال يملآن نفسي حنقاً ويحبسانها عن الراحة والاسترخـــاء ، وطقطقة الاقدام العاثرة والركاب الذين تكدسوا في الممر والزحمة المريعة ، كل ذلك بعث فيّ الضيق الشديد ولهذا كنت كثير الحركة، قلقاً، لا استقر في مقعدي.

وحين خفتت الدمدمة قليلا ارتفع ، في العربة المستطيـــلة ، نحيب امرأة معيدية خطت الخمسين ، ارتمت تحت اقدام المسافرين ، باهمال محزن ، وألقت امامها ، بلا مبالاة ، قفة مطلية بالقار الأسود تكومت فيهـــا اكياس قذرة وملابس عتيقة تنبعث منها رائحة حادة كريهة . ولم تقو المرأة على احتباس عبراتها المختنقة فأفلت منها صرخات يائسة وانين موجع مكتوم بتر احاديث المسافرين ولجم ألسنتهم ... كانت تبكي بحرقة. ابنها الوحيد الشاب الذي مات في مستشفى البصرة الكئيب النائي ، وتتمخط وتمسح اطراف اصابعها بثوبهـــا الأزرق الخشن وهي تنحب بترنيمة محاية مبكية وتضرب بيدها ركبتها اليسرى...

ثم ارتفعت ، واهنة ، عبرات حيية مختنقة مجهولة ولما رفعت رأسي قليلا تبينت ان امرأة اخرى كانت جالسة ، غير بعيد عني ، اسندت رأسهـــا الرخي المحزون الى نافذة مغلقة وقد ارسلت عينهـــا العليلة خطين من الدموع الصامتة الصادقة ؛ إذ وجدت في بكاء هذه المعيدية واحزانها متنفساً لآلامهـــا المغلولة ، فقد اطبق قلبها العجوز على آلام غائرة دفينة ...

تأملت هذه المرأة. وجهها المنكمش المتغضن ، وعينيها الصغيرتين المحمرتين، ويدها المرتجفة المعروقة ، وصوتها ، صوتها الباكي أثار في قلبي الرحمة وقفز بي الى احزان سلسلة من الامهات اللواتي عشن في صراع متخاذل بين الحاجة وتحقيق حياة فضلى لأبنائهن !

وتذكرت ، ايضاً ، امي ... عينها الكابية ورقبتها الهزيلة وفمها الذابل المتجعد . واعتصرني شيء من الالم والشفقة عندما تذكرت انني تركتهـــا عند نسيبي واختي الحريصة على زوجها ، تركتها ، في بيتهم الضيق الرطب ، لتعلك لقمتها وتعمل بجهد وتعنى بالمطبخ والاطفال، ولتضيق على نفسها فترسل الي ما تستطيع تحصيله وجمعه شهرياً لأتمكن من مواصلة الدراسة العالية ؛ وتمنيت ان اعود اليها ... تمنيت ان القي برأسي على صدرهـــا .وابكي متخاذلاً ... ابكي ? وحنقت على نفسي ، وتمثل لي صديقي عودة الذي كان يشفق علي بمرارة تؤذيني ؛ اذ انني لا ابعث في نفسه الاطمئنان على انني رجل عراك في هذه الدنيا العريضة ، فأنا ما زلت طالباً طرياً قليل التجربة ، مع انه يعـــلم تماماً انني دخلت الحياة منذ وفاة والدي قبل عشر سنين ومضغني العمل الشاق ، على الرغم من مواصلة دراستي الاعدادية في المدارس المسائية ... وتمنيت ان استطيع ، في يوم من الايام، ان ارفع عن نفسي هذه التهمة واثبت لصديقي عودة انني لا اقل عنه حدة وحماسة ، وانني املك مثله كفاً عريضة خشنـــة . ولكن أنى لي ذلك ? !

وتمنيت ، في هذه المرة ، لو انني اكتفيت بالشهادة الاعدادية وعملي على ارصفة الميناء .. وعندئذ ، عندئذ قفزت الى ذهني صور باهتة لكنها قاسية ومتعبة ابداً ... رافعات كهربائية تنقل بضائع آتية من الهند وامريكا وانكلترا . حمالون مجهدون تقصم ظهورهم الصناديق الثقيلة وبالات القطن الكبيرة وترجف اقدامهم الحافية التي تحاول ، عبثـــاً ، ان تثبت على رصيف المحطة . أيد معروقة مصبوغة بالزيت الثخين الاسود تدحرج البراميل في جهد وعنف ، بواخر سامقة متسمرة ، بوقار مرعب، في مياه شط العرب . غرباء يخطون ببرود ممقوت على ظهور السفن ويمضغون الغليون وينفثون الدخان بتراخ في صمت الميناء وينظرون الينا بدهشة واستغراب كمن يتفحص حشرة نادرة دفنت رأسها في قشر موزة !. الحمال الجائع ، الذي حاول ان يسرق ، فلف على بطنه، مرتين، قطعة قماش ملونة. الهراوة الثقيلة التي هوت على رأسه بشدة... آخ... آخ... زحفه بخوف وتوسل وحذر بين عشرات الارجل المفروزة، وبين الاحذية اللامعة القاسية في وقفتها ... زحفه ... كالكلب الجريح ... كالكلب ... كالكلب ... كالكلب ...

كان القطار يبتلع الارض بنهم، وصفيره المزعج ينطلق بحمية وحماس فيتفتت في اجواز الفضاء الخاوي ... بيض . خبز . بيض . جيكاير . جيكاير ... هدأ الركاب الآن ، وخمدت قرقعة العربات ، واستلقى القطار على القضبان الحديد يلم انفاسه المتطايرة ، فاندلقت اصوات الباعة ، الى العربة ، باستعجال واقتضاب كنقيق الضفادع ؛ بينما كان بعض الركاب يدمدمون وهم يغالبون النعاس وكانت المرأة الثكلى قد انبطحت على ارض العربة وراحت في اغفاءة كئيبة . ونشطت الاقدام مرة اخرى ، وفي باحة المحطـــة كان المدير البدين يحدث ، بصوت اجش ، عامـــلاً يحمل فانوساً ملوناً ، ثم قهقه ، في احشاء الظلام ، قهقهة عالية وادار ظهره ودب محدودباً الى قبو المحطة المظلم فتلاشى جسمه الضخم في عتمة القبو الموحش الذي يضيئه ذماء مصباح خامل صغير .

وفجأة اصطكت وصوصة الجنادب والحشرات تصوت بعصبية وحدة كأنها تريد ان تمحو من الجو الغافي صورة مدير المحطة والفانوس الملون والعامل المكدود . وصفر القطار صفرة موحشة ابتلعتهـــا العتمة السميكة ، وتحرك ببطء وزحف ثم ركض نشيطاً على قضبان الحديد البـــارد موغلاً في قلب الصحراء متمماً رحلته الشاقة الى بغداد ... وفتح باب العربة الداخلي ودلف قاطع التذاكر الأصلع ، واندفعت ، بخفة ، حفنة من الرمل النـــاعم فأغلق قاطع التذاكر عينيه ، بحركة لا ارادية ، واسرع الشرطي الذي يتبعه فسد الباب ، بمقاومة غير عنيفة ، وتبع الموظف عائماً في جلبة العربة ببندقيته العتيقة هادئاً صامتاً :

– بطاقتك .

– تفضل .

وألح احد الركاب في ايقاظ صديقه الذي تمدد على الخشبة المرتفعة الضيقة المكدسة بالحقائب والصناديق الحديد ، فاستيقظ الرجل بجهـــد ، وفتح عينيه بضجر وغباء ، ثم فركهما ومد نظره حوله باستغراب ودس يده في جيبـــه واخرج بطاقة السفر وسلمها الى صديقه وعاد مستعجلاً الى نومته . ولعلع في في العربـــة صوت بغدادي مكرش يهذر بسرعة وتدفق ورعونة . كان فمه المنتفخ يلوك لقمة كبيرة وهو لا يني عن ضوضائه وينظر بين فترة وفترة ، الى شابة ذات وجه مغبر قد سقط رأسها الناعس بين كتفيها .

كان ينظر اليها بشهوة وحشية وهو يحدث صاحبه بسرعة ويأكل بشراهـــة ويضحك باقتضاب ، ومن دون سبب ... ثم قدم لصاحبه شيئاً من عشائه إلا ان اضراسه الثقيلة خبطت اللقمة دون تمهل . حاول ان يتكلم بعربية فصيحة إلا انها جاءت ، غالباً ، مرقعة مضحكة التراكيب والمفردات . وتأنى في كلامه بتكلف ظاهر السذاجة وهو يكشف ، بين لحظة واخرى ، وبصورة يتكلف في تعميتها ، عن جانب من حيـــاته الرخيصة العبث، متظاهراً بعدم اكتراثه للنساء ! كان سائقاً اجيراً لسيارة لوري ثقيلة تعمل في تهريب البضائع عن طريق الصحراء ها . ها . سيدي رجل كريم . يبتسم لي كثيراً . ويدعوني الى مشاركته الغداء . ها . ها . ابنته الصغـــيرة ؛ وهز رأسه بحركة كاذبة ؛ تعودت ان تدعوني .. عمو .. عمو ! وصفر القطار باستمرار عنيد ، وبان من بعيـــد مصباح احمر خافت ، واعتدل في سيره ثم ابطأ ووقف عند محطة خرساء إلا من نباح كلب جائع كان ينبعث من الكوخ المنفرد المتهشم ... وارتفعت ، في داخل العربة عدة طرقات شديدة على زجاج الباب ثم صوت عاجز مبحوح :

– ولك الباب ......

وأجاب رجل في داخل العربة :

– رح من الباب الثاني . هذا الباب وراءه اغراض .

كان رجلاً هزيلاً طويلاً في انحناءة من الخلف ؛ وقد شد رأسه بمنديل اخضر وأطل وجهه النحيل وخداه الغائران على الحياة بوهن وتخاذل . كان يتكلم بصعوبة ومشقة ظاهرة ويتنفس بجهد بينما كان صدره يصفر صفيراً واضحاً . وقد رجع الى مكانه والقى بنفسه على الفراش المشدود المكوم في الزاوية ثم مسح بيده رأس طفلته النائمـــة ، ومد رجله ، وتأفف ، وذبلت نظراته ، وتحركت ببطء امرأته المتكئة على جانب الفراش وتنهدت وهي تضم ذيل عباءتها الكالحة اليها ثم راحت من جديد في نومها . كان موظفاً منقولاً الى الديوانية ، خلت حياته من بارقة امل وباتت باهتة رتيبة متكررة مألوفة ، عمل اكثر من خمس وعشرين سنة موظفاً ضئيل الراتب ، لا ينتظر في حياته جديداً الا الموت ! انه يعيش بلا امل ، ضجراً متبرماً ...

آه .. ما اضيق هذا المكان ! ما اتعس هؤلاء ! اني اكره هؤلاء باشفاق ! ذلك السائق الثرثار الذي ينعم بحياته التافهة الجافة، وهذا الموظف المكدود ! آه . ليت صديقي عودة يراني الآن وأنا أحس هذه العواطف المتضاربة . لقد بدأت اشعر اني اصبحت رجـــلا ! اكره الخمول والجمود والافواه المليئة بالثرثرة ، وفرحت كثيراً عندما احسست بهذه المشاعر الغريبة. اين صديقي عودة ؟ اريد ان احدثه ، بلا انقطاع ، عن السائق المكرش الذي يكد كثور معصوب . وهذا الموظف الهزيل !

وتسمرت عيناي في المصبـــاح المحتضر الذي تراكم عليه الغبار وتقاذفت عليه بنشـــاط وخفـــة الحشرات الهائجـــة المتعاركة المتزاحمة، واحسست ان القطار بدأ يتمايل حتى كاد ان يسقط وتمثلت لي صور متلاطمة متداخلة ورفعت يدي الى رأسي الثقيل وعيني المجهدتين . كان القطار يقطع هذه الصحراء، دون ملل وغير مبال بالعتمة والمسافة وعواء الذئاب . وسقط رأسي بين كتفي وعفوت . وكنت بين حين وآخر ، افتح عيني ، بجهـــد ، لأرى رؤوساً متهشمة مطرقة متكورة مترافصة ومصباحاً مرتعشاً قد ظهرت الى جانبه القطعة الخشبية المكتوب عليها بالعربية والانكليزية (للجلوس ٦٤) . وأفقت اخيراً، وألفيت الشمس تنشر ضوءها على الارض المقفرة بسماحة ، والعربة تكاد تكون خالية . نزلت المعيدية المكلومة في أور إلا اني اراها وكأنها لا تزال في ضجعتها كومة حزينة . الموظف الذابل يندس الآن مغموراً في تيار الناس ؛ هو وزوجته وطفلته . اما البغدادي فلما يزل يثرثر إلا انه بدأ يشعر بالملل والتعب. ولما رأى انصراف الآخرين عنه فانه لم يعد يهذر باخلاص وحماسة كما كان .

القطار يركض بارجله الكثيرة . لا يقف في المحطات الصغيرة المتناثرة على جانبي السكة الا دقائق قليلة وهو يشق طريقه ، الآن ، في ارض خضراء

السجين

أصوات : يا ظلامْ   يا عبير الأوهامْ
يا رفيف الأحلامْ   يا ظـــلامْ

دائما على رفيق صبانا   دائما وقد نشرد خطانا

ما لنا في هذه الدنيا سواه
ما له في هذه الدنيا سوانا
نحن رؤاه   نحن مناه

صوت : هو في الزندانْ   يسكب الألحانْ
يا صبـــايا الحنين   لا تقولي سجـــين
إنه ما زال في فجر صباه   تتمادى مقلتاه
وهو زاهي الجبين   هل ترى تسمعين؟

السجين : ابتسم يا ظـلامْ   يا رفيف الأحلامْ
يا رفيق الآلامْ   ياظلام

واغاني الصحبْ   ذا سجني رحبْ
فابسم يا حبْ   وافرح يا قلبْ

أصوات : ياشاعر الآلام عدنا   على جناح الجمال
ومجاهل الآفاق ردنا   نشيع روح الجمال

السجين : من اي غيب عدت يا ارواحْ

اصوات : من عالم فتكت به الاتراحْ
تتصارع الآفات في جناته   كرهاً ويضحك ذلك السفاحْ
ويطل من عليائه متسربلاً   بالمنخر

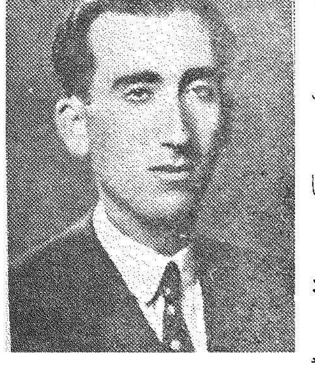
السجين : سوف تبدد الأشباحْ
ويفر جبار الشعوب مولولاً   فخموره كفرت بها الاقداحْ
عودي الى الدنيا ولا تتنائي   تهوي القصور ويسلم المفتاحْ

أصوات : نحن ارواحك الحسانْ   نهبط الارض كل آنْ
سوف نقضي على الهوانْ

نحن في أول الطريـــقْ   نتغـــانى ونستفيـــق
خيالك المشرق مرتعنا   وعالك المطلق مربعنـــا
نبدد الجهل والضلالْ
وننشر الخير والجمالْ

صوت : ايها العاشق السجينْ
زادك السجن انطلاق
فتحـــديت السنـــين
وتصورت الرفـــاقـــا
عـــائدين باتحـــاد
من ليالي الجهادْ هاتفينْ :

أصوات : ابتسم ياظلامْ
يا رفيـــق الآلامْ
باني الآلامْ ياظلام..



مصطفى محمود
من اسرة الجمال الملهم

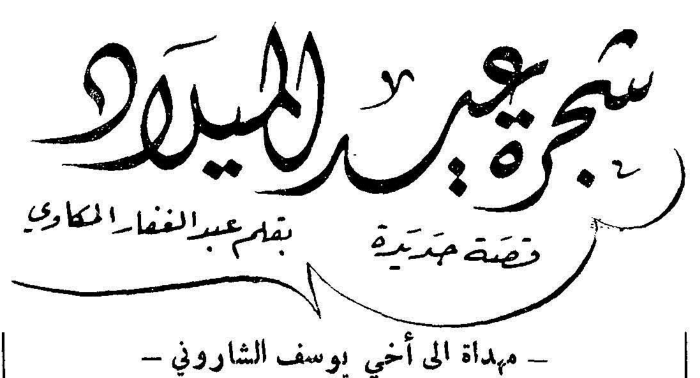
منخفضة منتشرة باتساع رحب والخراف الوديعة السائمة ترعى باطمئنان وتلوك الحشيش الاخضر الندي بتأن مألوف وعندما يصفر القطار كانت تفزع هاربة من صراخه المدوي . الاطفـــال يتصبون باجسادهم الصغيرة شبه العارية ملوحين باكفهم ، وبمرح بريء ، للركاب ، فرحين بهـــذا الحيوان النشيط المنزلق بين اكواخهم المهترئة الهابطة ، وقرقعة العربات المتدافعة تندلق في رؤوسهم فيحشون بسرعة آذانهم باصابعهم ليدفعوا بها هـــذه الضجة المدوخة ووجوههم السمر الملفحة بحرارة الشمس تحتضن ابتسامة ساذجة مألوفة .

كانت ضربات القطار الرتيبة على السكة تعلن انتهاء الرحلة ، هذه بغداد . بغداد ! الارض الواسعة المنخفضة الخضراء . المآذن التي تلوح من بعيـــد . المحطة المتربعة باستسلام تبدو في مقدمة المدينة الكبيرة كأنهـــا في استقبال المسافرين !

كان القطار لا يزال يرسل صفيره المتتالي في الجو ، الا انه بدأ يتراخى في سيره قليلاً ويبطيء ، ثم زحف بهدوء ووقف متعباً مجهد الانفاس لاهثاً . واندفع الحمالون وسائقو السيارات الى عربات القطـــار وارتفعت ايديهم متشابكة ، لتكسب الركاب ، والتفت فوجدت السائق الثرثار ينفض عـــن بدلته الغبار وقد اكسبه وجهه المحمر المتفرج سمة الغبي المطين . كان الحمالون يتلقفون ، من ايادي الركاب ، حقائبهم وصناديقهم ، وسائقو السيـــارات يجرون الركاب جراً الى سياراتهم المنتظرة في خارج المحطة ، وقد راحوا في حماسهم يغرون المسافرين بالسنتهم الحلو الطويل الممارسة . احدت انظر في عمق الى هؤلاء الاحياء ، وشعرت في نفسي نشاطاً ذاتياً متدفقاً استقيته من حماسة الحمالين وسائقي السيارات ونشاط المحطة العنيف .

ولما رفعت حقيبتي شعرت كأني انفتحت ، وان ساعدي الطري بدأ يضخم ويشتد ويقوى وان عضلات متينة ، متينة جداً ، ومفتولة جداً بدأت تظهر فيه وتلتف وتلتصق وتتشابك وتمثلت لي امي بفوطتها ضاحكة ، كما لو انها كانت تضحك ، كعادتها ، تحت اقدام سلم بيتنا العتيق ، وان صديقي عودة قد امتلأت نفسه ايماناً بي ، ودفعت الحقيبة الى الامام واحتاجني نصاب ويبوسة في ظهري عندما اندسست بين تلك الكتل المتصارعة المتزاحمة في الممر الضيق ، ولمـــا اندفعت بقوة وشققت طريقي الى خارج المحطة أحسست ان الارض بدأت تتسع لخطواتي ، وان شيئاً ما ، في داخلي ، دافئاً غريباً حماني ابدو اكثر ايماناً ، فوضعت اقدامي في الطريق العريضة وأخذت اسير متبعاً ذلك الانسان القوي الضخم المتين العضلات .

البصرة   **محمود عبد الوهـاب**



— مهداة الى أخي يوسف الشاروني —

« .. يا جدي العزيز . ما أشد حنيني اليك . منذ ان رحلت عـن قريتنا العزيزة ، وعن بيتنا القديم ، وأنا افكر في العودة اليك . لم يبق لنا غيرك . بعد وفاة المرحوم ابي . أما تزال غاضباً علي . لن اسألك الصفح عن غربتي عنك . فأنا اعرف ان قلبك الرحيم يغفر كل الذنوب . ولكني اسألك عن صحتك انت . أما تزال تعاني من ذلك المرض الكريه ؟ وأم ستيته ، هذه العجوز الطيبة القلب ، أما تزال تردد انني ناكر للجميل ؟ يا سامحها الله . انا عائد في هذا الاسبوع . وعلى فكرة . نسيت ان اقول انني سأحمل معي ولدي الوحيد : « نيني » . يا ليتك تراه يا جدي العزيز . انه جميـل نضر كوردة منداة . سأحضره معي حتما . وسوف يلعب معك ، ويحبو على قدميه ليقبلك ، ويعانقك . نعم ! انه كالدمية الصغيرة . شعره الاصفر المنسدل ، يا ليتك تلمسه بيدك الكريمة . سوف تحبه كثيراً . وسوف تضمه الى صدرك الحنون ، وتضعه على حجرك ، وتهدهده لينام ، كما كنت تفعل معي . ولكن هل تعرف هذه المفاجأة ؟ اننا سنحتفل بعيد ميلاده الثالث ، في بيتنا القديم . سوف تكون حفلة شائقة . وسوف تنور بيتنـا الانوار الزاهية ..

سلامي اليك ، يا جدي العزيز ، وانتظروني في قطار المساء ، في يوم الاربعاء . »

كان هذا هو الخطاب الذي حمله ساعي البريد في ذلك الصباح .

أنا ما زلت اذكر صوته المتحشرج وهو ينـادي : جواب من مصر .. جواب من مصر !

طرت اقمز السلالم الخشبية درجات درجات ، وكأنني احدى البطات التي نربيها في بيتنا حين تهرع جائعة الى الطعام . ونزل ساعي البريد عن حمـاره العجوز ، المتدلي الاذنين ، وصبية الحـارة الصغار يقفزون من حوله ويحاولون ان يفتحوا جرابه المنتفخ ، وكأنه خزانة الاسرار . واستقبلته انفاسي المبهورة قبل يدي وطرت الى جدي وانا الوح بذراعي في الهواء . ولم انس ابداً ان التفت ورائي لألقي نظرة على صبية الحـارة المذهولين ، الغيورين .

« جواب يا جدي . جواب من مصر . والقيت الخطـاب في حجره ، وانحنيت عليه اريد ان اضمه وأقبل لحيته الكثة البيضاء ، كأني عائد من قلب غابة مجهولة الدروب ، ومعي صيد ثمين . وانصت الي جدي المقعد ، وانا اتلو عليه رسالة اخي ، في لغة ركيكة ، ولسان متلعثم .

« بالسلامة يا ابني . بالسلامة يعود » . وافتر ثغره العاري من الاسنان عن بسمة واسعة .

انا ما زلت ارى كل شيء امامي . في ليلة الاربعاء كنا جلوساً في غرفة الفرن . كانت امامنا مدفأة صدئة ، يلتهب فيها الرماد ، فقد كان حطبنا قليلاً . ايدينا ممدودة فوق النار كأنها تريد ان تحمي بها دماءنا — دماءنا التي تسري في عروقنا ، مثلوجة باردة . كان جدي العجوز جالساً على مقعده الذي لا يريم عنه . وكانت عيناه الضيقتان تدوران في المكان كأنها تحسدانـنـا على مقدرتنا على الحركة . فقد كان جدي مقعداً . ربما لا يزيد على قصتي شيء اذا قلت انه كان مشلولاً . جاءه الشلل ذات صباح وهو يشرب القهوة ، فأفلت الفنجان من بين يديه وانكسر . وشل نصفه الاسفل . لا اريد ان اعيد قصة شلله ، فما ذكرتها إلا عراني حزن أليم .

وكانت أم ستيته ، مربيتي العجوز ، جالسة قبالتي ، تعالج عينيها الرامدتين بعصابتها البيضاء ، بعد ان وضعت فيها قطرات من السائل الاحمر . كان كل شيء هادئاً في بيتنا ، هدأة الانتظار . حتى قطرات المطر التي تتساقط فوق السطح كانت كأنها دقات طبول عميقة ، جوفاء : والسحب السوداء التي كانت تغطي وجه السماء ، احسسنا كأنهـا جاثمة بثقلها فوق رؤوسنـا . كانت ليلة شتاء لا تلمع فيها نجمة حتى تنطفىء .

كانت آذاننا مرهفة لسماع صوت القطـار . القطار الذي يزور قريتنا في آخر الليل فيهتز له بيتنا من اركانه ، كأنه زلزلة . لم تكن بي حـاجة الى الكلام . فقد غامت عيناي في افق بعيد ، ممتد بغير حدود . ولم اطلب من « امي » ستيته ان تحكي لي اسطورة من اساطير الزمان ، كما كانت تفعل كل ليلة . وما كان يمكن للسندباد البحري ، ولا الشاطر حسن ، ولا الاميرة شهرزاد ان تشغلني عن خواطري . وما كان يمكن لأمي ستيته ان تغمض عيني لأنام على حلم جميل . فأنا انتظر مقدم اخي الكبير ، لأرى فيه وجه ابي .

سيعود اخي الليلة من بلد اسمها مصر . قالت لي ام ستيته انها بلد العجائب . قبابها عالية ، ومآذن جوامعها مضيئة في الليل كأنها شجرة تتدلى منها النجوم . وابنيتها عالية تصطدم رؤوسها بالسحاب . وقال لي جدي ان الناس فيها يسيرون على ارض لامعة — فلا تغرز القدم في الوحل — وان شوارعهـا كالمرايا ، يمكن للناس ان يروا فيها وجوههم ، وان الأولياء الصالحين يحمونهـا من غارات اعدائها الحمر ، ويقفون امام سورها العظيم وهم يسبحون بحمد الله .

لم اكد امد يدي ضارعـاً وانا اصيح : « يا سيدة زينب . يا سيدنا الحسين . ارجعا الينا اخي سالماً » حتى سمعنا طرقاً على الباب . وقفزت اجري على السلم . واسرعت ام ستيتة الطيبة القلب تتحسس الطريق . وحين ضمني اخي الى صدره استطعت ان المس بيدي بذلته النـاعمة ، وان اشم رائحة العطر التي تفوح منه . قال لي وهو يضحك : هذا هو نيني ، ابن اخيك ، أليس جميلاً ؟ سلم عليه يا نيني . نعم هكذا . لقد صرت رجلا . لمَ لا تضحك ؟ انت متعب من السفر ؟ تريد ان تنام ؟ لا .. لا .. قبل ان نرى جدك ؟ من ؟ جدك العجوز ؟ أتخاف منه ؟ انه يحبك . هيا .. هيا .. اعطني يدك .. هكذا » . وصعد اخي الكبير على السلم ، والضحكات العالية تهتز معه . كان يحمل في يده حقيبة كبيرة ، فقلت لنفسي لا بد انها مملوءة بالحلوى . لن انام في هذه الليلة ! ومد جدي ذراعيه ليحتضن اخي ويقول له ، والصوت تخنقه الدموع : « بالسلامة يا ابني ، بالسلامة عدت . مالنا ومال مصر . ابق معنا . هذا هو ابنك . قربه مني . ما اجمـله .. أتخاف مني ؟ آخ ! لا تشد ذقني ايها العفريت ! »

وصاح اخي وهو يرحب بخادمتنا العجوز : لن تنامي الليلة يا ام ستيته ؟ افتحي هذه الحقيبة . ماذا ؟ أتعشى ؟ لا .. أستريح .. ولكني غير متعب .. هيا نعد كل شيء معاً .. ألا تعرفين .. ولكنه عيد ميلاد نيني .. نيني العزيز .

كان اخي في هذه الليلة جم النشاط . لم يكد يجلس ليستريح ، او ليحكي لنا شيئاً عن البلد الكبير الذي عاد منه . استحال الى طاقة حية ، مندفعة ، مشبوبة . انـه يجري ، ويضحك ، ويهز رأسه ، ويثرثر بكلام كثير مثل قطرات المطر التي تتساقط في الخارج سريعة متلاحقة : « ضع هذه الحلوى على المائدة . لا تأكل منها شيئاً . وأنت يا نيني ؛ اتريد ان تنام ؟ ايهـا



الشيطان الصغير. وهل تنام في عيد الميلاد؟ خذي هذا التفاح يا ام ستيته . نعم . ضعيه الى جانب الحلوى. ماذا ؟ ولكنك ستأكلين منه الآن. وهذه الشجرة ايضاً؟ نزرعها ؟ يا لك من ساذجة . ولكنها لا تزرع . اسمهـا شجرة عيد الميلاد . الا تعرفين؟ حسناً . ضعيها هناك . لا تقطفي منها ورقة واحدة..اسرعي ايتها العجوز. وأنت ؟ لم لا تتحرك . هل تقف هكذا ساكناً ؟.. اتعجبك الشموع ؟.. تريد تشعلها ؟ ولكن انتظر ! سنرى كل شيء . الآن .. حالاً .. حالا .. كل عام وانتم بخير » ..

ما اغرب اخي ! افي مثل هذه الليلة الباردة من ليالي الشتـاء ؟ ماذا يقول جيراننا ؟ ولكنهم نائمون . حسناً فعلوا؛ والا لضحكوا علينا . آه لو رأونا ونحن جلوس امام المائدة . لكننا اصبحنـا سخرية البلد يوماً باكمله. اذ كيف توقد الشموع ولم يولد في بيتنا طفل ، ولم يتم زواج ؟

انا عهدي بالموالد ان يشترك فيها اهل بلدتي جميعاً . ففي مولد سيدنا الشيخ « دسوقي » يحق لنـا ان نسهر الليل باكمله ، ونأكل الحلوى ، ونشتري عرائس المولد الحمراء . لنا نحن اطفال القرية في هذا المولد ان نتبرك بسيدنا الشيخ ، ونزور ضريحه ، ونلمس السور الحديدي بايدينا ، وقد يتمرغ بعضنا على السجاد العجمي الثمين في نشوة صوفية محببة . ولنا ان نسهر حتى الصباح ، ندور في المرجيحة ، وننتقل بين الموائد الزاخرة باللحم الشهي ، ونرقص في صفوف الدراويش حتى الصباح . ولكن هذا الحفل الذي نقيمه في بيتنـا ، في هذه الليلة شيء عجيب. أيكون نيني شيخاً صالحاً من الاولياء ؟ ولكن هذا شيء عال . اذ كيف يصدقه عقلي ؟.

ولم يسترح اخي الكبير حتى جلسنا الى المائدة . انني لم ازل اذكرهـا تماماً . فقد فرحت في تلك الليلة ، كما لم افرح قط . اضأت الشموع بيدي . ووضعت الشجرة الجميلة في وسط المائدة ، وناولت مربيتي العجوز اكثر من قطعة من الحلوى ، ودعوت جدي الى الطعام اكثر من مرة .

ولم تزل كلمات اخي الضاحكة كانها ترن في اذني رنيناً مضنياً . « كل سنة وانتم طيبون . كلكم . كلنا . وانت يا نيني. مد يديك يا حبيبي. نعم. هكذا. ستعيش مائة عام . أليس كذلك ؟ الا يكفيك هذا ؟ اذن ستعيش مائتين . تفاحة اخرى . ولكنك لم تأكل . اعطه يا ام ستيته قطعة الجاتوه . نعم . هكذا . الآن تعال الى جانبي . ستطفيء الشموع . املأ فمك بالهواء . لا . هكذا . هيا . ستنفخ فيها واحدة واحدة . نعم . ثلاثة فقط ؟ ولكنك لم تمش اكثر من ثلاث سنين . تريد ان تكون لكل يوم شمعة ؟ ولكن هذا كثير . انت طماع. هه ! لم يبق غير واحدة . هكذا . انطفأت كلها. »

كنا جميعاً في نشوة من الفرح اسكرتنا . فأنا قد نسيت كل ما حولي . وذقت التفاح ، والكمثرى ، ربما لأول مرة . ومضيت التهم الحلوى قطعة بعد اخرى في نهم جـائع . وسرحت مع خيالي لحظات وأنا اتأمل الشجرة الصغيرة التي تتوسط المائدة ، وتتدلى منها اوراق مفضضة لامعة ، كالقطن الابيض النقي وعجبت في نفسي كيف نمت هذه الشجرة ، وما لها من جذع ولا في فروعهـا ثمر . وسألت عقلي كيف تختلف عن شجرات الصفصاف والتوت التي طالما تسلقتها وادميت اصابعي. حتى « ام ستيتة » قد رفعت العصابة البيضاء عن عينيها الرامدتين واخذت تنظر اليها ، وتلتقط تفاحة من هنـا ، وقطعة حلوى من هناك ؛ لكأن الشباب قد انتفض في عروقها ، وكأن الحياة قد بعثت من جديد في روحها .

واخي الاكبر مشغول بكل شيء ، حتى الطبيعة راح يصفها – كاذباً – بالجمال ، وبانها فرحة مع « نيني »، مع ان الليلة – والحق يقال – كانت باردة الهواء ، والوجود كله مثل زنزانة معتمـة تلتمع البروق الخاطفة فوق جدرانها بين حين وحين .

كان جدي وحده حزيناً . لقد لبث ساهماً مطرقاً برأسه الى الارض ، صامتـاً ، وقوراً ، مثل ابي الهول . فاذا رفع عينيه فانما ليثبتهما على وجه « نيني » السعيد ، وليتملى بذلته الزاهية ، وشعره اللامع . ثم يعود ليخفض رأسه الى الارض ، ويتشاغل بسبحته الطويلة عنا .

ما لجدي وللحزن ؟ هل يعرف الحزن طريقه الى القلوب في مثل هذه الليلة ؟ هل يا ترى قد تذكر فجأة ان ابي وامي قد ماتا منذ عهد قريب ؟ ولكنني انا ايضاً اعرف ذلك . ومع هذا فلم يشغلني الحزن عن الطعـام . فعندي ان آكل حتى اشبع ، وبعدها فلتدمع عيني كما تشاء . هل تذكر وجهيهما الشاحبين وهما يصارعان الموت جنباً الى جنب ، على فراش واحد ، ونحن امامهما عاجزون عـن كل حركة ؟ انا كذلك اكاد اراهما وهما يصرخان ، ويتقيآن سائلاً اصفر بلون وجهيهما . وانا ما زلت اذكر ما قاله لي الجيران وهم يعزونني: لقد صرعهما الوباء. وليس للناس حيلة في الوباء يا بني.

انا لا اشك في ان « نيني » كان يرقب جدي . فقد رأيته يشرد بخيـاله

وهو ينظر اليه ، ويكاد يذهب اليه ليسأله : « لماذا تبكي يا جـــدي ؟ »

هل احس جدي فجأة انه قد فقد كل شيء ؟ وان حياته لم تكن تستحق ان يحياها ؟ اكاد اقول ان جدي ، في تلك الليـــلة ، قد التفت وراءه ، ونظر بعينيه ، فلم يجد غير الفراغ . الفراغ الهائل ، الساكن ، الذي يحيطه العدم من كل جانب . هل يجيء على الانسان حين يلتفت فيه الى الماضي فلا يجد حتى آثار قدميه على الطريق ؟ لحظة يطرق المستقبل فيها ابوابنا ، ونحن نيام في الليل ، ليقول لنا : لقد نسيت اسماءكم .

ولكنني على يقين من ان جدي لو كان رجع الى ماضيه لما ملكه شعور بالحزن . انه قد جرب اكثر من حياة : اشتغل في اول حيـــاته اجيراً في مزارع الاغنياء . ثم تجول اعواماً في اسواق التجارة ومكيلته تحت ابطه حتى اصبح في يوم من الايام تاجراً بين التجـــار . وبدا له ذات يوم ان يكون حلاقاً ، ففتح صالوناً كان يتردد عليه عشرات التجار والاغنياء ، وما زلنا نعيش على صيته حتى اليوم . نعم ! لا يمكن ان يكون جدي حزيناً لأنه استرجع في ذهنه ذكرى ماضيه .

كل ما اذكره اليوم ان جدي في تلك الليلة ، كان يحدق طويلاً الى شجرة عيد الميـــلاد . وكان كثيراً ما يخيل الي كأنه يتنهد . أو كان يرى ان حياته كهذه الشجرة ؟ ولكنها كانت شجرة ذابلة الاوراق ، جافة العروق مثل اشجار الخريف . أكان يدور في خلده انه هو ايضـــاً قد صار في خريف العمر ؟

لم تنته ليلة عيد الميلاد على خير . فقد اطال جدي التحديق الى الشجرة الملعونة ، واضطربت انفاسه الواهنة في صدره ، حتى رأيت دمعتين تسقطان على خديه وتختفيان في شعرات لحيته . ولم يلبث ان انفجر باكيـــاً وهو ينشج نشيجاً .

اما اخي فترك ما في يديه واسرع اليه : « ماذا.... ما هذا يا جدي ؟ أفي هذه الليلة تبكي ؟... ولكن ماذا حدث ؟.. ماذا حدث يا ام ستيتة ؟ ماذا ؟ الا تعرفين ..ولكن ما الذي يبكيه ... » وجرى « نبني » ذو العينين الواسعتين اليه وارتمى على صدره وهو يعانقه : « لماذا تبكي يا جدي » ؟

اما جدي فقد اشار علينا بان نبعده عن ذلك المكان . كل ما استطعت ان اتبينه من كلامه المتقطع ، المختنق بالدمع : « ابعدوني .. ابعدوني .. » ثم يقول وهو يمر بيديـــه الراعشتين على رأس « نبني » : « لا تحزن يا نبني ..معلهش.. يا نبـ..ـني . »

وتحامل جدي علينـــا ، واسند ذراعيه المنهوكتين على أكتافنـــا ، ونحن نسير به الى فراشه . كان اخي لا يفتأ يردد : اهذا ممكن ؟ اهذا ممكن ؟ وكان « نبني » مشغولاً بدموع الشيخ العجوز الذي يضمـــه الى صدره ويردد في صوتـــه المتقطع : « ابعدوني ، ابعدوني » واسرع اخي الى « نبني » فانتشله من بـــين ذراعيه واشار الى ام ستيته ، التي وقفت مذهولة تفتح عينيهـــا الرامدتين في صعوبة ، بان تحمله بعيداً . ما كان لهذا الصغير العزيز ان يرى الجد وهو يتحطم. ما كان له ان يفتح عينيه الزرقاوين على شيخ فيه بقية حياة تذوي وتنطفيء . والتففنـــا ، انا واخي ، حول جدي العجوز ، نكفكف من دموعه ، ونهديء من ثورته التي انفجرت على غير انتظار .

لم نكن ندري ماذا نفعل . فقد كنا نراه يبكي امام اعيننا ، بلا سبب . وارتميت على الحصيرة البالية امام قدميه . وشردت عيناي في السقف . ورحت أعد قطرات المطر .. واحد .. اثنين .. ثلاثة .. اما اخي فقد تمدد الى جانبه ، يربت على كتفيه ويهدهد من حزنه ، ويميل على اذنيه بكلام كثير

وكان الصمت يلفنا حين رأينا نبني يندفع الى الحجرة وهو يجري ، كأنه يخاف ان يرده عنا احد . وام ستيتة العجوز تجري وراءه محاولة ان تمسك به . « جدي .. جدي » كانت صيحته تخرج مع انفاسه المبهورة ، متقطعة ، مكتومة ، كالأنين . وكان يمد يديه نحونا ، ويجري حتى لينكفيء عـــلى وجهه . « خذ يا جدي .. الشجرة أهيه .. هي لك .. الشجرة لك .. ده عيد ميلادك .. عيدك انت .. لا تحزن يا جدي.. الليلة ليلة ميلادك ..إنت.. يا جدي .. خدها معك .. فان الدنيا تمطر .. »

ولم ندر ماذا نصنع . اسرع اليه ابوه يحمله بين ذراعيه ، وخرج به من الحجرة ، وهو يقبله ، ويكاد ينشج بالبكاء . واما جدي العجوز فقد لمعت عيناه الضيقتان التماعاً غريباً ، ومد يده المرتعشة فقبض على الشجرة . وضمها اليه ، الى صدره ، وهو يقبلها

وفي الصباح ، كان جدي ما يزال راقداً على فراشه . ولكنني حين اقتربت منه ، ووضعت يدي على صدره ، لم اجد فيه نفساً يتحرك ومررت بيدي الخائفتين عـــلى اطرافه المثلوجة ببرودة الموت . وكانت شجرة عيد الميلاد ما تزال في يديه .

وكان يضمها الى صدره ضماً شديداً .

القاهرة **عبد الغفار مكاوي**

حياة إنسانة

يتيمةٌ أم طواها الدجى
تهادت إلينا كومض الرؤى
على حين أغفت عيون البشر
وملّ الندامى كئوس السمر
ونام الخليُّ ونام الشجيّ
ولم يبق إلا الطريد الشقيّ
وهذه اليتيمة بنت الدجى
إذا ما أطالت إليها النظر
وأعملت فيها ضروب الفكر
تحسستَ سخرية للقدر
ورسماً لريشته الساخرة
إذا أبدعت صورة القاهره

يهيم المساء بأجفانها
مساءٌ رهيب كأحزانها
تفرُّ من البرد مذعورةً
وترجع للبرد مأسورةً
كعصفورة وقعت في اللهيب
تخبطُ حيرى تريد الهروب
ويهمي عليها حنان السماء
سيولا من الماء تروي الظماء
ولكن أتروي جياعَ البطون
سوى جرعة من مآقي العيون
وتحنو عليها يدُ الرصيف
فتُلقي إليه بجسمٍ نحيف
وأحلام غصنٍ طواه الخريف
وليلين جوعٍ ويأس مخيف

رأتني فقالت : أمثلي شقيّ
أبوكَ وأمكَ يأسٌ خفيّ
أم الآن كنتَ بحانٍ طليّ
ولحنٍ حنون وكأس سنيّ
وغادرتَ حانًا لصيد شهيّ
وقلتَ : لعلي بقايا بغيّ

إذا شئتَ جسما فهاك العظام
فما عاد لي غير هذا الحطام
وأنّى لمثلي لقيا الغمام
وعمرك فجر وعمري ظلام

فأخفيت حزني في ضحكةٍ
وقلت : اوعظٌ بلا عمّةٍ ؟؟
ورُبَّ فقيه بلا حكمةٍ
يعيش من المال في تخمةٍ
مواعظه آيةٌ في البيان
يذيب القلوب بطرف اللسان
وفي الليل يعبُد بنتَ الدنان
وينسى التقى في رُضاب القيان

وبينا انا اجتلي سرها
وتسبر عيني اغوارها
واقرأ في عينها سفرها
واسمع في الصمت إعصارها
وبينا تقول : اعطني أيّ شيّ
وترقب انظارها مقلتيّ !!
وامسك قرشاً باحدى يدي
إذا بي أفاجأ بالعسكري
ويفجؤها منه وقعُ العصي
ويبدو الصراخ كهمس خفي
ويحرمها الضعف من دمعةٍ
وتجري الصبيّة في حيرةٍ
وقد امسكت يدُها الحائرةُ
بثوبيَ ضارعة حائره !!
وتصرخ آهاتها الباكيه
لأرحمها من يد قاسيه

وثار فؤادي لتلك الفتاه
وما جرّعت من مآسي الحياه
وباعدتُ عنها يد العسكري
فقال : ابتعد أيهذا الشقي
فما انت إلا مدبٌ غبي !!
وصيد شهي لأذكى بغي

وعدت الى منزلي كي انام
وقهقهة العسكري الهمام
لها في ضميري وقع السهام
ورحت اغطُّ بدنيا النيام
واحلم اني بارض السلام
فلا جوع او ذلة او ظلام
ولكن حياةٌ لخير الجميع !!
وقانونها : العدل يحمي الربوع
وخبز يحُلُّ محل الدروع
ولما جلا الصبح عنه اللثام
صحوت وقمت اريد الطعام

وضعت يدي ابتغي «الحافظه»
فلم ألفِ الا يدي فارغه
وقلت لنفسيَ : واحسرتاه !!!
خدعتَ الفتاة خدعتَ الفتاه!!!
لقد حسبت ان عندي نقود
وان بجيبي مالَ اليهود
ستلعن حظاً رماها بيا
وليلا اضاعته في صيديا
وما حسبت انها مثليا
اما عرفت انني شاعرٌ
وحافظتي قلبها شاغرٌ
وحافظتي مثل ايّاميا !!
فلا شيء فيها سوى شعريا
وطيف رهيب لاوهاميا
وصورة بؤسي وعنوانيا



القاهرة — سعد دعبيس



« يا « سعدي » النبيل ، فلاح الحقول ! ايها الشعب المحبوب المحسن ! لو ان لذهني اجنحة الشاعر لما تغنيت الا بك ومن اجلك ! لقــد عشت بينك شهرين ، ولم ترفض ابداً ان تقاسمني خبزك ولبنك وبصلك وعدسك ، وحتى لحمك الذي ما كانت تحظى به قدرك إلا نادراً ... ان قلبي ليظل وفياً لك .

آه لو استطعت ان ادفعك الى ان ترفع الملايين من اصواتك جاهراً بالعدالة التي هي حقك ، اذاً لسمعك قاصي الارض ودانيهــا ، ولغدا صوتك القوي ايذاناً ونذيراً تجيبه اصوات يائسة ، اصوات مئات الملايين من العمال مثلك ، ممن حرمتهم السلطات الاستعمارية ايضاً ان ينـالوا قسطهم العدل من ميراث الانسانية . » (كتاب الحكيم ، الترجمة الفرنسية ، ص ٩٥) .

انه ادب نضالي حقاً ذلك الطراز من الادب الذي نجده في قصة « الحكيم » . ولا نغالي اذا قلنا ان هذه القصة خيرُ مــا كتب عن واقع مصر ، وواقع البلدان العربية بالتالي ، وخير ما يمكن ان يقدم للجيل الواعي فيها . فأنت تقرأ فيهــا ، من خلال قصة ممتعة جذابة تأسرك حوادثها ، وصفاً رائعاً لدقائق الحياة المصريه في ريفها ومدنهــا ، وتحليلاً نفسياً رهيفاً لنفوس سكانها وصبواتهم وتطلعاتهم وطراز نظرتهم الى الاشياء . وانت تقرأ فيها ، فوق ذلك ، جواً روحياً لاذعاً ، تتذوق فيه مــا تقدمه لك نفس « الحكيم » ، بطل الرواية ، من عبق النضال الروحي المتين والوعي المديد للمشكلات الاجتماعية في مصر . انك واجد في هذا الطبيب المصري الذي تنساق القصة على لسانه صورة إنسان كبير آمن بقومه إيمانـــاً مؤيداً بعلمه وعمق نظرتـه ، وتحسس اوضاعهم ومفاسدهم ومحاسنهم باعصابـه الحية المتوقدة ، واحسن التدبر والتأمل ، ونظر ونظر بعيداً ، ولم يقف عند حدود النظر والفهم ، بل تجاوز ذلك الى موقف منسجم يقفه من الاشياء وسلوكٍ نضالي يعـالج به ما يستطيع معالجته من ادواء وآفات ضمن نطاق عمله[1] .

فلا عجب إن جعلك الكتاب تطوف ، من خلال حياة هذا الطبيب ، على اوجه الحياة القائمة في مصر : فترى الريف في جماله وبؤسه ، وترى الطب وجرائمه ومستشفيات الحكومـة المليئة بالرشوى والاهمال ، وترى الدوائر الحكومية وما فيها من سنة وكسل وائتمار باوامر المستعمر ، وترى الاسرة المالكة ومفاسدها وترى الانكليز يسيطرون على كل شيء ويزج عبئهم الثقيل فوق كل مؤسسة ، وترى الافراد مكبلين بالاغلال ، والمبادهة الفردية مقصوصة الجناح ، وكل روح نضالية مهيضة مشلولة . كما ترى إلى جانب هذا كله ، ذلك الوميض اللامع تحت الرماد ، وميض ذلك العدد العديد من ابناء مصر الذين ادركوا حقيقة وضعهم وثارت نفوسهم على مفاسد بلادهم فوقفوا في وجههـا ثابتين اشداء .

ثم أنت ترى بعد هذا كله وصفاً ، اي وصف ، لنماذج الناس الذين تعرفهم بلادنا ، فتلقى صورة الموظف الكبير ، ذي الجثة الكبيرة ، الذي لا يهمه من عمله سوى رعاية بعض الاعمال

« لقد بدأ كتابنا اليوم يدركون شأن الادب الاجتماعي القومي في مرحلتنا الحاضرة . وكتاب « الحكيم » خيرُ ما يمثل هذا الادب الاجتماعي القومي الذي نتعطش له ، والذي يستطيع وحده ان يملأ نفوس الشعب وعياً وعزماً . ان تباشير النهضة القومية تتجلى في يراع الادباء . والبعث القومي ينبغي ان يُحمل قبل كل شيء على أجنحة الأدب والشعر والفن . »

---

(١) سنقوم بطبع ترجمة هــذه القصة عما قريب .

الورقية الشكلية ، والذي لا يعرف ان يعمل الا وسط الاوراق وتلال المعاملات ، والذي يوصي موظفيه « الصغار » بالحكمة والروية في معالجة الامور ، ويتهم بنقص الخبرة والبعد عن الحنكة كل من يملك منهم روح التفكير الشخصي والنقد الصحيح، دون ان يتورع ، عند الاقتضاء ، عن ان يطلب من هؤلاء «الصغار» رشوى او مقاسمة لربح او ثمناً لصنيع (او لعدم إساءة، بتعبير ادق)، ما دامت الحنكة، في مفهومه تستلزم ذلك ايضاً!

« ان فقدان الاستقامة والخيانة والدناءة وسائر الطرق الملتوية الخبيثة ، لتزدهر حتى اليوم تحت تلك الصدور المزدانة بالأوسمة ، صدور رجالاتنا الكبار المقربين، كما يزدهر البق في زوايا سرير قذر » (الحكيم، ص ٢٣٩).

ومن منا لم يعرف صورة شبيهة بتلك الصورة التي يقدمها لنا « الحكيم » حين يصف رئيسه الدكتور « قللي » رئيس مستشفى دمنورة ؟

« لقد كان رجلاً مخضرماً بين جيلين ، وكانت ملامحه مقبولة وتنم عن ذكاء ، وقسماته واضحة بينة الخطوط ، وشعره متموجاً وخطه الشيب . وكان يرتدي ثياباً مخيطة باتقان وحذاء كستناوي اللون لامعاً . فجلست امامه برهة على مقعد ابيض ، بينما كان يقوم بتوقيع كدسة من الاوراق التي كان يضعها المستخدم امامه واحدة بعد واحدة . وكان يوقعها بسرعة ، دون ان يهتم بمحتواها في قليل او كثير . وادركت بعد ذلك انه كان يوقع دوماً بمثل هذه اللامبالاة عندما يكون في حضرته شخص آخر ، وذلك لقصد صبياني هو ان يظهر براعته وكفاءته . وقد علمت ان الخيلاء والزهو من صفاته المعروفة . إنها من اعراض طبعه المريض . وقد اكتشفت ايضاً مع الزمن ان من عادته ان يمر مرتين في اليوم امام الكازينو ، متبختراً متعاظماً في مشيته ، أفيس أميس ، آملاً من وراء هذا كله ان يتأمله الناس ويعجبوا به . حتى اذا رأى انه قد نال من الاعجاب ما يكفي، صعد الدرج راضياً عن نفسه مطمئناً وجلس على منضدته المألوفة في زاوية الكازينو . »

ومن منا لم يشعر بالالفة امام هذه الكلمات التقليدية التي قالها رئيس الاطباء هذا ، عندما حاول « الحكيم » ان يشكو له ما رآه في مستشفى دمنورة من فساد هاله امره :

« طبعاً انت شاب ومثالي . وقد كنت مثلك في مثل سنك . غير اني اعلم علم اليقين ان الحكومة جامدة على سنتها لا تبرحه ... ولو كنت مكانك لما كنت حساساً الى هذا الحد . هون عليك ولا تثر ابداً » .

ومن منا لا تثور في مخيلته مئات الصور الواقعية حين يقرأ ما يلي :

« لقد كان الدكتور (قللي) مثالاً نموذجياً لأولئك الموظفين الذين خرجتهم الادارة المركزية في القاهرة . فبدلا من ان يكرس ذكاءه وطاقته ووقته لتحقيق واجباته ، كان غارقاً في وجوده الخاص ، يحلم بالرقي الى مركز أعلى وبالدخول في ادارة مصلحة الطب حيث يكون اقرب الى الفرع ... لقد كان الدكتور قللي يرى ان الهام هو ان يتزلف الى رؤسائه وينال رضاهم ، وان ذلك اجدى عليه من القيام بواجباته نحو من هم دونه. ومن هم مرضى مستشفى (دمنورة) ان لم يكونوا اناساً دونه ؟ انهم دونه الى حد انه يشعر ان مما لا يستحق العناء ان يضيع وقته معهم . وهو بدلا من ان يكون خادم العلم والشعب، لم يكن الا واحداً من اولئك الموظفين الكثيرين في هذه الايام الزاهرة ، الذين قادتهم الصدفة الى ان يكونوا أطباء وجراحين ...

« لقد كانت الخيلاء تلعب في طبعه دوراً يسيطر على كل اعماله . فكان يتجول ويجوب الردهات في طلعة المتعاظم وفي ثياب بيضاء نقية لم تدنس . وعلى حين كنت أعنى اكبر العناية وأدقها بتشخيص حالة من الحالات المرضية، كان هو يمضي من صالة الى صالة ويلقي في كل تشخيص بطائفة من الافكار المبيتة لديه سلفاً عن حال المريض ؛ كل ذلك في مظهر العليم المتفوق الذي لا معقب لعمله . وكان لا يفكر غالباً في ان يخط بذهنه لوحة مرض معين . أو كانت مخيلته السريرية ، على أقل تقدير ، مختلطة غائمة ، ولم يكن يفحص ابداً وجوه المرضى ولا ينظر قط الى اعينهم . وفي غرفة العمليات لم يكن يجري عملية الا لمن كان ينقده المال » .

وانت لا تجد في الكتاب صوراً نموذجية لمثل هؤلاء الموظفين الكبار حسب ، بل تجد فيه عدداً كبيراً من الصور الواقعية الاخرى التي تذكرك بأشياء وأشياء واشخاص واشخاص ، وتعرض لك أصدق عرض ما يجري امامك كل يوم . إنك تجد مثلا صورة « إبي رزق » رئيس التمرجية (رئيس الخدم) في مستشفى دمنورة ، ذلك الحاكم بأمره الذي يسيطر على كل شيء ، والذي يقوم بدور الطبيب الفعلي، مرتكباً اخطاء وجرائم لا تغتفر ، والذي يفرض من الرهبة على المرضى ما يجعلهم يرتعدون فزعاً لدى ظهوره ولا يجرؤون على رفض اعطائه الاموال التي يطلبها ثمناً لكل ما يقدم لهم في المستشفى من طعام يقال انه مجاني :

« لقد كان طويل القامة قوي البنية اسمر اللون ذا انف دقيق ومعقوف يشبه منقار طير جارح . وكان يصرف الامور على أختلاف انواعها كأنه مدير المستشفى . وقد ادركت (١) منذ البداية ان سلطتي عليه ليست لها اية قيمة في نظره . لقد امرته ان ينظف الغرف حالا ، ثم عدت فذكرته بهذا الامر بعد ساعتين ، ولكنه لم يفعل شيئاً مما طلبت . وبعد قليل عدت الى قاعات المرضى تدعوني الى ذلك ضجة وحشية تلوح كانها خصام واقتتال . ولما دخلت وجدت (أبا رزق) يضرب أحد المرضى ضرباً مبرحاً . وما ان رآني حتى توقف عن الضرب وأعان المريض الباكي ان يضطجع من جديد كأن لم يحدث شيء . وعندما سألته عما جرى قص علي اكاذيب . وفي ذات صباح اذ كنت أساعد الدكتور مقصود في غرفة المعاينة ، وقعت على امرأة تعيسة كان من الواجب ان تجرى لها عملية فوراً . فرجوت احدى ممرضاتي ان تعنى بها ، غير اني عندما توجهت بعد بضع دقائق الى غرفة العمليات لأقوم بالتهيئات الاخرى اللازمة وجدت، يا لدهشتي ، ان هذه الغرفة كانت مشغولة، ووجدت على المنضدة رجلا مصاباً بكسر مزدوج في فخذه . وكان العظم يتجاوز اللحم بمقدار خمس بوصات تقريباً ؛ وكان ابو رزق يقوم بنشر الفخذ. وكان ينظر اليه في عمله هذا اربعة اشخاص علمت فيما بعد انهم اهل المريض ، وكانوا يلقون بتعليقاتهم على العملية . » (الحكيم ، ص ٢٣٩-٢٤٠) .

(١) الحديث بلسان « الحكيم » بطل القصة ، الذي كان اذ ذاك طبيباً في مستشفى الحكومة في دمنورة .

ولا يعفينا الكتاب ايضاً من صورة نموذجية لأفراد الاسرة المالكة في مصر . إذ يصف لنا « الأمير علي » احد افرادها ، وصفاً يحيط بكل دقائق نفسية مثل هؤلاء الامراء ، وحقيقة مشاغلهم وضروب لهوهم وهواياتهم ونزواتهم. ولن نستطيع هنا ان نخرج جميع تفصيلات هذه الصورة المتحركة الحية. ونكتفي بان نعرض للحديث الذي دار بين هذا الأمير وبين «حكيمنا»

حين كان بعد تلميذاً في كلية الطب ، وحين ساقته الظروف الى ان يعنى بسيدة انكليزية كانت في صحبة الامير علي ، فأنقذها هذا الطالب الصغير من الموت حين لدغتها أفعى سامة في البستان الذي اتخذ من احد اكواخه منزلا له . لقد ارادت هذه السيدة ان تقدم له اجراً على عمله ، فرفض ذلك في كبرياء وشمم . فأحنق هذا الرفض سمو الامير وعده اهانة لضيوفه . لذا اقبل عليه بعد ايام وهو في بستانه يتفيأ ظل شجرة ينادي بصوته المرنان :

– اين الحكيم أفندي. أود أن اراه . دعوني اقترب منه. هذا الكلب ، ابن الستين كلب ! مسكين .

ثم سار اليه يقذفه بمثل هذه العبارات « الاميرية » ، وقد ارتدى بنطلوناً قصيراً من الوبر الابيض ، وبدا لامع « البوط » والمهاميز ، في هيئة انيقة ، وفي اضطراب شديد ، اضطراب مصطنع يتلبس به ليؤثر في الخدم والمشتغلين في البستان . ونظر الى الحكيم الصغير نظرة وحش مفترس وزمجر قائلاً :

– يا كلب ، ماذا تصنع هنـــا ؟ لماذا لا تنهض ؟ أتريد ان استخدم دربي لأجبرك على النهوض !

ثم تابع حديثه قائلاً :

– ايها الكلب المدعي ! أتظن ان دراستك الطب تبيح لك ان تعطيني دروساً ! يا كلب ! سأسحقك . كيف تجرؤ على ان تحدثني امـــام اصدقائي بلهجة عادية ؟

ورفع دربه كأنه يهم بضربه . وصب عليه وابلاً من الاهانات ، وقال :

– ان امثالك من الكلاب هم آفة مصر وبلاؤهـــا . كم وددت ان اقتل جميع الانكليز الذين سمحوا لك بان تتعلم ! لقد كان جديراً بك ألا تفارق حقولك ومزرعتك وان تكره على العمل بيديك :

وتوقف قليلا ، ووضع نظارة على عينه اليسرى ... واستمر في الحديث، وهدده إن لم يقبل الجنيهات الخمسة التي تقدمها له السيدة الانكليزيه ، وذكر له انه قال لهذه السيدة الانكليزية انه ليس في مصر من يرفض خمسة جنيهات . ولما قبل الحكيم الصغير هذه الجنيهات بعد ان بين له انه يقبلهـــا منه ، وهو الامير المصري ، لا من سيدة انكليزية ، قهقه الامير وضحك ضحكته الهيستيرية وقال: لقد ربحت الرهان ! أجل لقد راهن على ذلك وأكد للسيدة الانكليزية ان ليس في مصر كلها من يرفض مالا ، مهما يكن مصدره ، وفعل ما فعل وشتم من شتم ليكسب الرهان ويلهو قليلا ... ولكن على حساب كرامته وكرامة شعبه .

على ان الكتاب لا يشتمل فقط على مثل هذه النماذج المريضة الفاسدة ، وإنما يشتمل ايضاً على نماذج متفائلة مشرقة ، تمثـــل اولئك الاناس الاعزة الذين نجـوا بأنفسهم من الفساد وقاوموه في قرارتهم وملكـوا بطولة جدية فعالة ، وارادوا ان يفتدوا بتضحياتهم مفاسد غيرهم وجرائم معاصريهم :

« ان تلك الالوف المؤلفة من الشبان والشابات الموهوبين الذين هم اليوم في مرحلة الدراسة والذين سيتسلمون زمام الحكم في يوم من الايام ، يملكون حظاً من الانفة أكبر وأوعى من حظ الجيل السابق ، ويتذوقون الطهر والنزاهة تذوقاً أحد من تذوقه ... »

من هذه النماذج النبيلة صورة الطبيب « احمد » الذي عرفه « حكيمنا » ابراهيم عندما كان هذا الاخير متوجهاً الى القاهرة لينتسب الى كلية الطب ، فاضطر الى التوقف في الطريق بسبب وباء الكوليرا الذي تفشّى في تلك الآونة وقضى على الالوف من السكان . لقد اتى هذا الطبيب احمد الى قلب منطقة الوباء ليقوم بواجبه الانساني وليسد جانباً من إهمال السلطات المسئولة. وطلب العون من حكيمنا الصغير قائلاً :

– « ألم تلاحظ شيئاً غريباً ؟ انظر حولك ! اني لا ارى في أي مكان أثراً لانسان أو حيوان . انني لم اعهد هذا في مصر ابدا . فأنت تلقى دوماً رجالا ونساء واطفالا وبعيراً وحميراً وأبقارا . ان المرء ليخال ان الجرثومة قد ابتلعتهم جميعاً . ان مهمة جدية تنتظرنا يا ابراهيم . ان الشغل الكثير شيء ممتع .ان وجود الشخص الداخلي ليتفتح وينمو عن طريق العمل والواجب».

ويمضي الفتيان . ويدخل الطبيب احمد خيام المرضى. ويرى ما يرى من اهمال الحكومة ، فلا يطيق ما يرى .

– «لقد طلبت مصلا وطلبت ادرينالين وطلبت محاقن و كلورور الصوديوم و كلورور الكالسيوم، ولكن لم احصل على شيء، أي شيء ، إلا البرمنغنات. ان هذا لمثير . ماذا يفيد اذاً ان يكون المرء طبيبـــاً ان لم يستطع ان يقدم المساعدة » .

ثم يفتقد الماء النظيف ، بعد ان اخبره سكان القرية انهم سدوا جميع الآبار بامر الشرطة ،فلا يجده.فيمض شفتيه ويثور في عينيه نظرة جنونية ويقول:

– لا ماء نظيفاً ولا قدر . اذا طلبت انا ان تقدم لنا المؤونة اللازمة فلن احصل على شيء . ينبغي ان يعطي الامر المفتش . في بلادنا ينبغي ان يتبع التسلسل المعتاد دوماً . انها سياسة الدوائر العليا التي تهدف الى ان تحرمنا من كل مبادرة فردية ، نحن الافراد »

ثم يمضيان الى الخيمة الكبيرة ، فيجدان مناضد ومقـــاعد وسطلاً مليئاً بكلورور البوتاسيوم ومصفاة جديدة تحمل ماركة (باستور) تتسع لماء صاف يكفي اربعة اشخاص دفعة واحدة ، غير انه لم يكن ثمة ماء للتصفية . فيصر احمد اسنانه ويقول :

– « لا بد ان انساناً يثري في القاهرة عن طريق بيع هذه المصافي » (وكم لمثل هذا القول من رنين في آذاننا جميعاً ، وكم يثير في ذاكرتنا من حوادث مماثلة !) .

ثم يشاهدان الخدم مقبلين يرتدون قمصاناً جديدة بيضاء ويحملون حملاً من الضمادات . فتثور ثائرة الطبيب احمد ويقول مخاطباً الفتى ابراهيم :

– « انظر ، انظر . انهم يأتون بالضمادات . لعلهم يتخيلون في القاهرة، ان لدينا هنا وباء أرجل مكسورة » .

ويتأوه احمد قائلا :

– « يا له من وهم يتلوه وهم ! اتيت هنا لأنقذ حياة النـــاس ، فلم انقذ واحداً منهم . ان تلك الفتاة اللطيفة التي أتوا بها هذا الصبـــاح قد ماتت في المساء . انها ترقد الآن تحت التراب.. اه ، ما ألطف عينيها وما امتع طلعتها !

اذا ، لماذا كان عليها ان تموت ؟ واه ! اتيت هنا لأدفن الاموات ! هـذا كل ما أتيت له ! »

ويموت احمد بعد ذلك في قلب الطاعون مع من يموت ...

« لقد كان مصرياً فذا . لقل جعل العلم منه انساناً طيباً حقا . لقد قاده حب وطنه الى الموت ، وان له دوماً مكانه بين ابطال قومي المغمورين. ولعل بلادي قد فقدت بفقده ثائراً كبيرا. لعلها ! وما من خسارة في مصر أفدح من هذه الخسارة . فالثائر وحده هو الذي يستطيع ان يجلب نور القرن الخامس والعشرين للملايين والملايين من الفلاحين الذين تتألف منهم امتنا . وهل في العالم شعب أشد صبراً من ذلك الشعب الذي يكدح جاهداً في حقول مصر المنبسطة ؟ الله ! وهل في العالم شعب افقر منه ؟ الى هؤلاء الفلاحين كان ينتسب احمد . »

★

وبعد فرواية الحكيم هذه قصة وضعها الروائي السويسري الشهير « نيتـّل Knittel » منذ عشرين عاماً تقريباً [1]. وهو ممن عرف مصر معرفة عميقة واستطاع ان ينفذ فعلاً الى حقيقة الحياة المصرية وحقيقة المصريين ؛ فلم يبخسهم حقهم في كتابه، وذكر الكثير من مزاياهم وفضائلهم ، وكان دوماً متعاطفاً معهم ، بل اشار في كثير من مواضع كتابه إلى ان كثيراً من مفاسد اوضاعهم وليدة الاستعمار الذي خنق توثبهم وأزرى بنفوسهم واظهر الجانب السيء من طباعهم. ووصف عاداتهم وتقاليدهم وافكارهم اجمل وصف واصدقه ، وعرف كيف يعطي التفسير العميق لكثير من هذه العادات وكيف يستخرج من هذه الافكار مواطن القوة والجمال . سوى انه وقع في بعض الاحيان في خطيئات تغتفر له ، من مثـل اعتقاده بوجود عرق مصري اصيل ضعيف النسب بالعنصر العربي . على انه فهم الحضارة العربية وفهم الاسلام وفهم قيمة هـذا التراث الروحي الذي يغتذي منه ابناء مصر .

وقد اورد كل هذه الافكار عن طريق القصة لا عن طريق البحث الفكري . وهـذا موطن القوة في هذا الكتاب. فنحن ندرك جميعاً ان من خير الوسائل في إصلاح مجتمعنا العربي ان نستخدم الادب والفن وما يتصف به الادب والفن من قوة ايحاء وتأثير . وقد بدأ كتابنا اليوم يدركون شأن الادب الاجتماعي القومي في مرحلتنا الحاضرة . والكتاب الذي نتحدث عنه خير ما يمثل هذا الادب الاجتماعي القومي الذي نتعطش له والذي يستطيع وحـده ان يملأ نفوس الشعب وعياً وعزماً . إن تباشير النهضة القومية تتجلى في يراع الادباء . والبعث القومي ينبغي ان يُحمل قبل كل شيء على اجنحة الادب والشعر والفن.

اما قصة كتابنا هذا ، فقصة يرويها المؤلف على لسان طبيب مصري (حكيم) اسمه ابراهيم جمال الاسيوطي ، يذكر المؤلف انه عرفه قبل وفاته بقليل وانه ارسل اليه بمذكراته ، بعد وفاته ، فصاغها هو ، بعد ان هذبها ، على شكل هذه القصة .

نشأ هذا الطبيب في مدينة أسيوط في صعيد مصر ، وما

(١) لخص هذه القصة بكثير من الايجاز ، الدكتور ابراهيم ناجي في مجلة المقتطف (عدد يونيو ١٩٣٦) وقد اكتفى بتلخيص القصة وبيان قيمتها دون ان يتناولها بالتحليل أو العرض المفصل .

صعيد مصر ؟ انه أرض مقدسة :

«امزج دم النيل الاحمر بتربتها السوداء القديمة،ثم اضف الى هذا المزيج بذور الشعير أو حبات البرسيم الصغيرة ، تر المعجزة . تر امواجاً خضراً تنبجس من الارض كثيفة جليلة ؛ يا فرحة العين ! »

وراوده منذ ريعان الصبا حلم آلى على نفسه ان يحققه هو ان يغدو « حكيماً » ، حكيماً من اولئك الذين يرتدون القمصان البيض الطويلة ، ويضعون على اعينهم قطعاً زجاجية ، كالذين شاهدهم من نافذة مستشفى الحكومة .

وبعد اخذ ورد وجدال ارسله ابوه الى المدرسة . وكان قد انتسب ، قبل دخولها ، إلى مدرسة الحياة يطوف الحقول والبراري ، ويزور المذابح والاسواق ، ويمتعه تأمل الفلاحين الفتيان الاقوياء القادمين من الريف ، بصدورهم الملبئة المحدودبة واكتافهم العريضة واسنانهم الرائعة ، ويتمنى لو كان سائر ابناء مصر في مثل حالهم صحة وقوة .

ويحدثنا عما لقيه في تعليمه من توجيه فاسد احكم الاجنبي دسّه : يحدثنا عن مناهج التعليم التي تستوردها مصر استيراداً كما تستورد زجاجات الويسكي . ويحدثنا عن المفتشين الانكليز الذين يزورون المدارس وقد ملأهم الخوف من كل روح قومية ناشئة ومن كل مبادرة فردية ، كما يصف لنا خضوع بعض مديري المدارس وموقفهم المتخاذل :

كان مفتش مدارسنا انكليزياً يقطن القاهرة . وأظن انه كان يتناول مرتباً قدره الف ومائتا جنيه في العام . وفي مساء دخولي المدرسة كان مديرنا يجوب الصفوف ويتفقدها قائلاً :

– غداً معالي « فلان » سيشرفنا بزيارته. وبهذه المناسبة السامية يحسن بكم يا اطفالي ان تصلوا الى المدرسة نظيفين ، وان تكون كتبكم منظمة .

– أيوه يا افندي .

وفي اليوم التالي ، بينا كنا واقفين في الباحة في صفوف طويلة ، جال بين صفوفنا ، بخطوات مهيبة ، سيد نحيل يرتدي لباساً ابيض ، وبيده مذبة من عاج ، يرافقه مدير مدرستنا الذي كان قلقاً أشد القلق ، يملأه اجلال وجل .

« يا زميلي العزيز ، يا زميلي العزيز » اني اكاد اسمع في هذه اللحظة التي اكتب فيها حديث ذلك الانكليزي وهو يخاطب المدير قائلاً : « يا زميلي العزيز » وحديث مديرنا الذي كان يجيب في خنوع : « نعم يا صاحب المعالي، نعم يا صاحب المعالي . » ولكن الرجل لم يكن صاحب معال . آه ، تباً لهذا اللقب، لقب المعالي، لقد افسد كثيراً من مواطنينا. يا له من سحر : أن يكون المرء صاحب معال !

– أنظروا، لمَ تأتون الى المدرسة يا اطفالي الاشاوس ؟

– لنتعلم يا صاحب المعالي .

– ولم تريدون ان تتعلموا يا اطفالي الاشاوس ؟

– لنكون فيما بعد من خدام الحكومة .

– ماذا ؟ ... جميعكم ؟

وسادت لحظة من الصمت ، ولم يجب احد. فصحت قائلاً :

– أريد أن أغدو حكيماً .

فبحثت عني عينا معاليه ، وقال :

– آه (سكتة) ولم يا بني ؟

– لأشفي مواطني من المرض .

– آه (سكتة) . مواطنيك ؟

– أيوه .

وعاقبني المدير على ذلك فيما بعد ... »

ويسافر الفتى إبراهيم بعد ان ينهي دراسته الثانوية قاصداً كلية الطب في القاهرة . ويركب مركباً في النيل ، وبينا كان المركب يمخر عباب النيل تدفعه ريح الشمال القوية ... وبينا كان ابراهيم يستمتع بمنظر النيل القاتم الصامت كماضيه ، وقد اسدلت الظلمة ستارها على الشاطيء واخذ الهواء يميل الى البرودة سريعاً ، وشعر ابراهيم « كأن الشهوة تجتاح جميع الاجساد وان الرجال في مثل هذه الليلة يتأوهون باحثين عن رفيقة » ، واخذ يحلم بذراعي صبية لينة وبشفتين تذوبان كثمرة ناضجة وبأنفاس كريح الخزامى.. بينا كان في هذه الاحلام والآمال، استوقف رجال الشرطة المركب واخبروه انه في حال حجر صحي لأن وباء الكوليرا قد اجتاح تلك المناطق الهادئة الناعمة .

ويمضي ابراهيم الى قلب الطاعون، كما ذكرنا، ويعمل مساعداً للدكتور احمد ، يكافح الطاعون ويكافح الآلام ويرى جلال الموت . وبعد ان اشرف على الموت عاد الى الحياة او عادت الحياة اليه . وغادر منطقة الوباء معدماً لا يملك شيئاً ، وهبط الشاطيء الشرقي من النيل وحيداً ، وقصد قرية مجاورة لم يبلغها الهواء الاصفر. وتعرّف هناك على الغفير وعلى ابنة اخيه «عزيزة».

لقد كان له من العمر ثمانية عشر عاماً ، وكان لها ستة عشر عاماً .

« وكانت عيناها المزدانتان بالكحل غنيتين بحلاوة محرقة تشيعها شهوة افريقية ما تزال بكراً ... وكانت اسنانها تلمع وقد صفت صفاً جعل ليفترس قلوب الرجال ... وكان لونها البرونزي يشع صحة . وما كانت القطع الغليظة من القماش التي التحفت بها ، كما تفعل الفلاحات،لتقوى على اخفاء كاعبيها العامرين بالمتعة. وكان صوتها أحلى من هدير الحمائم في اشجار الصبار المرهفة التي كانت على حافتي الطريق المؤدي الى القرية ... لقد كانت تمضي للعمل في الحقول ، خلية القلب ، تكدح كما يكدح سائر النساء وسائر الاطفال تقريباً تحت قبة السماء المصرية الزرقاء . وبعد الظهيرة ، عندما كان الهواء يرتجف من القيظ ، كانت تجلس في الظل تحت (ساقية) ابيها، بينما يغني أحد اخوتها وقد اعرورى حماراً عصبت عيناه ، ليدير الدولاب ، ألحاناً لا تنتهي حول حمار وبقرة . وكان الدولاب يصيح والماء يتفجر من الآنية الفخارية وينثر حولنا رذاذاً بارداً.»

فاحبها الفتى واحبته . وفي صباح يوم كانت القرية في عيد ، إذ كان الناس يرتقبون زيارة الباشا ، وهو ملاّك كبير يملك القرية وكل ما تحتويه القرية من حي وميت . وطلب الباشا الفتاة عزيزة من ابيها لتكون خادمة لزوجته . فقدمها الاب له

صاغراً فخوراً . وحاول ابراهيم ان يهرب مع الفتاة ، غير ان رجال الباشا لحقوا به واسترجعوا الفتاة، وضربوه هو حتى ادموه.

ويصل ابراهيم القاهرة ، ويدخل القصر العيني . ويناضل خلال سنوات الدراسة ، وهو الفقير المعدم ، ويغتذي في اكثر الايام بقصب السكر والعدس والخبز والبصل . ويسكن مع رفيق له اسمه « ابو بكر » ، في حي قذر من احياء القاهرة ، دعي فيما بعد بشارع نظيف. وراودته اثناء العطلة الصيفية فكرة نبيلة وهي ان يفتح مدرسة لابناء الحي يعلمهم النظافة الى جانب المعرفة ويثبت فيهم محبة مصر . ويتم له ما يريد . ولكن الحكومة لا ترضى عن مثل هذا العمل ، ولا ترضى عن مثل هذه التربية القومية لأبناء الشعب. فيودع ابراهيم قرارة السجن ويثور رفاقه في كلية الطب ويضربون . ويهرع احد ممثلي حكومة جلالة ملك بريطانيا الى رئيس الوزارة المصرية قائلاً :

– « ماذا يحدث ؟ ينبغي ان تقفوا هذا حالاً .

– سوف اسأل عن سبب الاضطراب يا صاحب المعالي .

– أرجوك ، ولا تنس أن تتخذ تدابير زجرية ضد المحركين .

– ما في ذلك شك ، يا صاحب المعالي .

– وإلا اضطررت ان افعل ذلك بنفسي .

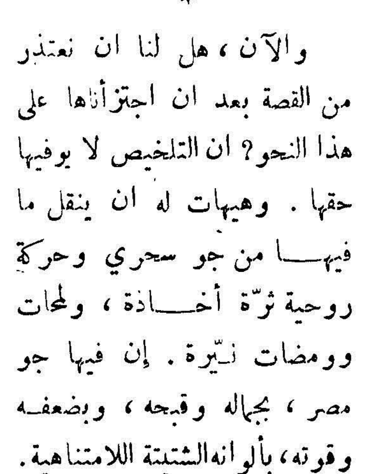
– يستطيع ان يتأكد معاليكم اني سأنهي دون ما هوادة ورحمة اضراب هؤلاء الطلاب .

وهكذا كان . « ان كل مصري ، حتى اصغر فلاح ، يعلم حق العلم ما معنى زيارة الرئيس البريطاني لوزير مصري . انه يقوم بهذه الزيارة « ليأخذ المعلومات ! » وهذا يعني انه يفرض بالقوة إرادة وزارة الخارجية البريطانية . واذا كان الامر جليلاً خطيراً، فويل للوزير الذي يحاول ان يبدي بعض الاعتراضات».

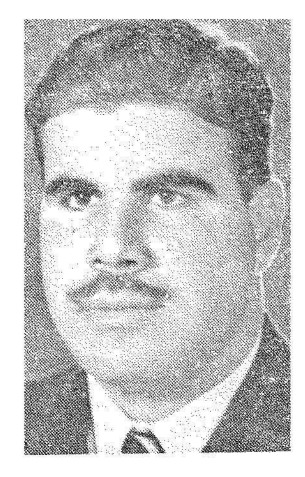
وينتصر الطلاب ، ويخرج ابراهيم وزملاؤه المعتقلون من السجن . ويعود ابراهيم اشد فقراً مما كان ، واقوى عريكة ونضالاً . وينهي دراسته ويعمل طبيباً داخلياً في مستشفى القصر العيني . ويلتقي هناك بعزيزة وقد وضعت إبنة ، نعم وضعت ابنة من ابن الباشا وتاهت في الارض مع قدرها. واتى بها ابراهيم الى بيته وتعهدها وحاول ان يثير فيها روح الطهر والتضحية . ولكن غلمة الشهوة غلبت عليها ، فذهبت مع صديقه الحميم « ابي بكر » تقطف متع الحس وغادرت المنزل وخلفت فيه لابراهيم اسى عميقاً .

ويذهب ابراهيم الى « دمنورة » طبيبا في مستشفى الحكومة. ويرى من المفاسد ما ذكرنا منه . ويصبر طويلاً . غير ان بعض الحوادث المثيرة لم تبق منزعا في كؤوس صبره ، فقدم شكوى الى الادارة المركزية يصف فيها حال المستشفى وتقصير رئيسه الدكتور « قللي » . فيكون الجواب ان ينقل ابراهيم الى « إدفو » على حدود السودان . ويغادر « دمنورة » رغم توسلات سيدة يونانية عرفها هناك وأحبته ، ويخرج في وداعه مئات الفقراء الذين أحسن علاجهم . ويأخذ معه فتاه « حسين » الذي لازمه طوال حياته وأخلص له . ويحاول في ذلك البلد البائس الفقير ان يهيء جواً لائقا من العمل ، وان يقدم بعض العون والاصلاح . ويجتمع صدفة بسيدة انكليزية ثرية جاءت على « ذهبيتها » الى أعلى الصعيد ، وقفلت راجعة ، فاشتد عليها مرضها وأشرفت على الهلاك ، فمكثت في «إدفو» تنتظر النجدة. وكان معها في « الذهبية » طبيب خاص انكليزي . واستطاع الدكتور ابراهيم ان يعرف سرّ علتها ، وان يخالف بذلك آراء كبار الاطباء الانكليز الذين سبق ان فحصوها. وتؤمن السيدة برأيه ، وتطلب اليه ان يجري لها العملية الجراحية التي يراها لازمة ، رغم انكار طبيبين انكليزيين لرأيه هذا . وتشفى السيدة ويأتي زوجها الثري من انكلترا يشكر للدكتور ابراهيم صنيعه . ويدعوه الى السفر الى انكلترا ليتابع دراسته. فيذهب ويعمل هناك خلال سنوات طويلة، طبيبا في لندن. ويكتسب شهرة هائلة ويجني مالاً كثيراً . غير ان الاعياء يدب في جسده، ويصاب بمرض صدري ، فيضطر الى مغادرة انكلترا الى جبال سويسرا. وفي طريقه اليها يمر بباريس فيجتمع في احدى حانات « مون مارتر » بعزيزة التي غدت راقصة في تلك الحانة ! فيثور ويعزم على انقاذها . وبعد مواقف نفسية عنيفة ، ينجح في ذلك، فيعود معها الى مصر، وتعنى به وتسهر على مرضه ... الى ان يموت ».

*



والآن ، هل لنا ان نعتذر من القصة بعد ان اجتزأناها على هذا النحو؟ ان التلخيص لا يوفيها حقها . وهيهات له ان ينقل ما فيها من جو سحري وحركة روحية ثرّة أخاذة ، ولمحات وومضات نيّرة . إن فيها جو مصر ، بجهاله وقبحه ، وبضعفه وقوته، بألوانه الشتيتة اللامتناهية.



عبدالله عبد الدائم

— دمشق —



نبأ من سبأ — القربان

خالد الشواف

جذب العنان وحط من نصبِ . . . عن سابق نضو من الحببِ
النبع راوده فخف له . . . جوفان يتقدان من لهب
ماذا عليه اذا استقى وسقى . . . وأصاب من عنب ومن رطب؟
الليل لم ترجف جحافله . . . والأفق، بعد، يموج بالذهب
والفارس المكدود من سفر . . . (صنعاء) صارت منه عن كثب

★

صنعاء .. ماذا ترقبين وقد . . . أرخى المساء عليك بالحجب؟.
النجم لم يهدك من قلق . . . تستطلعين الغيب في الشهب
ما الأمر يا صنعاء؟.. إن دجى . . . يلفيك بائسة لفي عجب
انت السعيدة في البلاد، فهل . . . للبؤس يا صنعاء من سبب؟..
أترى دعت بالنوم داعية . . . في ليلك الساجي فلم يجب؟..
لا بأس ان اللهو ممتثل . . . بجنوده، الأصوات والجبب
لمَ انتِ هذا الليل معرضة . . . عن سكرة تلهي وعن طرب؟!

★

الفجر، منتصراً، يلوح وقد . . . لاذت فلول الليل بالهرب
والشمس ما زالت بزينتها . . . مشغولة في المخدع الذهبي
والنبع تدنو منه راعية . . . عذراءُ تحدو الشاء في دأب
فاذا هي اقتربت تملكها . . . روع وخلّفها الى عجب!..
عجبٌ!.. فهذا فارس يده . . . في سيفه، والرأس في اليلب
غافٍ على خُرج توسّده . . . فكأنه إن يبتدر يثب
لله ما أبهاه في سنة . . . ألقت بهيكله على العشب!..
الوجه!.. يا للوجه!!.. لوّحه . . . حر الهجير ولفحة اللهب
هذا الفتى .. هل كان منقطعاً . . . في مهمه بجزيرة العرب؟..
كلا .. فهذا الزي تسبغه . . . (سبأ) على فتيانها النخب
هذا المحارب آب من سفر . . . بالجهد والوعثاء والنصب
من أين عودته وما احتربت . . . صنعاء ذات المجد من حقب؟..
وتظل تسأل نفسها، ولها . . . قلب من الاعجاب لم يثب،
حتى تطل الشمس طالعة . . . تختال في أبرادها القشب

★

صنعاءُ قد طلع الصباح بها . . . والقوم في هرج وفي صخب
قربانهم قد حل موعده . . . والفارس المختار لم يؤب
ندبوا به لجليل أمرهمو . . . أتراه لم يك خير منتدب؟..
والشمس، ربتهم، قد ارتفعت . . . فهووا الى الأذقان والركب
طال السجود بهم وما رفعوا . . . طرفاً اليها خشية الغضب
فاذا توسطت السماءَ ولم . . . يقبل رمت صنعاء بالحرب

★

يعلو ثغاء الشاء سارحة . . . في العشب حول المنبع العذب
والشمس تصلي جسم مضطجع . . . رفع الكرى عنه يد التعب
والكاعب الحسناء ما برحت . . . ترنو اليه بطرف منجذب
فاذا تململَ دقّ خافقها . . . واذا صحا أغضت من الرهب
ويرى الضحى يعلو فيملكه . . . حنقٌ، ويقفز جدّ مضطرب
ويصيح، يا ويلاه.. قد حميت . . . شمس الضحى. والقوم في طلبي
ويبادر الخرج الثمين، كما . . . تتحمّل الأم الحنون صبي،
فرسي؟ ترى اين انتهت فرسي؟ . . . ويدور بالعينين في غضب
فاذا رأى الحسناء بادرها . . . وهي التي لم تصحُ من عجب،
فرسي.. ترى أرأيتها؟ فاذا . . . دارت بعينيها فلم تُصب،
قالت له: كانت تجول هنا . . . فلعلها تنساب في العشب..
ويقول؛ هل اخرى اطيرها؟ . . . فتقول؛ خلف السدر كوخ أبي
فتعال، وامش معي.. فان له . . . فرساً.. وان تسأله لا تخب

★

— ياشيخ إن اسرجت لي فرساً . . . أملأ غداً كفيك بالذهب..
— أبنيّ.. ما في المال لي أربٌ.. . . . أنا من حفيري جدّ مقترب
لكن بنتي، وهي واحدتي، . . . همّي العصيُّ ومنتهى أربي
أخشى عليها إن قضيتُ غداً . . . من طارق الاحداث والنوب
فاذا بنيت بها فخذ فرسي . . . وتبارك الايام في العقب
واذا أبيت .. فهذه فرسي . . . خذها بلا عوض ولا تؤب..
ويرى الفتى العذراء مطرقة . . . للارض من خفر ومن ادب
فيقول، هات السرج. نفسي قد . . . طابت. ونفسك انت فلتطب
إني رضيت بها، فان رضيت، . . . فاقصد بها صنعا لتلحق بي..

★

صنعاء.. تلك عجاجة صعدت . . . بشرى بعود الفارس الندب
في خرجه قارورة طُليت . . . بدم (لنسر البيد) منسرب
عيناه فيها .. والفؤاد، وقد . . . دبّت اليه دبيبة العطب
فليحرق الكهان قربتهم . . . في معبد للشمس منتصب
صنعاء.. نذرك قد وفيت به . . . فلترقصي في العيد ولتثبي

الشمس قد سكنت حفيظتها   فالقلب والعينان في اللهب
الطائر الجبار اوقعه   متمرس مهما يُرِشْ يُصب
هذا المصير مصير مجترىء   متكبر من سالف الحقب
اخذت عليه الشمس من قدم   تحديقه فيها بلا رهب

★

صنعاء تزجي الليل في طرب   بين المزاهر وابنة العنب
والفارس المرموق حفّ به   حسد الرجال وصبوة العُرُب
وتعلقت بالندب ناعمة   بجمالها ائتلقت وبالنسب
طاف الرجال بها فما حفلت   منهم بذي جاه وذي نشب
لكن خافقها الذي منعت   عنهم بفارسها الجميل سُبي
ودعت به.. ومضت تطارحه   بُرح الهوى وحرارة الوصب
حتى اذا زادت بان رغبت   في ان تكون له فلم يجب..
.. ويروح معتذراً براعية   سبقت اليه ربة الحسب ،
شعرت بان فؤادها مزّق   والكبرياء تذال في التُرب
أيعافها ؟ ، وهي التي رغبت   عن كل شهم في الرجال أبي؟..
سيرى غداً من كيدها عجباً   وترى غداً حمّالة الحطب ..

★

وتشيع عند الصبح شائعة   تغلي لها صنعاء من غضب
ما كان قلب النسر ما طرحوا   كلا.. ولا عيناه في اللهب
بل من بغاث الطير قربتهم   يا هون ما طرحوه من قرب
وتثور ثائرة الرجال بها   ويُصاح بالويلات والحرب
الشمس.. ان الشمس مغضبة   ولسوف ترمي القوم بالكرب
حتى يراق دم الفتى .. فبه   جيئوا ليؤخذ بالدم الكذب

★

الشيخ وابنته يقودهما   أمل الى حلميهما الرحب
هذا على مهل يسير ، وذي   ينأى الحياء بها عن الحبب..
لهفي الى لقياه .. ظامئة   لورود منهل عمرها العذب ،
يا ليتها ، مما ستشهده ،   عن كوخها والنبع لم تغب..
لا تبلغي صنعاء.. وابتعدي   عن مصرع الاحلام.. واجتنبي
أحسبت هذا الجمع منتظراً   ركب العروس فمدت من طرب
لمن النداء بميتة عجب   تُروى على الايام والحقب؟..
ولمن زحام الناس؟. ويجهمو.   من يوثقون يديه في الخشب؟..
وتدافعت معهم لمعبدهم   فاذا بها منه على كثب ..
الصوت !.. هذا الصوت تعرفه   لم يفن في الضوضاء والصخب
والوجه!!.. ياربّاه.. ثم هوت ،   وهوى الرجال عليه بالقضب

★

جبل على سبأ يمر بما   سيمته من سخط ومن غضب
الفاتح الجبار يدهمها   ويبيحها للعسكر اللجب
فيسومها ذلاً ويرهقها   ويسيم حد السيف في الرقب
فاذا الحواضر باد حاضرها   وانهار فيها كل منتصب
واذا بصنعاء التي رفعت   أبراجها يوماً الى السحب
عادت خرائب.. بعض آهلها   إنس ، وسائره من العُرُب

وهناك.. حيث جرى دم لفتى
من اهلها في قرية كذب
كانت عجوز.. غير مبصرة ..
غابت لياليها ولم تغب
تأوي الى ركن تعيش به
بين الدعام الشم والنُصب
عاشت على الذكرى تبلّغ، من
بيع الرُّقى في المعهد الخرب

بغداد — **خالد الشواف**

فزيولوجية القصّة

للكاتبة البلجيكية نللي كورمو

هذا تلخيص واف لكتاب قيم ألفته أديبة بلجيكية معروفة هي « نيللي كورمو » Nelly Cormeau ونشر بالفرنسية منذ سنوات بعنوان Physiologie du roman والمقصود بـ Roman كما سيتضح للقاريء فيما يلي الفن القصصي بصورة عامة ؛ من اجل هذا عرّبناه بـ « فيزيولوجية القصة » اي « علم هيئة الفن القصصي » إذا جاز التعبير . وإنما نطلق كلمة القصة من قبيل إطلاق الجزء على الكل . وكل ما نرجوه ان نكون قد استطعنا بهذا التلخيص ان نحافظ على افكار المؤلفة ، والا نكون قد ألحقنا بها ايّ تشويه .

« قلم التحرير »

١ . طبيعة القصة ووضعها

تُعدّ القصة اوفر الفنون شبهاً بالحياة . ولما كانت حرة من كل ضغط او قيد مادي ، فهي تمتلك الزمان والمكان خير ما يكون الامتلاك . انها تستطيع ان تتابع على هواها اخفى خفايا الحياة الصميمية ، العادية او الغريبة ، وهذا هو في الحق الاعجاز القصصي : فبالرغم من ان القصة عقدت مع الحياة حلفاً لاينفصم ، فهي تجد نفسها مجرّدة عن اية وسيلة حسّاسة للتعبير . إن الخطوط والمـــادة والجرس واللون ، جميع هذه الاشكال التي تتعلق وتسكر بها حساسيتنا ، تفلت منها . إن آلتها الوحيدة المجردة هي إشارة اللغة العارية التي تتوجه الى الادراك المحض . ومع ذلك ، فاي عالم غني ، واي تدفق حياتي محسوس ، بعواطفه ومغامراته وصخبه ، ينفران من القصة امام اعيننا ! إن القصاص ندّ للالـه ، إنه الخالق بالكلمة . والقصة هي اذن خالقة حياة ، ولكنها ليست مع ذلك نسخة دقيقة عنها .

يعرّف معجم Littré القصة بانها « حكاية مصنوعة مكتوبة بالنثر يحاول مؤلفها ان يثير الاهتمام بتصوير الاحاسيس والعواطف والاخـلاق او بغرابة المغامرات . » وعلى الرغم من ان هذا التعريف شكلي وموجز ، فانه ينطوي على العناصر الرئيسية للفن القصصي .

ولئن كان تصوير الاحاسيس والاخلاق يفترض الاستقصاء النفسي ومراقبة الاحداث الخلقية والاجتماعية ، فانه مع ذلك لا يتحقق إلا بخلق الاشخـــاص الذين يضطربون في اوساط وإطارات معينة . وهنا تظهر في الحق ملكة الخلق لدى الكاتب في كل غناها ومداها . » إن بطل القصة الحقيقي ليس هو ابداً صورة . ولا شك في اننا لا نستطيع ان نتصور عملية خلق تقوم كلها على المعدوم Exnibilo ؛ إن الواقع يقدّم دائماً العناصر الاولى للأثر .

ولا ريب في انه ليس في العالم كله مشاهد اشد نهماً واكثر تنبّهاً من القصاص . إنه قبل كل شيء متأمل من الطراز الاول يشارك مشاركة عميقة في الحياة التي تشيع حوله . كل شيء في نظره حسن ما دام يعرض عليه مشهداً . ذلك ان القصاص لا يوجه الى العالم نظرة تشبه نظرة سائر الناس . إن فطنته ، على انها تستقبل وتتلقى ، لا تستنيم الى السلبية . إنها على العكس ايجابية ، مهيّجة ؛ إنها فطنة الصياد الذي يحوش طريدته ويقسرها على الفرار وعلى المحاذرة وعلى الدفاع ، الصيّاد الذي يكفي ان يوجَد ليسبب الاضطراب والحركة . والواقـع ان القصاص « صيّاد صور » ، صياد درامات وانفعالات ، صياد شرارات . على ان نظره هو الذي يوقـد هذه الشرارات حوله . إن القصاص ، شأنه في ذلك شأن الطفل والشاعر ، متـأمل غريب ذو امتياز ،

منظّم لمظاهر السحر الخفية، ذو عينين مزوّدتين طبيعياً بعدسات سحرية. وهو لا يصوّر بدقة شديدة احداثاً معاشة تاريخياً، ولا كائنات معروفة وموجودة في الواقع. ذلك ان هذه الامانة الرقّيّة تحيله الى مؤلف مذكرات، او رسام صور، فتنتزع منه ميزته الخاصة كمؤلف «قصص». إن كلمتي «قصة» و «قصصي» تفترضان بطبيعتهما ذاتها غلبة المتصوّر على الواقع والاسطورة على الحادث، والشخص على المثال. إن القصة هي دائماً كذبة، ولكنها كذبة جميلة منسجمة. فهي لذلك لا ترضي الحقيقة التي يمكن اعتبارها ترادفاً للواقع، وانما ترضي «احتمال الوقوع» الذي هو شكل آخر من الحقيقة.

قد يقول قائل إن كثيراً من القصص بنيت على معطى واقعي، والقصة التاريخية شاهد على ذلك. وجوابنا ان العنصر «القصصي» في القصة التاريخية لا يقل قيمة عن العنصر «التاريخي». ولئن كان هذا الاخير يحصر الامر في موضوع وإطار معينين، فان الاول يعطي مطلق الحرية. إن التاريخ ليس إلا نقطة انطلاق او حتى وسيلة. إنه يمثل «المادة» التي يكيفها الفنان وفق هواه. يتساءل ألفرد دوفيني في مقدمة «٥ آذار»: «ما نفع الفنون إذا لم تكن إلا صورة طبق الاصل عن الوجود؟ إن الواقع المتبنّى هو دائماً خير من الحقيقي، وهو لم يتبنّ إلا لأنه اجمل منه.. ينبغي الا يعتبر «الفن» الا من زاوية علاقاته بـ «الجمال المثالي». والحق ان ما هو «حقيقي» ليس إلا ثانوياً، وانما الذي يجمّله وهم من اوهامنا او نزعة من نزعاتنا. وإن الحقيقة التي ينبغي ان تغذيه هي حقيقة «مراقبة الطبيعة الانسانية، لا صحة الواقع.»

في هذا يكمن ما نسميه «التحوير القصصي» Transposition الذي هو القانون المسيطر بل المبدأ الاساسي لفن القصة. إن القصة تخضع لمنطق الاسطورة والبطل، لا لمنطق الموجود والحاصل. وهي تستمد من ذلك المعين اصول هندستها، هندستها الزمنية المحض، هندسة الحلم الذي يكسبها مع ذلك الصلابة والاستقلال اللذين تصبح بفضلها كياناً موضوعياً متميزاً. ثم إن التحوير، وهو تعليل وهوى في الوقت نفسه يطلق الطاقات الشعرية للقصة، بل هو منبعها الدفّاق.

وهكذا يمكن القول بان القصة عمل او درام يجري في الزمان ويقع في المكان ويستعير منها الوان الوسط وجوه المحدد. ويُخرج هذا الدرام اشخاصاً يصور لنا اعمالهم وحركاتهم وعواطفهم وانفعالاتهم. ولكن هذا الدرام وهؤلاء الاشخاص لا يتخذون «كثافتهم» ولا «كينونتهم» القصصية الا بابتعاد واع عن «الواقع الحاصل». ابتعاد لا يقاس ولا يحس تبدو القصة بفضله، اذ تخدعنا دائماً بكذبة جميلة، اقرب ما تكون الى الواقع المعاش، فيما هي، في الخفاء تنفصل عنه انفصالاً تاماً. وهكذا ترضي «احتمال الوقوع» والقوانين العامة للانسانية والحياة، لا الحقيقة التي هي ترادف للواقع. إن القصاص يعيد دون ما انقطاع صنع العالم.»

٢ . الموضوع

يقتضينا الوضوح في هذه الدراسة ان نميّز العناصر المختلفة التي تشكل القصة. ولكن ليكن مفهوماً منذ البدء ان هذا التمييز وهذا التجزيء لا يمثلان في نظرنا الا ضرورة منهجية، خضوعاً اجبارياً لهذه القاعدة الثانية من الطريقة الديكارتية «للوصول الى معرفة كل شيء». فنحن لم نفكر لحظة في ان نتخذ هذا الموقف التحليلي تجاه القصاص لولا هذه الضرورة المنهجية. من اجل ذلك لا مناص لنا من ان نميز في القصة الموضوع والتأليف.

اما الموضوع، فهو في العرف العام، الفعل والدرام والعقدة، وبكلمة واحدة «الحكاية» التي ترويها لنا القصة. والحق ان الموضوع يتعدى كثيراً هذا التعريف. فليست جميع القصص قصص «عقد». واذا كان من الحق التنويه «بالفعل» في قصص المغامرات والقصص التاريخية، فليس الامر كذلك بالنسبة للقصص الاجتماعية والبسيكولوجية. وايا ما كان فان «الفعل» ليس فقط تعقد حبكة الحوادث، وانما هو ايضاً كتلة كثيفة متحركة من الاحاسيس والانفعالات واستمرار لا يُقهر للحياة التلقائية.

ولكن القصة «تقع» في عهد او في مكان. وربما كانت عبقرية القصاص تظهر بأدق مظاهرها في وصف هذا الوسط. فلا يكفي مطلقاً استدعاء الكائنات، وجعلها ابطال حكاية، ودمجها في مغامرة او درام. وانما يجب قبل كل شيء اكسابها مظهراً مادياً، ومنحها وزناً من اللحم والدم، ولوناً للسحنة، ومرونة للحركة، وشكلاً للوجه المعبّر الحي. ثم ينبغي ان يقام حولها عالم برمته، عالم بشري وعالم مادي. فان الرواية الحديثة قلما ترضى بالعري والتجرد من الظروف والملابسات اللذين يميزان المآسي الكلاسيكية مثلا. ففي العالم البشري

يضطرب شخص القصة في اوساط اجتماعية مختلفة ؛ وهكذا تميل بنا ميزتنا في الوجود نحو هذه الجماعة او تلك، وتحدد لنا ارجاعاً معينة ، في حين ان الوسط نفسه يفتّح شخصية او يفسدها او ينحرف بها . واما العالم المادي ، فيستطيع القصاص ان يكون فيه شاعراً يصف الاماكن ويجعلها حاضرة مرئية . على ان « التاريخ » قد يدخل هذا العالم البشري المادي ، فيطبعه بطابع خاص . وبالاجمال ، فانه ينبغي للقصة ان تنقل الينا « حس الحياة » .

وهناك اخيراً عنصر هام يتصل بالموضوع ، وبوسعنا ان نسميه : **انسانية القصة** . إن القصة ليست هي الشعر ولا الاسطورة ، وانما تُوسم حدودها ضمن « المنطقي » و « القابل للانتقال والمشاركة » . فقد تبلغ المغامرات التي يقوم بها الابطال ، حداً بعيداً من الغرابة ، ولكنها تظل انسانية اذا بلغ ان توقظ في نفوسنا صدى ما . وانسانية القصة هذه ، هذا الشكل من « الطاقة الانفعالية » وما تحمله من معنى خلقي ، هو الذي يستجيب للمحتوى المعنوي ، وتحته يندرج الوسط البشري والمادي الذي يتلبسه الاشخاص ، والمد الزمني الذي يغرقون في امواجه ، وهذا النفس الشعري النافذ — وان كان لا يلمس — ، عناصر متميزة دون ريب ، ولكن حزمتها المشدودة تكسب القصة الحقيقية كل امتدادها وكل اشعاعها . وان جميع هذه العناصر التي تسمى « المحتوى المعنوي » تشكل حول العقدة « هالة » تشيع نورها الدقيق الباهر فتخلق الآثار العظيمة التي لا تنسى .

ومع ذلك كله ، فمن غير فن القصاص ، ومن غير تأليف دقيق بارع ، تظل القصة لا شيء على الاطلاق وتبقى اجمل الموضوعات تافهة بليدة .

ولكن هل هذا يعني ان هناك « موضوعات جميلة » ؟ وان هناك الواناً من الحوادث الخام تنطوي على ميزة قصصية خاصة ؟ الحقيقة ان اي حادث ، ابسط الحوادث واوفرها « تواضعاً » ، يمكن ان يكون موضوع قصة . وانما يكمن السر القصصي كله في « الرؤية » التي يأخذها المؤلف عن هذا الحادث . ولكن هذا لا يمنع ان يكون هناك « مناطق » من الوجود اصلح من سواها للاخصاب القصصي ، وهي محملة بطاقة قصصية خاصة لا تتمتع بها سائر المناطق . وبوسعنا ان نقسمها الى فئتين : الاولى تلك التي تخرجنا من جونا ومحيطنا اخراجا تاما ، والثانية تلك التي تستجيب وتستدعي أقدم احاسيس الانسان واحياها ، تلك التي تمس من اعماقنا اشد ما يهمها .

ولا شك في ان ادب ما بعد الحرب قد عرف هذا التعطش الى الهرب والفرار نحو الاحلام والتخيلات ولكن لا ننس عشرات الروايات التي تقوم على الاحساسات « الداخلية » هذه التي تؤثرها الاجيال الطالعة لانها تعالج مشكلاتها الذاتية . واياً ما كان ، فان هذين النوعين من الموضوعات : الخروج عن المحيط ، والحياة الداخلية ، مثقلان كلاهما بوعود قصصية واضحة فان طبيعتها بالذات تبدو ضماناً لحدّ ادنى من النجاح ، لانها يحملان اهمية مستقلة عن الشكل الذي يمكن ان ينموا فيه. وفي النوع الاول تدخل الموضوعات الاجنبية Exotique والموضوعات البحرية ، هذه التي ترضي فينا نزعات خيالية مسحورة .

واما ميدان النوع الآخر ، الحياة الداخلية ، فشديد الاتساع . المهم ان يعرف المؤلف كيف يمسّ ما في ذهن الانسان وقلبه من الافكار والاحاسيس الانسانية العامة .

وينبغي ان يُخص موضوع « الحب » ببعض التنويه ، فهو اشد الموضوعات اغراء للكتاب واجتذاباً لفنهم . والحق ان الحب هو السيّد الازلي لقلوب جميع البشر ، وانما يتصل بالفن اتصالاً وثيقاً لأن كلاً منهما يقذفاننا في حميّة عجيبة ، ويطلبان منا استسلاماً كاملاً ، فترتضي نحن ان نبذل لهما الموت والحياة على حد سواء . ومثل هذا اهمية موضوع الشباب الذي تدور حوله معظم الروايات اليوم والذي عالجه كثير من الروائيين الذين يختلفون اختلافاً كبيراً في مفهوم القصة ، امثال « جيد » و « مورياك » و « دوغار » و « لاكروتيل » و « مرسيل ارلان » و « برفوست » الخ.. وجميع هؤلاء وسواهم قد عنوا عناية خاصة بتصوير القلق الذي يتنازع نفوس الاجيال الطالعة. ومن الموضوعات التي تمتّ الى هذه بصلة موضوع الاسرة وتقويمها في ميزان الحياة الاجتماعية والفردية ، والاسرة هي بؤرة جميع العواطف الانسانية ، على اختلاف الوانها ، وهي لذلك مخزن درامائي شديد الغنى والثراء ، ويُعد فرنسوا مورياك اكبر كاتب نزح من هذا المعين . ولا ننس بعد موضوع الريف وما يكشف عنه من الوان محلية كانت وما تزال تجتذب الوف القراء ، فضلاً عن المشاعر التي لا يتاح لها من الانطلاق ما يتاح للمشاعر في المدن ، وهذا ما يكسب موضوع الريف

أهمية خاصة .

كل هذا يفضي الى القول ان هناك موضوعات نموذجية يبدو انها تحمل في ثناياها وعوداً بالروعة والعظمة ، وان الاقبال على استغلالها دليل قاطع على الاهمية التي ينبغي ان تُعزى للموضوع في ميدان الفن . وقد كتب ادمون جالو Edmond Jaloux يقول « ان اختيار موضوع جميل هو عنصر من العناصر الرئيسية لعظمة قصة ما . » والحق أن فكرة الرواية متصلة اتصالاً وثيقاً بفكرة الموضوع ، وفكرة « موضوع الرواية » هي نفسهـا تتضمن عناصر الانسجام والديمومة والمنطق . وبكلمة واحدة ، انما تجد الرواية نقطة ارتكازها في الموضوع ، على ان من الضروري الا نعزو الى هذا العنصر اكثر مما يستحق من اهمية ، فان الرواية المعاصرة تمتزج امتزاجاً كبيراً بعلم النفس وتبدو نفسية في جوهرها . فلا يكفي ان يقال : هذا موضوع روائي رائع ، وانما ينبغي ان يُعاش هذا الموضوع من جديد وان يخلق ويُحرّك بحياة جديدة فريدة ، وان يُعتبر من الزاوية الداخلية .

٣. العقدة والاشخاص

تحدثنا عن الموضوع حتى الآن ككيان منعزل ، ناظرين اليه اجمالاً من خارج القصة . وهو في هذه الحال ليس الا فكرة مبهمة ، مخزناً لقصص ممكنة ولكنها غير محققة بعد . انـه الشرارة الاولية التي يمكن لها ان تنطفىء او تحول نيراناً رائعة اللهيب . وهنا يمتزج في الحق مصير القصة ومصير القصاص . ولكن ما ان يفكر القصاص بخلق القصة حتى تكون هذه قد قامت هيكلا ، وهذا ما يؤكد لنا نسبية التمييز بين الموضوع والشكل ، هذا التمييز الذي نلجأ اليه لمقتضيات منهجيـة بحت كما ذكرنا آنفاً .

تلك اذن هي اللحظة التي يولد فيها الاثر من مُضغة مظلمة لا تكاد تتميز ، فتبرز رويداً كائناً محدداً : اذ ذاك تلتقى كثير من المعطيات المتناثرة فتنعقد لتتخذ شكل « حكاية » منسجمة . والحق ان القصة هي اولاً « حكاية » . وما الحكاية ان لم تكن عقدة حوادث وعواطف تجري في الزمن ويضطرب فيها اشخاص ربما كانوا خياليين ولكنهم من مظهر الحياة بحيث يبدون لنـا اشخاصاً من لحم ودم ؟ في هذه الحكاية بالذات تكمن حبكة الاثر ، مادة تؤلف الحقيقة فيما هي تتألف من عناصر مختلفـة ، بل حتى متناقضة ، تشكل امتزاجاتها واصطداماتها وتداخلهـا فيما بينها العقدة الصلبة ، النواة المقاومة التي تتخذ فيهـا القصة

مركز الثقل . وعلى هذا الاقتران بين العناصر وتداخلهاينهض المبدأ المحرك للقصة . وهناك طريقتان لتحقيق هذه العقدة : فهي تولد اما من تسلسل الظروف ، او هي تتحدد بنفسيات الاشخاص . على ان خير القصص ما حقق هذين العنصرين جميعاً « بتعديل » متساو يجعلها في توازن منسجم . ولكن ذلك لا يعني ان القصة التي تغلّب احدهما على الآخر ليست قصة جيدة . فان غلبة العنصر البسيكولوجي هي التي تميز القصة الفرنسية المعاصرة وترفعها الى مرتبة سامية ، في حين ان غلبة العنصر الدرامائي تميز القصة الاميركية التي يمثلها فوكنر من هذه الناحية خير تمثيل . ولعل بوسعنا ان ندعو « القصة التحليلية » تلك التي يحتل فيها العنصر البسيكولوجي المكان المفضل ، بينا ندعو اللون الآخر من القصص القصة « المتطوّرة » Progressif فأما الاولى فتتناول الشخص في جوهره العميق الثابت ، واما الثانية فتتناوله في لحظة « أزمة » اي في لحظة يوشك فيها شيء ما ان يتغير في نفسه . الشخص في الاولى ، هو « كائن » ، وفي الثانية هو « صائر » . ولعل هذا يكفي للاشارة الى ان الطريقتين تتميزان بمسلكها . ثم ان القصة التحليلية لا تخضع للزمن القابل للتحديد ، فان قانونها الاوحد الزمن الداخلي الذي يتقلص او يتمدد من غير نظر الى سير الاحداث . وان بوسعها ان تقف متى شاءت لتتعمق في الحفر . انها تصور حالة نفسية ليست جامدة بالطبع ولكن تغيرها مستقل متحرر من عبودية الظروف الخارجية . واما القصة « المتطورة » فتسير بخطوة حثيثة ، لانها تنهض أساساً على العنصر العملي او الدرامائي ؛ ولان عليها ان تتقدم بالحادثة وفق الزمن الطبيعي دون ان تفسد جوها باعتبارات بسيكولوجية مبالغ في دقتها . ويقوم الفن في هذه الحالة على سَوق الظروف الخارجية وتنظيمها بحيث ان النتائج النفسية تنبع منها من تلقاء نفسها من غير ما حاجة الى الالحاح عليها . والحق ان القصة ليست نظرية تنتظر اثباتات دقيقة . ان عليها في وقت واحد ان ترضي متطلباتنا المنطقية وتطلّعنا الى الطاريء . وهنا يتاح لمخيلة القصاص ان تبرز قيمتها فتكون مساعِدة للمصادفة . ان بوسعها ان تستدعي أبعد الامكانيات وتسوقها الى التحقيق ، والمهم هنا ان ُتعدّل تعديلا ذكياً مثقال السر والخفاء . وبالاجمال فان خلق الاحداث وتنظيمها في قصة العقدة انما يبرزان كمشكلة لا تحلّ الا تدريجياً وبالايحاء . والعمدة في ذلك كله القدرة على خلق حس « الانتظار » لدى القاريء ، وهذا ما يبرز جلياً في رواية كرواية « جريمة » لجورج برنانوس Bernanos التي تعتمد على الطريقة الاشارية الايحائية ، والتي تخلق الانفعال الذي هو الوسيلة الاولى لنجاح قصة ما . ولكن ينبغي ألا يقوم هذا الانفعال على دس الكوارث والفواجع والاحداث المؤثرة من غير فن ومعرفة ، وخلافاً لمعطيات « احتمال الوقوع » . وهذا ما كان توماس هاردي Thomas Hardy يتفادى منه في قصصه .

وطبيعي انه ليس ثمة عقدة من غير اشخاص . فالواقع ان هذين العنصرين متكافلان متضامنان ، وليست القصة في الحق إلا تراكبهما المستمر . إن الاحداث تبرز على المسرح كائنات ينبغي ان تطابقها وتتأثر بها وتؤثر فيها ، وإلاّ بدا هؤلاء الاشخاص دمىً تحرّك من الخارج . إن القصة تفترض كمتطلّب اول مشاركة الشخص مشاركة اساسية في « العمل » ، وتتصوّره غارقاً فيه بكل قواه الحية ، منخرطاً في ثناياه حتى أعمق اوتاره ، ومن هنا قام اعتقادنا بان القصاص الحقيقي هو الذي يكون خلق الحادث وتصوّر الشخص عنده مرتبطين برباط المعيّة ، ما دام الحادث والاشخاص يتحددان بالتبادل ، وما دام وجودهما بالذات متصلاً في الاساس . وفي هذا تستوي القصة التحليلية والقصة المتطوّرة . فمهما كانت الاولى مجرّدة عن المغامرات الخارجية ، فهي تحتمل « نشاطاً » للأشخاص . إن الدرام الداخلي يؤدي الى « مسلك » ومن يقول « مسلك » يقول « عمل وحركة » وحتى لو كان بطلٌ ما منعزلاً في غرفة ، فهو يتصرف بهذه الطريقة أو تلك تصرّفاً يكشف عن المميزات الرئيسية لشخصيته . ولما كان جوهر القصة ان تضمّ اشخاصاً ، فان واجبها الاول ان تجعلهم يتحركون ويضطربون وألا تتركهم كالدمى الجامدة أو « كألسنة حال » لا روح لها ولا حرارة . ولن تكون القصة قصة إن هي انبسطت تحليلاتٍ مجردة . وإنما ينبغي للتحليلات ان تتّحد في اشخاص محسوسين . ولهذا كان من اولى واجباتها ان تخلق مادّية الاشخاص وان تكسبها ثقلها من اللحم والدم . ومن اجل تحقيق هذا « الحضور » المادي ، لا حاجة الى الاوصاف الطويلة الدقيقة التي لا تنتهي . فلا ريب في ان « فن الموجزات » دلالة لا تنكر من دلالات العبقرية . فان خطين أو ثلاثة تكفي غالباً لنصب شخصية في مظهرها الفيزيائي ، وغالباً ماتكفي هذه الخطوط كذلك للايحاء بالميّزات الاساسية لشخصية معنوية . فقد اكتفى « فلوبير » مثلاً ببضعة مقاطع

لينصب شخصية شارل بوفاري قوية حيّة كثيفة الحضور. ومثل هذا ايضاً فنّ القاص الفرنسي « مرسيل ايميه » Marcel Aymé والقاصة الشهيرة « كوليت » Colette .

على ان تحديد الشخص بمظهره الخارجي لا يخلقه برمّته . فهناك الحركة والنظرة والصوت ، وكلها مثقلة بطاقة غنية من المشاعر ، هي التي تجتذبنا وتصِلُ بيننا وبين اشخاص القصة . وهكذا يكون القصّاص الحقيقي إلهاً يصنع كائنات قادرة على ان توقظ فينا تعلّقاً مهووساً يبلغ دائماً ان يجعلنا نتحد بهذه الكائنات. ذلك انه يكون قد تصوّر طويلاً اشخاصه و « حملهم » في نفسه قبل ان « يضعهم » . ولكن هذا لا يعني انّ هؤلاء الاشخاص يخضعون ابداً لخالقهم يتصرف بهم كما يشاء ؛ فهو ما ان « يضعهم » حتى يستقلوا بحياتهم ويضطربوا وفق مشاعرهم ؛ من اجل هذا ، يخفق كثير من القصاصين حين يسوقون ابطالهم الى اعمال لا تتفق والطبيعة التي خلقوهم عليها . إن الفن القصصي الصحيح يقتضي المؤلف ان يمّحي امام مخلوقاته ، ان ينسى نفسه ، وان يدَع لهم تلقائيتهم ، ان ينظر اليهم يعيشون عيشتهم وهو قائمٌ في عزلة لا تتطرق اليها الشكوك ، لأن القصة لا تقر الرؤية النقدية إلا منقولة ومتحدة بمادة الدرام نفسها منبثقة مباشرة عن الابطال . من اجل هذا نرى كل شرح ايديولوجي مضراً بها ، لأنه يصرف القارىء عن الدرام ، ويقف الاندفاع الذي يقوده الاشخاص بواسطته ، فتكون هذه الوقفة كافية لاشعار القارىء بتدخل المؤلف وآرائه ونظرياته التي تبدو آنذاك عناصر شاذة خارجة على الحبكة أو بكلمة واحدة : مُركّبة . وبالاجمال ، فان العلاقة بين المؤلف واشخاص قصته هي علاقة « الابوة القلقة » التي تسوق الكاتب إلى ان « يعدّل » بمقياس دقيق مثقالَ الحرية التي يدَعها لمخلوقه ومثقالَ الرقابة التي يواصل ممارستها عليه . فهو ابداً حاضرٌ غائب في قصته .

٤ — البيئة والزمان

ليست العقدة والاشخاص ، على اهميتها ، هي عناصر القصة الوحيدة . فان القصة التاريخية والقصة الاجتماعية والقصة المحلية وحتى القصة النفسية تكشف عن عناصر اخرى لا تمت الى العقدة ولا الى الاشخاص . ولا شك في ان المهمة الاولى للقصة ان تخلق كائنات حية تنخرط في درام . ولكن السرّ القصصي يكمن في ابتعاث هذه التفاصيل الدقيقة التي تؤلف « الاطار » او « الجو » او « العالم » القصصي . فمن غير هذا الجو ، وهذا « الغبار » من التفاصيل واللمسات الموجزة الموحية ، يظل الاشخاص دون ما حياة . وهذا الجو هو الذي ينم حقاً عن « مزاج » المؤلف ، وهو هذا الاثير الدقيق الذي يسري بين حركة الاشخاص ونفسياتهم . والذي يملك غالباً القدرة على خلق عالم حي مائج بمظاهر الحيوية . والحق ان على كل قصة ان توحي بلمسات دقيقة ومصوِّرة الجو الذي تتموضع فيه . على ان القصة الواقعية ينبغي ان تتفادى من التعداد الدقيق الذي ليس هو الا صورة حائلة عن الواقع ، وان تنهض على مبدأ « النفع » ، وهو المتطلب الداخلي للأثر ، كل ما يساعد على تناسقه وانسجامه واشعاعه . فان القصة التي تحتوي مثلاً على كمية كبيرة من المقاطع الوصفية تتحول إما الى قصيدة شعر او تندرج في الوثائق وهذا ما يضعف بعض النتاج القصصي الحديث في اميركا ، كنتاج تيودور دريسر Dreiser وسنكلير لويس Lewis وسواهما ، حيث تبدو كثير من الاوصاف تافهة

لا فائدة منها . والحق ان « الفن » لا يستطيع ان يخلق الشعور بالحياة اذا حرص حرصاً مبالغاً فيه على التدقيق في وصف الطبيعة كما هي تماماً . ان الفن ليس صورة امينة للطبيعة . والحقيقة في الفن هي « الرؤية من الداخل » ، وقوة الفن تكمن في ان يشمل حداً اعلى من المعنى في حد ادنى من التعبير ، قوته هي في ان « يوحي » لا في ان يصف كل شيء بدقة ، وهكذا تتم المشاركة الايقاعية بين البيئة المادية والبيئة الانسانية. ولعل اول مثال على ذلك رواية « مولن الكبير » من تأليف الان فورنيه Alain Fuornier . وفيها يرتفع المؤلف الى صعيد الروائي — الشاعر ، وتمثل البيئة دوراً هاماً من ادوار البطولة في الرواية . وهذا ايضاً هو شأن بعض روايات جوليان غرين Julien Green التي يحتل فيها الايحاء مكاناً كبيراً ويشع جواً قصصياً عظيم الغنى. والحق ان « وهم الحياة الواقعية» الذي نحسه في القصة انما يتركز في الجو ويتولد من علاقة الشخص ببيئته التي تحيط به .

على ان القصة فنّ يؤلف كينونته في « الزمن » ؛ فان تأمل الاثر بالذات يُسجَّل تحت قانون الزمن ، وسبب هذا « التزمين » اذا صح التعبير يرجع الى الوسيلة نفسها التي يستعملها الفن الادبي : اللغة . فان تركيب الكلمات بالذات يقوم هنا كمساعد للفكرة لأن كل ما هو «منطقي» يفترض مبدأ الحركة والتتابع والصيرورة.

وهكذا يكون على القصة ان تمدد « اللحظة » لتسجل معية الأحداث او الظواهر المتميزة . ذلك ان هذه الأحداث والظواهر يمكن ألا تكون منفصلة في الزمان كما هي في المكان. وان زمان القصة غير قابل للقياس مع زمان القاريء ، لأنه يستبدل بزمان القراءة الزمان الذي يعيشه الأبطال . وهؤلاء يفرضون علينا زمنهم الذي يضاف اليه زمننا ، ومن التقائهما يحدث التفسخ عن الزمان الفلكي . ولكي يكون احساسنا بوهم الحياة كاملاً ، فان على القصة ان تدمج بحكايتها شعوراً بالزمان في الابعاد الطبيعية التي ندرك في اطارها هذا الزمان . ان الزمان ضروري من اجل ان يتوضح المزيج الذي يقوم فيه الدرام ، لأن كل عقدة لا بدّ لها من ان تحل عن طريق الحركة ، اي مجرى الزمن . وهكذا يتحدد الزمان بتقلص الزمان الخارجي او تمدده في الزمان الداخلي ، اي في نفوس الابطال. انه ليس الا الزمان المنعكس في حساسية ، وان مهمة القصاص الرئيسية ان يبرز هذا الانعكاس حياً بالطرق المتنوعة التي ينتجها حسب الافراد . وهذا ما وفق اليه الروائي الفرنسي العظيم مرسيل بروست Proust والكاتبة الانكليزية فيرجينيا وولف Viriginia Woolf . ولكن من الضروري ان تكون علاقة اللحظات الموصوفة وثيقة فيما بينها ، لأن القصة ليست لوحة وانما هي حكاية تتألف من تتابع الاحداث الداخلية والخارجية . ولا ريب في ان « الموقوت » لا يستطيع ان يظل في الزمان متفرقاً عن كل موقوت آخر كما هو الشأن في المكان. فالترابط هنا امر على غاية الاهمية ، بحيث يكون الزمان استمراراً لا انقطاع فيه ، ذوبان اللحظة في اللحظة .

وبالاجمال يمكننا القول بان القصة انما تستمد مدافئها وحرارتها ونبضها بالحياة الفريدة من الميزة الحيزيّة والزمانية للبيئة . ولكن هذه العناصر الثلاثة : العمل والاشخاص والوسط هي قوى ينبغي ان تترابط وتتواصل حتى لتخلق كلاً واحداً منسجماً حياً يكمن فيه إعجاز الخلق الفني : إكساب الحياة « نائباً » عنها اوفر حقيقة وحياة منها هي بالذات .

٥ . أخلاقية القصة

لئن كان بديهياً ان القصة لا غاية لها الا هي بالذات ، ولئن كان قانون كينونتها الاساسي خاصاً بها ، اي جمالياً محضاً ، فهذا لا يمنع ان معظم القراء يبحثون فيها عن معنى فلسفي او على الاقل عن خميرة اخلاقية . ونوضح فنقول خميرة للتفكير الاخلاقي لا بناء اخلاقياً بالضرورة .

والحق ان مهمة القصاص لا تختلف عن مهمة الخالق : انه يبتعث عالماً ويعجن مخلوقات ناشطة يكسبها المسالك والحركات مظهراً وكثافة ولكن الحياة ليست الا حالة ، لا مزية . وهي لذلك ، اي على انها حياة خام ، تستطيع ان تتلبس الف وجه ، ونحن مجبرون في الحياة اليومية على ان نقبل هذه الوجوه جميعاً . ولكننا مع ذلك نفضل بعض هذه الوجوه على سواها ، وتستأثر بعواطفنا دون الآخرين ؛ وهكذا ترانا نحب ابطال قصص معينين ونتخذهم لنا اصدقاء . على انه يجب ان نفرق بين هذه العاطفة وبين الحكم الذي نصدره على الاثر الذي بين ايدينا . فالاولى تمتّ الى الذاتية والثاني الى الموضوعية ، وشتان بينهما .

ولكن لماذا يكتب الاديب؟ إن الاديب الحق إنما يكتب

بدافع من حاجة داخلية لا مفر له من مواجهتها ؛ إنه يكتب ليبحث اولاً عن نفسه ثم ليجدها ثانياً ثم ليتحقق اخيراً في الأثر الذي ينتجه . وإن من يقول « اديباً » لا يعني « نزهة » وانما « وعياً » . وإن مهنة الادب تمتاز بهـــذه الخاصة ، وهي ان صاحبها ينخرط فيها كلياً ويمارسها بأعمق اعماق نفسه ويصب فيها جوهر ذاته في لحظة معينة . وبوسعنا القول إن الاديب كائن أشد قلقاً من الآخرين ، إنه قلق وفضولي تجاه معنى مصيره ، وتجاه روح العصر الذي يعيش فيه ؛ إنه رجل لا يستطيع ان يعيش دون ان يتساءل لماذا ، وكيف . ومن هنا تنشأ «الضرورة» والحاجة ، ومن هنا كان الشرط الرئيسي للأثر الفني ألا يكون « لا مبالياً » لا لون له . والفن الحقيقي هو الذي يوفّر لنا في وقت واحد متعة جمالية رفيعة وتحريكاً عميقاً لما يهم حياتنا بالذات . والاثر الفني الحقيقي هو الذي ينخرط فيـــه المؤلف بكليّته و « يلتزم » برمّته . ففيه يتبادل الانسان والفنان الغذاء ، دون ما هدنة ، ويتكاتفان ويبرّر احدهما الآخر . وهكذا يكون الاثر في وقت واحد سروراً وواجباً ، رضى وتضحية . وقد قال فرانسوا مورياك : « إن قيمة اثرٍ ما هي بقـــدر ما ينعكس فيه مصير ما » . على ان ما يصبُّه القصاص من نفسه في قصتـــه ، ليس هو شخصيته وحياته كما تمثّلا في الواقع ؛ إنه لا يعطينا ترجمة حرفية لتجربته المعاشة ، وانما تتصـــل قصته بـ«طاقته الخلقية» . إنها تعكس شكلاً أكثر مما تعكس محتوى ، نزعات اساسية لا اعمالاً أو عواطف ناجزة ؛ إنها تشير الى «اتجاه» وتعبّر عن رؤية للعالم ، وليست هي مطلقاً اعترافاً عن حيـــاة خاصة . وهذا ما يبرر قولنا : « إن القصة ينبغي ان تصدر عن فلسفة للحياة » . فبفضـــل هذه الفلسفة الملازمة تكتسب القصـــة لهجتها الانسانية في أشمل مظاهرها وأعمقها ، وتُستجيب لمطلب القارىء الذي ينشد خميرة للتفكير الاخلاقي . والحق ان كل اثرٍ عظيم انسانيٌ بمعنى انه يتغـذّى من مشاعر الناس وينسجم مع مطالب تفكيرهم . وليس انساناً ذلك المخلوق الذي لا يعترف بغلبة الفكر ويؤثر الاستسلام لجذبات القوى المظلمة اللاواعيـــة الهدامة التي تراود نفسه . وربّ قائل يقول إن في هـــذا هدماً « للحلم » الذي يقرّه الفن . والحق ان ليس في ذلك هدم للحلم وانما فيه صهرٌ له ببوتقـــة الاثر بحيث يمتنع على الهذيان والهذر ويتخذ معنىً مشرقاً . وفي هذا يكمن « معنى الاثر » . إن الاثر الفني ، بقدر ما هو انساني ، قادرٌ عـــلى ان يلقى الوف النداءات وفق المستمع الذي يتلقّى صداه ، لأن « الانسانيّ » الحيّ المتحرك المتعدد الاشكال يتلبس آلاف الوجوه المختلفة وهكذا يكون معنى الاخلاقية ، في الاثر الفني ، الاهـــتمام بالشخصية الانسانية ، تسجيل «اتجاه» الانسان ، اياً كان « بعده الثالث » ، البعد الاخلاقي .

وبعيد عن ذهننا ، اذ نقول هذا ، ان نطلب الى كل بطل قصصي ان يكون في ذاته مسرحاً للصراع التقليدي بين العاطفة والعقل ، بل نحن نكره ان نقوّم اثراً قصصياً مـــا على اساس مقياس خلقي ، او ان نَكل اليه مهمة بناءة او تعليمية . ان اول مهمة للقصة ان تكون « هي نفسها » ، اي اثراً فنياً يبتعث بقوة امام عيني القارىء مخلوقات حية منخرطة في درام . ولكن يبدو جيداً ان هذا المطلب الفني لا يُملأ الا اذا كان العالم المصوّر ينعم بجميع الأبعاد المحسوسة والمحتملة الوقوع ، والا اذا كان نوع من «الكمال» الانساني يتفتح فيه . وهذا يتأتى للمؤلف على اشكال عدة : فهو تارة يتحقق في تركيب الرواية نفسها (تنظيم الظروف والعلاقـــات ذات المعنى بين الاشخاص) وتارة في فن موضعة القصة حسب منظور خاص (ادراج فلسفة — خفيّة دون ريب — ولكنها تدفع بنا الى رؤية للعالم يقوم فيها كل شيء في موضعه الطبيعي والنسبي) . فليس الامر إذاً ، باي شكل امر «وازع اخلاقي» وانما بكل بساطة امر «مطلب انساني» . والمعجزة هنا هي في أن يتلاءم هذا المطلب مع المطلب الفني ، كما هو الشأن في كثير من مؤلفات الكاتبة الاميركية بيرل باك Pearl Buck ولاسيما روايتها « الام » .

ولا ريب في ان خير لون قصصي يتلاءم مع هذين المطلبين هو لون « القصة الاجتماعية » التي تقوم فيها غالبـــاً الدعوات الانسانية الى البطولة او الثورة او اي شكل من اشكال العمل الجماعي . ولعل الادب الذي يبتعد اليوم عن الطريق الذي تشقه أمام الجميع هذه « الجبرية » التاريخية التي تتلخص في « تغيير مجتمع ما » ، لعل مثل هذا الادب يوشك ان يسقط في التفاهة والخلو من المعنى . ولكن ينبغي الأثر الفني مع ذلك الا يوضع لغاية « منفعة » ؛ فهو حتى اذا حُمِّل رسالة اخلاقية ، فينبغي ان يتفادى من الخطب الداعية الى الاخلاق (والحق ان رواية تولستوي « بعث » انما تفسدها مثل هذه النزعة) وان « قصة الفكرة » Roman à thèse هي دائماً قصة رديئة اذا لم تقم فيها الفكرة بصورة ضمنية ، واذا بُسطت بشكل نظريات بدلاً من

ان تنبثق انبثاقاً من الدرام او من نفسية الابطال .

٦. التحوير والتأليف

سبقت الاشارة الى هـذه الكلمة فيما تقدم . والحق ان التحوير هو أهم ما تنهض عليه القصة الناجحة ، وبوسعنا ان نعرفه بانـــه « رؤية القصاص الشاعرية » . وبالرغم من ان القصة فن تصويري ، واوفر الفنون شبهاً بالحياة ، فهي في جوهرها تخيّل Fiction ولكن في حـدود احتمال الوقوع . والحق ان ادب السنوات الاخيرة قد بالغ في حس « الوثيقـــة الصحيحة » Document authentique و « الشهـــادة » Témoignage ، وكشف عن نزعة خطرة لتمجيد اشكال الحياة البدائية . ومما لا شك في خطره نقل التجربة كما هي ، اي بطريقة خام ؛ وهذا في الواقع هو ادب المذكرات واليوميـــات ، لا ادب القصة الفنية . فان هذه تقوم على الاختيـــار والحذف والاسقاط والتحوير وتنظيم معطيات الواقع الخام ، وتشكل بذلك كلاً محدوداً يتجه وجهة معينة . والواقع ان التسجيل الآلي للوقائع والاحداث لا يرضي نزعاتنا على الاطلاق ؛ فان الحياة خليـط غير منسجم تمتزج فيه الانظمة امتزاجاً ؛ وان فيهـا « لحظات جوفاء » و « اوقاتاً ميتة » اذا نُقلت الى القصة كما هي أثقلتهـا باعباء تافهة لا نفع فيها . ولئن كان الرسام الحق يهتم بالواقع ، فانه مع ذلك يملك حس القيم والاشكال والالوان والتأليف المنسجم الموحي ، والا فحسبه الصورة الفوتوغرافيـة . وحتى المصور اليوم يجهد في تفســير الطبيعة وتحليلها ابتغاء التأثير فينا .

إن قانون الفن الحق الذي لا سبيل الى مخالفته هو ان يستمدّ الفنان من الطبيعة ، ولكن شريطة ان ينتخب ويختار التفاصيل الاساسية ويكسبها وجهاً جديداً ، ويجمعها و« يبنيها » وفق ايقاع بديهي ، وان يوحي واقعاً أحيا وأشد تعبـيراً وأعظم توتراً من الواقع الطبيعي . إن الفن ليس هو الحياة ، وليس هو صورة امينة عن الحياة . إن مهمته ان « يعيش الحياة » ، ان يؤلفها من جديد ، ان يحمّلها نزعة شاعرية ما . إن الفن يتغذى من الحياة ليخلق شيئاً آخر ، هو « الأثر » ، وان الاثر لايتم من غير اختيار وتضحيات وتجارب وجهود ، من غير انقطاع سابقٍ عن الحياة يتموضع الفنان بفضله في صعيد آخر . ان الحقيقة في الفن تكمن حيث تتجاوز الحياة الى سموّ . وان عبقرية القصة تحيي الممكن ، ولا تحيي الواقع مرة اخرى .

اما التأليف فإنه أشق جوانب العمل القصصي بمعنى انه يسجل عبر الالهام الحيّ النابض ذروة الوعي المستيقظ ، الدرجـــة القصوى من الانتباه النقدي . وهو في الحقيقـــة ذروة ، لأن مقدرة الكاتب كلها تتجمـــع عندها . وإذا كنا نتحدث عن التأليف آخر ما نتحدث ، فليس ذلك يعني ان التأليف يأتي في هذه المرحلة ؛ فهو ينهض منذ ان يفكر الكاتب بقصته ، وانما نذكره الآن لضرورة منهجية بحت . فالحق ان الكاتب يبدأ التأليف ما ان يفكر بالموضوع ، إذ هو يحرّك مفاصل الحبكة على اختلافها ويلحظ جريها المنطقي التدريجي ، و « يرى » ابطاله من الزاوية القصصية بعد ان يخضعهم للتحـــوير فيموضعهم في مراكزهم ويجعلهم يعيشون ، فيما هو يؤلف .

وقد نستطيع هنا ان نجعل « التعبير » مرادفاً للتأليف ، إذا اخذنا التعبير في معناه الداخلي والخارجي ككلٍّ يندرج تحته اللغة ونفسية الاشخاص وتأليف الحادث والجو . وليس لذلك اية قاعدة دقيقة . إن كل عبقرية تخلـــق لنفسها نظامها الخاص ، وليس ثمة ما هو امرن من الاصول القصصيـة . لأن الفن بالجوهر متنوّع المظاهر الى أبعد الحدود .



كانت تلك النظرة هي ما تزدحم بها عيناي ، وقد حملقت كئيباً مضطرباً فيما يلوح امامي من مسافة قصيرة تفصلني عن هذه التي وجد المكان لكي يجعلها نائية ابداً عني . ولكن في لحظة ، ما انبأ عنها إلا حدسي السحري ، قدر لها ان تقف وقفتها تلك امامي ، وان تنبثق انبثاقة الماضي الذي جعل كل حاضر يليه اشبه بالوهم ، فكان سريعاً دائماً باضمحلاله وانحلاله الى ماض ثانوي ، يقبع تافهاً على حوافي ذلك الماضي الاصيل الشامخ .

وكلمة (شامخ) تذكرني بلفظة اخرى ، كنت اغمغم بها ، ولا انفك الصقها بشفتي ، فتكون اقرب إلى التعبير والتلفظ كلما دفعني موقف الى ان افصح عن تفاهتي الارثية،اذا ما جابهت شموخاً ارثياً. فأقول انها (الانوف) انها العنجهية، انها (العز) . وكأني ، في نفس اللحظة ، اقول نقائض هذه الاوصاف ، ولا اجد غير ذاتي الصقها بها ...

وكنت احسبني ، بل كنت اعد نفسي طيلة السنين الاربع الماضية ، لموقف ، اذا ما صدفتها فيه ، ولا بد لي ان اصدفها يوماً ، فسوف تنقلب الاوضاع عما كانت . ستنقلب لحسابي . وسيتاح لي ان اعرف لذة النصر ، بعد ان لم اكن اشتغل إلا بفلسفة خائبة مندحرة ذلول .

ولكن ها هي ذي الصدفة الحاسمة . وها هي الاوضاع تجد عسراً اذا ما حاولت انقلاباً . انها تفضل ألا تتزحزح . ولم لا ، ما دامت لا تجد تلك القوة الخارجية التي ستقلبها ؟

ماذا سأقول،إذ ينبغي اخيراً ان اقول شيئاً ؟ ام انني سأنتظر ان تبادرني هي اولاً ؟ ثم اقنع انا بالتالي بما في الجواب من قيمة سلبية ؟ هل ستكون محصلتي بتمامها اجوبة فحسب ؟ أليس لدي ما ابادر بـه ، وابادر خصباً عنيفاً (انوفاً) ؟ !

لقد بادرت يوماً على هذه الطريقة التي آمل بها الآن . كان هذا يوم حاول ذلك النحيل المعروق ، المشدود ابداً ، بين قطبي الارض والسماء ، كوتر لا يصدر عن توتره الا صوت نشاز مؤذ ... حاول ، في اصيل اليوم الذي عدت فيه من الجامعة الى القرية ، ان يمثل امامي دور السيد الازلي ، ويؤكد دوره هذا ، إذ احس كأن شيئاً جديداً بي يهدد سلطانه ... ثم هناك امر آخر:هذه العسجدية البشرة، الظالمة في قوة انطباق شفتيها الرقيقتين، المتحدية في دقة انفها ، العنيفة النهمة في تحديق نظراتها الواضحة الكاشفة ...

اذن هذه الفاتنة (الانوف) كانت الى جانب ابن عمها النحيل المعروق ، ممتطية حصانها خارج الكوخ . وعلى الباب وقف شيخ فلاح بدا انه اكثر شبهاً من اي فرد آخر اذ يجمعه المنظر في تلك العشية الساجية الغبراء بالارض المحروثة الشاحبة تحت اشعة الاصيل ، الارض ... ارضه التي ستضمه قريباً الى احشائها .

وان اي غريب آخرغيري يمكن ان يستمع الى حديث (آصف بك)، دون ان يجد فيه ما يبعث على هذا التحفز الذي بدا انه يشد اعصابي ويقلص عضلاتي شيئاً فشيئاً . فهو حديث صاحب عمل الى كبير أجرائه : الرجل المسن الذي خدم هذا السيد وخدم اباه من قبله :

— يا عم ! لقد كان يجب ان يجنى المحصول ، على الاقل، قبل اربعة ايام ، وكان يجب .. ويجب .. ويجب .

(يجب) هذه لن تنتهي على لسان هذا (الآصف بك) .

ولكن الشيخ كان ابي . وفي تلك الامسية بالذات ، لم يكن مستعداً لأن يتقبل اي امر . فهو لم يعد مجرد فلاح ، يعمل من اجل صاحب الارض. انه ابو رجل مثقف ، يحمل ما يؤهله لأن يحترمه الجميع .

صحيح انه لم يرسله هو الى المدرسة . وانه لم يكن يستطيع ان يسد مصروفه المدرسي . بل كانت كل قدرته هي في ايوائه الى داره خلال عطل الصيف . وصحيح انه لا يعلم كيف كان ابنه الصبي ، اثناء دراسته الثانوية يسد حاجته الى المال ، بعد ان توفيت ام (سامية) ، الفتاة التي تمتطي حصانها خارج الكوخ الآن . وقد كان يمكن ان يبقى معتقداً بان ابنه يقوم باعمال خاصة ، يجهل هو كنهها ، في المدينة ، لا تتطلب منه وقتاً وانما تدر مالاً. كان يمكن ان يستمر على هذه الحال ، لولا ان ابنته الكبرى ، والتي تعمـل وصيفة للآنسة (سامية) ، قد كشفت له حقيقة الامر امس فقط : ان ولده (امجد) لم يكن يعمل بمثل تلك الاشغال السحرية التي تدر المال دون ان تتطلب وقتاً... ولكن الاعانة المالية التي كانت ترفده بها ام سامية ، استمرت بعد وفاتها، على يد سامية نفسها، تنفيذاً لبند سري جاء في وصية الأم المتوفاة. وكان المال يرسل بانتظام الى أمجد عن طريق اخته الكبرى التي كتمت الامر عنه ، وعن بقية العائلة . وظل امجد يعتقد ان اخته ترفده بالمال من ابيه . وسارت الامور ، دون ان يحصل ما يبعث على كشف حقيقة الحال ، الى ان اخبرت اخته اباه ، بعد ان انتهت دراسته ، بواقع الحال . ولكن الأب لم يجرؤ بعد ، على مكاشفة ابنه .

ومع ذلك ، شعر ابي بان لديه من الاسباب ما يجعله ، على الأقل الآن ، يتجاهل حقيقته التي خضع لها منذ ان ولد في ارض الاسياد..وهي ان يكون عبد ارض الى الابد . وكان يمكن ان تنتصب قامته اكثر وهو يحاول ان يقف امام (البك) ولكن تذكره لمصدر المال الذي انشأ ابنه وثقفه حد من انتصابه ذاك . وظل رأسه بين مرتفع ومطأطيء . ولكن دور الانسان الاشم ذي الكرامة الحية ، كان عليّ وحدي انا ، ان امثله . فامتثلت للحال

أرد واحاور وادافع ، امام ذلك النحيل المعروق . وكانت لهجتي تشتد حدة كلما لمحت تأييداً غامضاً في نظرات سامية الي. وأما ان لهجتي ستمتد الى اكثر مما يحتمله الموقف كما قدرته ، ويخرج الصراع من حدود الكلام الرزين الى الاهانات ، بل الى الضرب ؛ فهذا ما لم اكن اعد نفسي له . بيد انه كان علي ان افهم نظرات سامية اكثر واعمق مما فعلت ، وأنا ارقب تلك الضربات الرشيقة العصبية التي كانت تداعب بها سوطها . وكأن هذه الضربات إيقاع هذا الصراع ، يشتد باشتداده ، ويتضاءل بتضاؤله . ويشرد عنه ، فيخرج عن لحمته؛ يريد ان يقود توتر الصراع لا ان يقوده الصراع .

وفجأة انقلبت سامية ضدي وصاحت بي :

— ومن انت يا هذا ، الا تعلم انك وأهلوك وعشيرتك واجداد عشيرتك دمهم ولحمهم من مالنا وفضلنا ... وما كفى هذا ، حتى اصبحنا نعلم ابناءهم ، من مالنا ايضاً ، لكي يتدربوا فيما بعد على مناقشتنا واهانتنا .... كان يجب أن اصفعك بهذا من البدء .. خذها !

ولعلعت فرقعة السوط على عنقي .

★

.. ولكني تزوجتها . وقد حصل ذلك بعد شهرين من فرقعة السوط . لم تكن آثار ضربات السياط تؤثر في جلود قومي طويلاً . ورغم يقيني ان على جلد ابي فرقعت عشرات الضربات في صباه الاول ، ايام الحكم العثماني ؛ وحينما كان يستمد الاقطاعي سلطته من ذات سلطة الخليفة التركي ؛ فأنني مهما كنت احملق فيه ، عندما كان يتعرى ليغتسل في ماء النهر المخضر ، لم اكن المح ما ينم عن تلك الآثار . وأما ضربة ذلك السوط ، فقد طبعت اثراً باقياً في جلدي .. وفي ..

وما كشفت مرة عن اعلى صدري بالقرب من عنقي ، الا لمحت تلك البقعة النحيلة ، ترمقني بلونها الاحمر الضارب الى الزرقة ، فأحتار كيف امحوها ، وأمحو تطلعها المريب . وخلال الايام التي تلت تلك العشية المظلمة ، كنت احس الالم الناري يلفح عنقي . ولم يكد الانتفاخ الذي تركته ضربة السوط ، يتلاشى ، حتى اخذت حرارة الالم يشوبها القليل من البرودة ، ومن شبه لذة لم اطق الاعتراف بها . واكاد ، حينما اتبينها من خلال احاسيس جسدي المتضاربة .. اكاد امزق نفسي ، واحطم رأسي حقارة وذلاً . يا لها ضربة السوط ، كيف تلذ لي !!

ولعلي كنت اتذوق ضربة السوط منذ القديم ، من البدء ، منذ ان ولدت في ذات الليلة التي ولدت فيها سامية . انها ليلة لم يكن فيها ريح او رعد ، بل كان فيها السكون المطلق ، والتحفز الكامن ، والوثبة الجنين ، كالنور الجنين في رحم الظلمة .

وكان مولد سامية حوالي منتصف الليل ، ومولدي قبيل تبلج الشعاع . ومولدي هذا في ذات ليلة مولدها ، لفت النظر الي ، من قبل عائلتها في القصر القريب من كوخنا ، وخاصة امها التي خشيت ان يحيق الشؤم بابنتها. فأزمعت ان ترفع عني لعنة الفقر التي ورثتها ، منذ اللحظة الاولى . وكان هذا سبب تلك النعمة التي غُمرت بها ، فرفهت وتثقفت وعشت في المدينة . وسمح لي ان اخالط افراد عائلة سامية .

ولكم كان يحلو لسامية الطفلة ان تقلد اختها الكبرى في امتطائها صهوة الجواد . فلم تكن تجد لها جواداً صغيراً طيعاً ، لا يعدو كثيراً ، ولا يحمل لها الخطر ، إلا (امجد) الصغير ، الذي كان يريد هو الآخر ان يلعب ، ولكن العابه يجب ان تخضع لمزاج سامية ، وان تسليها وحدها .

وكما يحب الكلب سيده ، كان امجد الصغير — والاسم ارتأته له ام سامية للتفاؤل — يحب سامية هذه ، ويلذ له دائماً ان يطيعها . والفرق بينه وبين الكلب،انه اخذ يشعر ، مع تكامل وعيه، بنوع من الكراهية المسلولة لذاته: حبه لسامية ، وكراهيته لذاته ، نغمان جباران يصطرعان ، فيؤلفان سمفونية حياته الحافلة . ومع ذلك كان يحس بزهرة كرامته تتفتح رغماً عن اشواك المهانة المسنونة المحيطة به ، وتتغذى من شرارة هذين القطبين المتنافرين : حبه لسامية وكراهيته لنفسه . وأما سامية ، فكان يحلو لها ان يخضع الجميع لرغباتها إلا .. امجد ! ان السعادة ، التي يبعثها فيها انثيار امجد باهوائها الكثيرة ، ليست ذات السعادة التي يبعثها فيها خنوع الآخرين . ففي الاولى نوع من المهانة الغريبة ، تحسها فيها ، كما لو انها هي الخاضعة المؤتمرة .

وما ان التهت انوثتها حتى صارت مشكلتها تقوم كلها في هذا السؤال : هل تحب امجد ؟ وكانت نزيهة جداً في تحليلها لعواطفها . وكثيراً ما آمنت بعدم هذا الحب . وكثيراً ايضاً ما اعتقدت بوجوده . وهي بين ان تحب، وألا تحب ، عينت نوع الحياة العنيفة التي ستعيشها روحها القلقة .

ومن ناحية اخرى ، كان يبرز الى الميدان شخص ، كانت ضآلة جسمه تفقد الآخرين الشعور بوجوده . غير انه كان لا بد له يوماً ان يثبت هذا الوجود . واتاحت له الظروف تلك الفرصة ، اذ توفي والد سامية . وكان عمها — ابوه — ايضاً قد قضى منذ سنين . فلم يبق إلا (آصف) يؤول اليه الاشراف على املاك العائلة الواسعة ، وبالتالي الاشراف غير المباشر على سامية القاصر .

ومع ان سامية قد حز في نفسها وضعها الجديد ، فما لبثت ان اكتشفت بعض النفع في ظهور شخص ابن عمها ، في افق حياتها مع امجد خاصة وقد اكتشفت بعد قليل ان آصف مغرم بها . ولكن غرامه بها يطل كالحاً من خلال ارادته في التسلط عليها ، كقطعة من الاراضي التي يستثمرها . فساءت علاقته بامجد ، وازداد تحرشه به ، حتى اضطر هذا الى الاقلال مما استطاع من تردده على القصر . فاعتبرت سامية ذلك فيه استمراراً لأنحداره المتواصل ، واستسلامه الفطري .

وكانت مناسبة عودته الى القرية ، بعد انجازه للدراسة الجامعية ، في تلك الامسية ، فرصة طيبة لتقابل الرجلين من جديد . ولكن هذا اللقاء لم يجر كما تمنت سامية،وانتهى بها الامر الى ذلك التحدي القاسي، حينما صفعته بسوطها.

★

من هي السمراء النبيلة ، التي كانت تهيء لي تلك الاجتماعات الليلية في الحقول . فأجلس الى فلاحين ، شباناً وشيوخاً ، وأبدأ الحديث هامساً . احدثهم عن معنى الارض ، وعلاقة الناس بها . ومعنى هذه العلاقة كيف هي واقعة ، وكيف يجب ان تكون. وكان الحماس يبلغ بي وبالحاضرين اشده . فأكاد اشعر بكرامات الرجال تُعد لثورة رائعة واذا ما تصورت يوم تتفجر مضيت في تبيان عقيدتي .

لم تكن هذه السامية المسجدية اللون ، الانوف ، تعلم لماذا عدت الى الاراضي ، وما هو نوع العمل الذي اخترته لنفسي بين الفلاحين . وقد كانت حمقاء ، الى الحد الذي تخيلتني فيه احب النزال السافر يحتدم بيني وبين ابن عمها . كلا ! لقد كانت مهمتي تتطلب السلام على الاقل الآن بيني وبين السادة . ان ساعة النزال الحقيقي لم تحن بعد . كما ان صفعة السوط لن ترجع صداها الوديان كلها إلا بعد حين .

ان (خديجة) وحدها هي التي كانت تحس احساساً عميقاً بقيمة مهمتي وبسرها ، وكانت تعمل بوحيها . فاذا ما كان العمل في الحقل نهاراً جماعات ، لا تُسمع إلا كلمات قليلة تتردد بين الافواه التي يتحلب العرق على اطرافها :



الليلة بعد صلاة العشاء (عند الجوزة الكبيرة) ... الليلة بعد صلاة العشاء عند ... الليلة بعد صلاة ... الليلة ...

وكنت ارقب الجماعات ، فاذا بها تتحرك حركة جديدة ، وتتلامح على الجباه القاتمة اطياف غريبة ، لها بعض الاشراق . لم يعودوا يرهبون التطلع الى الشمس .. هذا النور وحده هو ما تحتاجه بصائرهم.. فلو احترقوا جميعاً ، في يوم قريب، لاستطاعوا ان يشعلوا شمساً جديدة على الارض الهرمة : ان قضيتهم هي كيف سيتأججون دفعة واحدة. ولم يكن ينقصهم إلا الفكرة الاولى ، حتى تنقلب حوافي (العاصي) الى خضرة حقيقية ليس لها ذلك الشحوب الاغبر ، ولا لأشجارها هذه الانحناءة الازلية ، واكوام التراب الطبني على اوراقها . هذه الاشجار ستنظفها العاصفة !

كانت الهمسات اذن تتواثب في براري العاصي.. وكان الملاك اذا ما حاول ان ينظر الى وجه احد فلاحيه ، وجده يحملق به بقوة غريبة دون ان تعنو له انظاره ..

فبدأنا نرى السيد لا يسير بدون بندقيته ، ثم اخذ يسير ومعه الجماعات من الحراس المأجورين . واخيراً لم يعد يقترب من اكواخ الفلاحين . وامتنع عن حضور صلاة الجمعة، اذ كانت اقوال الخطيب لا يبدو عليها الترحيب بالغرباء ... ثم النظرات الشزراء .

وذات ليلة اشتعل التمرد في محصول قمح جمع حديثاً لينقل الى عنابر الأسياد.

وفي الصباح التقيت بسامية ، وجرى الحديث التالي بيننا :

– استمع الي جيداً يا (امجد) .. هل تتمنى حقاً ان يعظم نصيب الفلاحين من حصص البيع ؟ انني اود ان امنحك اكثر مما تمنيت. فقد تصبح هذه الاراضي ملكاً لفالحيها ... ألا تعلم انها اراضيّ وان آصف يكاد يغتصبها مني ؟

– اعلم ذلك .. وماذا تريدين مني ان افعل ؟

– لا شيء يا امجد ، سوى انني اتيح لك فقط فرصة لتحقيق اهدافك .

– وكيف ذلك ؟

– أما زلت غبياً الى هذا الحد !

وكأني ادركت ما تعني . فمررت في المساء قرب الجدول ، حيث كنا نجلس معاً في اكثر الامسيات لنتجاذب اطراف الحديث . فشاهدت سامية وقد جلست واخذت رأسها بكفيها ، وراحت تتأمل انعكاس القمر على صفحة الجدول الناعمة الشفافة ... ودون ان تنظر الي بادرتني قائلة :

– ليت الانسان يستطيع ان يكون في بعض الاحيان شافاً تخترقه انظار من يريد ان يطلعهم على مكنونات صدره، دون ان يتجشم مسؤولية الاعتراف بها الفاظاً واقوالا !..

وقبل ان تتم آخر حرف ، جذبتها من يدها ، ولا ادري ما الذي دفع بي ، تلك اللحظة ، الى ان اضمها ضمتي الساحقة ، وان اقبل الشفاه ، التي طالما اندفعت الاهانات منها جزافاً .

★

بعد اسبوعين من زواجي بسامية، تلقيت هذه الرسالة القصيرة من خديجة :

« صديقي امجد :

يحق لي الآن ان ألخص لك الموقف ، وما انتهى اليه من نتائج معكوسة لم يكن يحلم بها احد . انك بكلمة واحدة خنت قضيتك ، وساومت على اهدافك في سبيل امرأة . لا اقول ذلك ، لأنني انا ايضاً امرأة كانت تتمناك لنفسها .

« لقد نسي اصدقاؤنا الفلاحون كلماتك . ولم يعد احد يهمس لجاره وهو يحييه بموعد ما . كما ان المحاصيل ينقلها الاسياد ، ويبيعونها ويتصرفون بها كما كانوا يفعلون منذ القديم .

« ماذا تعتقد ، يا صديقي العظيم .. انك اذا تزوجت تلك المرأة ستحصل على املاكها ، او تستطيع التصرف بها محققاً اهدافك ؟!

« الا تخشى، فيما لو آلت اليك حقاً هذه الاراضي ان تطمع بها لذاتك وان تتشبث بشعور السيادة والسلطان ، فيعميك بريق الذهب الكاسد وبهرجة العز المزيفة .

ولكن الاراضي لن تؤول اليك . وما انت الا مطية ساذجة استخدمت لغرض اخر . تأمل حولك قليلا تجد سنداً لكلامي .. والوداع . »

★

وفي امسية ثانية عدت مرة اخرى الى الحقل . وهناك كانت التربة الحمراء التي ادوسها يزداد شحوبها كلما انسحبت عليها ، قليلا قليلا ، بقايا الغروب ، لتنضم الى الشمس المنهزمة . هذه الشمس لا بد ان تعود للشروق . واما خطواتي ، فتبدو انها ستحملني الى جوف الكوخ دون ان تحاول ان تخرج بي ثانية ..

وأبي على حافة الحقل ، وخلفه ثلاثة اخوة لي صغار ؛ تغرق اقدامهم في التربة الحمراء . ويتابعون عمل الأب وتدريبه لهم .

وحينما مررت بهم ، استمر ابي ينظر الى موضع معوله من الأرض . جلست على (المصطبة) امام الدار . واذ عاد ابي اخيراً ، رمى معوله ، وقعد الى جانبي . وما لبث أن حرك شفتيه وهو يرنو بعينيه الى القصر البعيد ، الرابض على الرابية كجدار يمنع عنا الأفق ..

– انها طبيعة السيادة ، وطبع السادة ..

ووجدتني اقول مصححاً :

– بل انها العبودية ، وطبع العبيد ..!

★

ولكن القصة لم تنته بعد . ها هي سامية في بيتي من جديد ، بيت لم يبق في ارضها .

هي في غرفة الاستقبال ، لم تجلس .. بل راحت تتأمل طريقة (زوجتي) خديجة في ترتيبها لنسق الاثاث .

غير ان خديجة نفسها لم تكن في الدار ، وقت زيارة سامية المفاجئة . وكانت تلك النظرة هي ما تزدحم بها عيناي ، وقد حملقت كثيراً مضطرباً ، فيما يلوح امامي من مسافة قصيرة تفصلني عن هذه التي وُجد المكان لكي يجعلها نائية ابداً عني ..

– ماذا تظن ؟. هل ستستمر هكذا دائماً .. لم يعد هناك املاك واراض وابن عم متسلط ، يفصل بيني وبينك . لقد تنازلت عنها كلها له .. ولم يد ..

– او بالاحرى ، اغتصبها منك ..

– قل ما تشاء ، المهم انه لم يعد ما يفصلنا ..

ماذا تعتقد بنفسها هذه المسجدية الانوف ؟ انها لا تدري اني كافحت وزوجتي النبيلة ، منذ اربع سنين لكي اقيم دعائم هذه الدار المتواضعة ، وما زلت مصمماً على ان انشيء اولادي كما اريد ، وان اناضل من اجل عقيدتي بالطريقة التي اراها . لقد طلقت سامية في نفس الشهر الذي تزوجتها به . ولست انوي اعادة المأساة الان .

– هل تتجاهلين زوجتي واولادي ؟

– كلا .. ولكنني لا اقيم وزناً للبضائع التي يراد بها (التعويض) ..

أي تعويض تعني هذه السيدة ؟! أليست تصدق اني قد وجدت نفسي حقاً واني احيا حياتي الطبيعية ؟ وأما السنوات الطويلة .. سنين طفولتي وشبابي الاول ، تلك التي كنت امثل فيها دور الربيب الهجين ، فلم تكن ابداً من سني حياتي ..

اجل ! ألم اكن اشعر دائماً كأنني اتحفز لجولة اخرى . لم تكن اسطورة سامية لأطويها ابداً ، وها هي المناسبة تواتيني ثانية ، لأذل من انف هذه المتصبة المتعالية كشجرة حور؛جذورها في طين ضحل بدون اصالة.

ولكن ، هل احتاج حقاً للانتصار عليها ام للانتصار .. على .. نفسي ؟ سأترك هذا البيت واتبعها . ان الانتصار على هذه المرأة فوز كامل على فئة من الناس ، لم ينتصر بعد عليها احد . ولكن ..

– تقولين انك فقدت الاملاك .. فهل فقدت شخصية المالكة ؟ وماذا سأفعل بها دون املاكها ؟

وفي هذه اللحظة تكشفت لي حقيقة ذاتي فجأة.

وحبي لها وزواجي منها ، وتلك المأساة الطويلة . كل ذلك لم يكن إلا نهاية امتلاك الاراضي . فما معنى نضالي اذن !

واذ دوى من جديد ، في اذني، صوت ابي يقول : انها طبيعة السيادة وطبع الاسياد . وجوابي له : بل انها طبيعة العبودية، وطبع العبيد ! عرفت ان نضالنا مزدوج شاق ، نحن الطلائع ، فهو ذو حدين : انه ضدنا وضد اعداء اهدافنا .

عادت زوجتي. ورحبت بسامية . وقامت بواجب الضيافة خير قيام ولا عجب فهي تستقبلها في (بيتها) . وحان انتهاء زيارتها لنا فودعتها زوجتي. ورجعت الي لتجدني ابكي، ثم انكب على صدرها صائحاً :

– من نحن .. وماذا نفعل ؟!

وانطلقت الى المرآة . هناك كشفت عن اعلى صدري بالقرب من عنقي ، أفتش عن اثر ضربة سوط، فلا اجدها . واتمتم وأنا اتحسس مكانها : لقد امحت اخيراً ، امحت . ولكن متى ستمحي عن عنق الملايين؟

دمشق — **مطاع صفدي**

إلى حد ..

قصة جديدة
بقلم سميرة عزام

— لا تنهضي سعاد. مكانك ظلي، فسآتيك بالافطار الى الفراش.

وكانت سعاد تنحي عنها الغطاء حين امتدت يد عمتها تمنعها من ذلك. « ظلي، ظلي. سمعتك بالأمس تسعلين واخشى عليك من زكام » .. ولم يكن بسعاد سعال ذو خطر، يستدعي ان ترفق بها عمتاها الى حد ان تحملا لها الافطار الى فراشها.. ولكنها ادركت ما وراء الحكاية، فعادت وتمددت في فراشها في تراخ، وابتسمت ابتسامة خبيثة، وراحت تفكر في هذا الانقلاب العاطفي الذي لم تعرفه الى ما قبل مدة وجيزة .. فقبل ذلك كان عليها ان تقوم مع الفجر وتسعى على قدميها الى المطبخ، تجهز القهوة والافطار لعمتيها ولها .. واذا حدث ونامت دقائق اكثر من المعتاد، فهناك صوت العمة الكبيرة يلعلع :

— الم تستيقظ بنت الباشا ؟ ما شاء الله ! تراها ستظل نائمة الى الظهيرة ؟ ومن يكنس الشرفة ويسقي الزرع ؟ انا ؟

فتنهض سعاد قبل ان تقفز شتيمة الى لسان عمتها .. وتسعى خفيفة الى شؤون البيت.. الا شكراً لفهمي — ابن الجيران — وشكراً اكثر لخادمتهم التي قدمت بالامس تقضي شأناً لسيدتها فلقيت من العمتين حفاوة — قلما تكون في طبعها — وفي نوبة كرم اتيح للخادمة ان تذوق قطعة من النارنج المسكّر، وان تشرب فنجان قهوة ينطلق بعده لسانها يكشف من امور مخدوميها اشياء .. (ففهمي) ابن الاسرة الكبير الذي نال (الشهادة) هذا العام ولدٌ كله ذوق وانسانية، وليلى — اخته — فتاة مدللة لا هم لها الا ان تقرأ قصصاً فرنسية، وتلعب على البيان وتختلف مع صواحبها إلى السينما .. اما الام — ام فهمي — فسيدة تعيش على مهَل.. خادمة وسائق وطباخ.. مرفهة يُحمل لها افطارها الى الفراش ..

وتذهب الخادمة وكلامها يطن في اذن العمتين .. وتنظر كل منهما للاخرى نظرة لا يفهمها غيرهما ..

وفي الغد .. حُمل طعام سعاد .. الى فراشها ! .. بقي ان نعرف سر هذا التدليل المفاجيء .. الذي لم تعتده اليتيمة التي رُبيت في كنف عمتين كهلتين .. حسناً، لسبب او اكثر اعتقدت العمتان ان فهمي الابن الاكبر لعائلة الطبيب الكبير التي قطنت مؤخراً بجوارهم (له خاطر) في سعاد ..

وقفت شفيقة — العمة الكبرى — مرة على الشرفة فرأت ابنة اخيها تبادل شاباً يقف على الشرفة المجاورة الابتسام .. فهمت بان تبادر الفتاة بزعقة تجمد معها البسمة على شفتيها لولا انها تذكرت ان الفتى يقف على شرفة بيت الطبيب الثري الوجيه ذي السيارة التي يقودها سائق.. وساكن الفيلا التي يرمقها المارة بحسد كثير.. فارتسم على فمها شيء يحار بين الابتسام والتكشير .. لتردّد في نفس العمة .. اتجعلها ابتساماً خالصاً ام تستبدل بها تكشيرة تقليدية يفهم منها الاثنان ان العمة لا تشجع الوقاحة.. ولا تحبها..

وضبطتهما في موقف ابتسامي، مرة اخرى. وهنا كان لا بد من محضر استجواب مستعجل للفتاة تتناوبه العمتان ..

— كيف عرفت الولد ؟

— انه يراني على الشرفة وقابلني في الدرب مرة او مرتين .

— هل تحادثتما ؟

وسعلت الفتاة لتتهرب من الجواب ولكن (زغرة) من العمة الكبيرة فكت لسانها .

فقالت — نعم

— وماذا قال يا ترى ..

— سألني كيف حال عمتيك !!

وتنظر العمتان الواحدة منهما للاخرى وتقولان في صوت معاً :

— اقال هذا حقا ؟ ابن ناس .. ابن ناس .. وماذا ايضا ؟

— مرةً رآني في الترام فدفع عني ثمن التذكرة ...

وتقطب شفيقة ما بين حاجبيها وتصطنع الجد وتقول : « طيب قومي الى امرك » .

وتخلو شفيقة الى انيسة، فتخليان التطريز الذي كان في ايديهما لتسأل الصغرى اختها ..

— فكرك ؟!

— نعم فكري ... ولم لا هي وشطارتها .. اهو اكبر من ان يحب سعاد ثم يتزوجها؟ أفي الحي من هي احلى ؟. قد تكون فقيرة بالنسبة له ولكن الفقر ليس عيباً .. فأم فهمي نفسها — كما سمعت — كانت ممرضة في عيادة زوجها، وبنتنا مهذبة لبقة بنت بيت « تربية راهبات... » وبيت (ابي فارس) ماطلعت منه واحدة قال الناس فيها مايشين. المسألة لا تحتاج لأكثر من بعض المسايرة واللباقة والتدبير

— من الغد نقوم انا وانت بزيارة لأم الولد ..

— ولكن ...

— ولكن ماذا؟؟ تريدين ان تقولي اننا لا نعرفها؟ وماذا؟ نتعرف

عليها. وكيف يتعارف الناس في الطرقات؟ في الاسواق؟ لا عليك..
السعي للحلال ما كان حراماً في شريعة.. هل تريدين ان يقول
الناس ان بنات «ابي فارس» يبقين عوانس ما عشن... اوحتى لو
تزوجن فعلى كبر وهن عجائز؟.. لا تفتحي فاكِ، أعرف ماستقولين.
تعنين أنك بقيت عانساً بارادتك؟ لا ستي لا... من دق بابك غير
اسحق بائع السجق وكان أصمّ واحدى ساقيه في القبر؟ اسكتي،
اسكتي. انا ادرى منك بهذه الامور. فما عرفت من دنياك الا القماش
والخيوط. من الغد كما قلت نزور أم فهمي ونشجعها وابنتها على زيارتنا.

وسكتت انيسة.. فما فرحت في اعوامها الخمسين برغبة لها تنفذ
وشفيقة في الوجود. نشأتا معاً وتعلمتا المهنة وعرفهما الناس مطرزتين
تشدان القماش على الانوال فيخرج من بين انامليهما المدربة مخدات
ومفارش تزدان بها بيوت العرائس..

وكانت شفيقة تقابل الزبائن.. وتعقد الصفقات وتقبض الاجرة
ولا تنفقها الا بحساب فعزيز عليها فراق القرش، والقروش — كل
القروش — تنفع في الايام السود.. ومستقبل الاختين ليس بياضاً
خالصاً بعد ان تخف حدة بصرهما.. وينقطع مصدر رزقهما الوحيد..
ولم تسترح انيسة من سيطرة اختها الا حين تزوجت تلك ولكنه
كان زواجاً قصيراً كليالي الصيف.. مات الزوج العجوز ولم ينجب
ابناء فعادت شفيقة الى شأنها في البيت والانوال والتحكم في انيسة..

وتمشت مشيئة اكبر الثنتين.. فزارتا ام فهمي ولم تصحبا
لأمر في نفس الكبرى.. وعادتا بعد ساعة وقد انكمش العالم في
عيونهما واختصرت شؤونه فهو ليس اكثر من عائلة فهمي.. امه،
ابيه، اخته، بيتهم المترف، فرشه الوثير، لم تفرغا من التحدث
بهذا كله طيلة سهرة امتدت الى ما بعد منتصف الليل، واستغرقهما
الحديث حتى نسيتا ان النور الكهربائي بحساب...

وتسمع سعاد وتدرك بغريزة الانثى ان عمتيها تنوي امراً وقد
اخذت ما كان بينها وبين الفتى من ابتسام بريء وتحيات في الطريق
مأخذ جد خالص.. ولكنها اطبقت فمها تنتظر النتيجة.. او
اطبقته استكانة لهذا الدلال الذي اختصتاها به.: فأعفيت من اكثر
الواجبات البيتية.. فمسح البلاط — كما صار معلوماً لدى العمتين
مؤخراً — ينال من طراوة يديها، وتقشير البصل ليس بالعمل
المستحب لمتأنقة.. وكنس الشرفة — والشرفة المقابلة بيت
الجيران بالذات — لا يليق بواحدة تطمع او تطمع عمتاها.. في
ارستقراطي كفهمي..

★

— سعاد لم لا تعزمين على الولد بفنجان قهوة؟

وتستحي الفتاة. كيف تفعل.. بل كيف تخلق المناسبة؟
فلا تجيب ويحمر خداها.. فتقول عمتها بملاطفة:

— هيه لقد خجلت.. لا بأس، سأدعوه انا..

ووافتها المناسبة. كانت تسير وسعاد في الطريق فمر بهما صدفة
وحيّا بصوت خفيض، ولكن شفيقة رأت عين الواجب ألا تمر
به دون مجاملة فاستمهلته لتسأله عن امه وابيه وصحة المدموزيل
الحبوبة — اخته — وتبسطت أكثر فسألته عما يفعل في العطلة..
وقالت نحن جيرة ويسرنا ان (تخطف رجلك صوبنا) فانت فتى
مهذب ابن ناس.. ونحن والماما (صحبه)..

وشكرها برقة وما انتهت حتى كانوا قد بلغوا البيت، فألحت
عليه بالدخول فدخل بعد ان ألقى نظرة على بيتهم ليرى ان كان
هنالك من يرقبه.. وسرعان ما حضرت القهوة والحلوى والسجائر
الامريكية التي هرولت انيسة تبتاعها من اقرب حانوت.. ومكث
الفتى ساعة ولما قام شيعته العمتان الى نهاية السلم وكررتا عليه ان (يعيدها)

اما سعاد فقد جلست بقلق تفكر فيما عسى ان يقول الفتى في
عمتيها. ويقطع عليها تفكيرها صوت عمتها وقد عادت الى القاعة
تأخذها بعتاب ناعم.. إذ لم تساير الفتى كاللازم.. وظلت ساكتة
بصورة قد يظن معها فهمي ان زيارته غير مرغوبة.. أو انها لا تفهم
كيف تحكي كلمتين على بعضهما.. وتتطوع شفيقة باعطائها بعض
النصائح ثم تستدير الى انيسة وتهمس: الا ترين.. صهرنا.. فتى لطيفاً؟

وتلعب الصدف دوراً في احلام العمتين إذ تأتي اخت فهمي مرة
توصيهما بتطريز ثوب.. فتبشان في وجهها كثيراً وتتطوعان بتعليمها

التطريز ولتقم هي بنقش الثوب بنفسها ..

وترحب ليلى بالعرض فهذه تجربة جديدة تختلف عما ألفت في حياتها الرضية من مشاغل هينة .. وتأخذ بالتردد يومياً عليهما وفي يدها قماشها وابرتها، ومن ثم تنشأ بينها وبين سعاد ألفة تشجعها العمتان وتصبح سعاد صديقة لليلى فتدعوها الى حفلة تقيمها في عيد ميلادها .. ولا تذهب سعاد فارغة اليد إذ تحمّلها شفيقة ستارة ً الوانها من الوان الربيع .. وكان أدعى الى فرحة سعاد ان كانت عمتها بعيدة النظر ففتحت كيسها على سعته وابتاعت لها ثوباً وحذاء جديدين. فسعاد يجب ان تبدو انيقة كأحسن المدعوات ناعمة يفتن ّ بها من يراها وهذه مناسبة سيحضرها فهمي وسيراها ويتحادثان و .. و. من يدري!

وتمضي سعاد الى الحفلة محرجة بعض الشيء ، فما سبق لها ان عرفت هذا اللون من الفتيات والشبان. وتلحظها ليلى فتخف اليها تلاطفها وما لبثت ان اندغمت في الجو حين دارت انغام الرقص وعلا صخب الشباب وقضى صياحهم على جو التكلف الذي يسود الحفلات في مبتداها حين لا يكون للناس هم ّ الا ان يزنوا كل وافد بالقيراط وبنظرات تتلون اعجاباً أو سخرية أو رضى ..

وفي تلك الآونة بالذات كانت شفيقة وانيسة تطلان من الشرفة ترقبان المدعوين – نعني المدعوات – وتتساءلان عن الوجوه الغريبة من تكون.. ولا ترتاح شفيقة للعدد الكبير من المدعوات فتقول : صاحبات ليلى.. كثيرات..

وتفهم انيسة ما تعنيه اختها فتقول : اطمئني .. ليس فيهن من هي أحلى من (سعادنا ..)

وتظلان في موضعهما من الشرفة يأكلهما القلق حتى تعود سعاد تقص اخبار الحفلة وترد على اسئلة انهالت عليها كالمطر ..

– هل سلمت على ام فهمي؟ هل رقصت مع فهمي .. ماذا قالت ليلى عن ثوبك؟ على فكره، من تكون الفتاة الشقراء ذات الثوب الاخضر ؟. ألم تتعرفي عليها ؟ لا بد ان نسأل . . انها متغطرسة أليس كذلك ؟ لقد حزرنا هذا من نظرة . . تقولين بان ليلى اوصتك بان ترفعي شعرك دائمـــاً كما فعلت اليوم ؟ أرأيت ؟ هذه نصيحتنا .. نحن أدرى منـــك بذوق (بنت عمك) .. فاحتفظي بهذه التسريحة ..

شفيقـة في قلق حتى تعرف الشقراء المتغطرسة ذات الثوب الأخضر من تكون.. وعرفتها وعرفت ان لها اما تتردد كثيراً على بيت (الدكتور) .. ويزعجها الأمر فأي حق لهذه ان تصحب ابنتها بين يوم ويوم .. انهـا أدرى بنية هؤلاء النسوة اللواتي لا هم ّ لهن إلا اصطياد الأزواج لبناتهن . . ولكن هذا تطاول يجب ألا يسمح لها به .. (فهمي) ميال الى سعاد بلا شك .. وكل الظواهر تقطع بهذا .. يبسم لهـا من الشرفـة ، ويحاكيها في الدرب ، واعطاها مرة كتابا . . واخته تحبهـــا وتؤثرها فتدعوها الى حفلات الأسرة .. ولقد شهدت الخـادم بان ليلى كثيراً ما تطري سعاد لأمها ..

فنية الجماعة واضحة كالنهار .. فما معنى ان تعترضه هـــذه المرأة وبناتها ؟ لا . ستصبر شفيقة عليها مـــدة فان لم (تقطع رجلها) فلا بد من ان تذهب اليها في دارها تنهاها عن هـــذا الشطط وتبصّرها بموقف فهمي من سعاد ..

أية نسوة هؤلاء !.

ويظل القلق يأكل قلب العمتين .. سيما شفيقة .. ان الفتى لم يتقدم فمتى يفعل يا ترى .. لا بد انه فاعل قريباً .. لعله الآن مشغول بالتفكير في مستقبله .. إذ كيف يخطب بنات الناس قبل ان يركن الى شيء ؟.

لا بد من حركة .. واشد ما تخشيان مناورة تقوم بها أم « الفتاة الاخرى » فتلف ّ الصبي ولا تبقى لسعاد إلا الحسرة ، وهكذا تظل شفيقة، وتظل انيسة، وتظل سعاد في هواجسهن ّ. العمتان تفرشان بالآمال درباً للصهر العزيز ، والفتـــاة حيادية الشعور فما بينها وبين الفتى لا يدفعها لان تطمح مطمح عمتيها ، تنام على الدلال مستكينة ترقب ختام الرواية ..

وجاءت النهاية يوماً ..

استيقظت العمتان مرة على صوت الجيران يودعون فتـاهم المسافر الى امريكا للدراسة ..

واستيقظت سعاد بعد ليلة حلمت فيها بفهمي – فهي في احلامها أجرأ منها في يقظتها على بناء القصور .. استيقظت على صوت شفيقه القديم يصيح :

– ألم تستيقظ بنت الباشا ؟ تراها ستظل نائمة الى الظهيرة ؟ ومن يكنس الشرفة ويسقي اصص الزرع ..؟ انا ؟



سميره عزام

ليا سول – قبرص

العـــــادلون

البقية من الصفحة ٤٨

الفصل الثالث

في المكان نفسه . في الزمان نفسه .

بعد يومين

ستيبان — ما الذي يفعله فوانوف ؟ كان ينبغي له ان يكون هنا .

اننكوف — انه بحاجة الى النوم . وما زال امامنا نصف ساعة .

ستيبان — بوسعي اذن ان اذهب لأتسقط الاخبار .

اننكوف — كلا . بل علينا ان نحد من التعرض للاخطار (صمت.) ما بالك انت يا يانك، لا تقول شيئاً ؟

كاليابيف — ليس عندي ما اقوله ، فلا تقلق (يقرع جرس الباب .) ها هو .

(يدخل فوانوف)

اننكوف — هل نمت ؟

فوانوف — نعم ، قليلاً .

اننكوف — وهل نمت طيلة الليل ؟

فوانوف — لا .

اننكوف — كان عليك ان تفعل ، فثمة وسائل لذلك .

فوانوف — لقد حاولت ، ولكني كنت من فرط التعب بحيث لم استطع .

اننكوف — ان يديك لترتجفان

فوانوف — كلا (ينظر اليه الجميع .) ما بالكم تنظرون الي ، الا يمكن للمرء ان يكون تعباً ؟

اننكوف — بلى ، يمكن للانسان ان يتعب، ولكننا مهتمون بامرك .

فوانوف (بعنف مفاجيء) — كان عليكم ان تفكروا في ذلك امس الاول ، فلو ان القنبلة قذفت منذ يومين لزال تعبنا .

كاليابيف — سامحني يا ألكسي ، فقد زدت الامور تعقيداً .

فوانوف (بصوت اكثر انخفاضاً) — ومن يقول هذا ؟ انك لم تزدها تعقيداً ، كل ما في الامر اني تعب .

دورا — ان كل شيء سيسير بسرعة منذ الآن؛ فما هي إلا ساعة حتى ننتهي .

فوانوف — اجل ، سننتهي . بعد ساعة ... (ينظر حوله . تمشي دورا نحوه وتأخذ يده . يرخي يده ثم ينتزعها بعنف .) اود ان اكلمك يا بوريا .

اننكوف — على انفراد ؟

فوانوف — اجل على انفراد .

(يتبادلون النظرات. يخرج كاليابيف ودورا وستيبان .)

اننكوف — ما الخبر ؟ (يظل فوانوف صامتاً) ارجوك ، قل لي ما الخبر .

فوانوف — انني اشعر بالخجل يا بوريا (صمت .) اني خجل ،وعلي ان اخبرك بالحقيقة.

اننكوف — الا تريد ان تقذف القنبلة ؟

فوانوف — بل لا استطيع قذفها .

اننكوف — أخائف انت ؟ إن كان هذا ما يمنعك ، فلا داعي للخجل .

فوانوف — اني خائف ، وخجل من اني خائف.

اننكوف — ولكنك كنت فرحاً وقوياً منذ يومين ، وعندما غادرتنا كانت عيناك تلمعان .

فوانوف — لقد كنت دائم الخوف، إلا انني امس الاول استجمعت شجاعتي ، هذا كل ما في الامر ، وعندما سمعت العربة تهدر من بعيد قلت في نفسي : « هيا بنا، لم يبق الا دقيقة واحدة. » وكنت أصر باسناني. وكانت جميع عضلاتي متوترة. وكنت على وشك ان اقذف القنبلة بعنف يبلغ من الشدة بحيث كان عليها ان تقتل الدوق الكبير لساعته . كنت انتظر الانفجار الاول حتى افجر جميع هذه القوى المدحرة في جسدي . ثم لا شيء . فقد اقبلت العربة علي ، وكم كانت مسرعة في جريها ! وحين جاوزتني ايقنت بان يانك لم يقذف القنبلة . وفي تلك اللحظة اعتراني برد فظيع ، واحسست فجأة بضعفي كما لو انني طفل صغير .

اننكوف — لا تخف هذا يا ألكسي ، فلا بد للحياة من ان تستعيد تدفقها

فوانوف — ولكن الحياة منذ يومين لم تعد، لقد كذبت عليك منذ لحظات،فأنا لم انم هذه الليلة. ولقد كان قلبي يخفق بعنف كبير . آه ، يا بوريا ! انني يائس .

اننكوف —دعك من اليأس يا ألكسي، فلقد كنا جميعاً مثلك ، ولن تقذف القنبلة هذه المرة . تأخذ شهراً من الراحة في فنلندا ، ثم تعود الينا.

فوانوف — لا ، ليس هذا هو المهم . فانني إن لم اقذف القنبلة اليوم ، فلن اقذفها ابداً .

اننكوف — ماذا تقول ؟

فوانوف — الحق انني لم اخلق للارهاب . وانا الآن على يقين من ذلك . خير لي ان اترككم ، وسأجد عملاً في لجان الحزب او في فروع الدعاية .

اننكوف — ان المخاطر متساوية هنا وهناك.

فوانوف — صحيح ، ولكن بامكان المرء ان يعمل وهو مغمض العينين؛فهو لا يدري شيئاً.

اننكوف — وما تقصد بذلك ؟

فوانوف (بحمى) — أجل ، لا يدري المرء شيئاً . فمن السهل الاشتراك بالاجتماعات ومناقشة الاوضاع الراهنة ونقل اوامر التنفيذ بعد ذلك . ومن المؤكد ان الانسان يجازف هكذا بحياته ايضاً ، ولكن تلمساً ودون ان يرى شيئاً . أما ان ينتصب هذا الانسان واقفاً ، إذ يهبط المساء على المدينة ، وسط هذا الجمهور ، هؤلاء الذين يحثون الخطى ، ليلاقوا حساء لاهباً واطفالاً صغاراً ، ودفء امرأة، أن ينتصب المرء واقفاً اخرس ، وفي كفه وزن قنبلة ثقيل، وان يعلم أنه بعد ثلاث دقائق،بعد دقيقتين اثنتين ، بعد ثوان معدودات سيغير مندفعاً من امام عربة تتطاير ملتهبة ... ان هذا لهو الارهاب ، وانا اعلم الآن انني لن استطيع اعادة التجربة دون ان اشعر انني قد فرغت من دمي . أجل اني خجل . لقد هدفت الى اعلى مما استطيع بكثير ، وكان علي ان اعمل في مقامي المعد لي . مقام متواضع وصغير جداً . المقام الوحيد الذي انا خليق به .

اننكوف — ليس من مقام صغير ، فالسجن والمشنقة هما دوماً في النهاية .

فوانوف — ولكننا لا نراهما ،كما نرى هذا الذي نهم بقتله . ينبغي ان نتخيلها . ومن حسن حظي انني لا احسن التخيل (يضحك بعصبية) ولم اتوصل مطلقاً الى الاعتقاد بوجود الشرطة السرية . أليس هذا امراً غريباً بالنسبة لأرهابي؟ ولن اصدق انها موجودة إلا بعد الرفسة الاولى في بطني ، لا قبلها .

اننكوف — وما ان تدخل السجن ، حتى تعرف وترى ؛ فلا نسيان هناك على الاطلاق .

فوانوف — ولكن في السجن ليس امام المرء قرار يتخذه . أجل ، هذا ما أحن اليه : ألا اتخذ قراراً بعد ! ألا اقول لنفسي بعد :

« هيا عليك انت وحدك ان تعين الثانية التي ستنطلق فيها » ويقيني الآن اني اذا اعتقلت، فلن احاول الفرار. ولكن حتى الفرار يقتضي الخلق والابداع والمبادرة ، واذا لم يحاول الانسان الفرار، فان الآخرين هم الذين يحتفظون بالمبادرة وعليهم يقع عبء العمل بكامله .

انتكوف – ولكنهم يعملون احياناً على شنقك .

فوانوف (بيأس) – احياناً . ولكن ان اموت اقل صعوبة علي من ان احمل على كفي حياتي وحياة آخر ، وان اعين اللحظة التي سأقذف فيها هاتين الحياتين وسط اللهب . كلا يا بوريا ، ان الطريقة الوحيدة التي املكها لأكفر بها عن نفسي ،هي ان اقبل ما انا عليه . (يظل انتكوف على صمته.) حتى الجبناء يستطيعون ان يخدموا الثورة ، يكفي ان يجدوا مكانهم .

انتكوف– كنا اذن جبناء ، غير انالفرصة لا تسنح لنا دائماً للتحقق من هذا الجبن ، فافعل ما تشاء .

فوانوف – أفضل ان اذهب فوراً. يخيل الي انني لن استطيع ان انظر اليهم وجهاً لوجه . ولكنك ستحدثهم انت .

انتكوف– اجل سأحدثهم (يقترب منه) .

فوانوف – بلغ يانك بأن ليس الذنب ذنبه ، واني احبه كما احبكم جميعاً .

(صمت . انتكوف يعانقه)

انتكوف – استودعك الله يا اخي ، لا بد لكل شيء من نهاية ، ولا بد لروسيا من ان تحيا سعيدة .

فوانوف (منسلاً) – اجل فلتحي سعيدة ! فلتحي سعيدة !

(يتجه انتكوف نحو الباب)

انتكوف – تعالوا جميعاً .

(يدخل الجميع مع دورا)

ستبيان – ماذا هناك ؟

انتكوف – لن يقذف فوانوف القنبلة ، انه منهوك القوى ، وهو غير واثق من اصابة الهدف .

كالياييف – ان هذا بسببي انا ، أليس كذلك يا بوريا ؟

انتكوف – لقد بعث يبلغك حبه .

كالياييف – هل سنراه بعد اليوم ؟

انتكوف – من المحتمل ان نراه ؛ وبانتظار ذلك ، فانه قد غادرنا .

ستبيان – لماذا ؟

انتكوف – سيؤدي خدمات افيد في لجان الحزب .

ستبيان– وهل طلب ذلك ؟. انه اذن يخاف !

انتكوف – كلا ، بل انا الذى قررت كل شيء .

ستيبان– أتحرمنا رجلاً قبل ساعة من الاغتيال؟

انتكوف – اجل ، قبل ساعة من الاغتيال كان لا بد لي من اتخاذ قرار بمفردي ؛ لقد فات أجل المناقشة ، سأحل مكان فوانوف .

ستيبان – ان هذا من حقي انا .

كالياييف (مخاطباً انتكوف) – انت الزعيم يا بوريا وواجبك ان تبقى هنا .

انتكوف – من واجب الزعيم ان يكون جباناً في بعض الاحيان، ولكن شريطة ان يبلو صلابته في الوقت المناسب . لقد اتخذت قراري، فعليك يا ستيبان ان تنوب عني ما اقتضى ذلك من الزمن ؛ تعال معي ، عليك ان تعرف التعليمات .

(يخرجان . يمشي كالياييف فيجلس . تتجه دورا نحوه وتمد يدها ، ولكنها تعدل)

دورا – ليس هذا خطأك

كالياييف – لقد آلمته، آلمته جداً . أتعرفين ما قال لي ذات يوم ؟

دورا– كان يردد دون ما انقطاع بانه سعيد .

كالياييف – نعم ، ولكنه قال لي ايضاً ، انه لا سعادة له خارج جماعتنا ، كان يقول : « اننا هنا ، المنظمة ، ثم لا شيء بعد ذلك، ومنظمتنا في هذا ضرب من الفروسية » انه لبستحق الشفقة، يا دورا !

دورا– لا بد له ان يعود

كالياييف – لا اعتقد ، فأنا اتصور ما كنت اشعر به لو اني كنت مكانه ؛ إذن ليئست ...

دورا – والآن ، ألست يائساً ؟

كالياييف (بحزن) – الآن ؟ اني معكم ، وانا سعيد ، كما كان هو سعيداً .

دورا (ببطء) – انها لسعادة عظيمة

كالياييف – اجل انها لسعادة عظيمة حقاً ، ألا تعتقدين مثل ما اعتقد .

دورا – بلى أعتقد مثلك ، فلم إذن تبدو حزيناً ؟ منذ يومين كان وجهك وضاء ، وكنت تبدو وكأنك تسير للقاء عيد كبير، اما اليوم...

كالياييف (واقفاً باضطراب شديد) – أما اليوم ، فأنا اعلم ما كنت اجهل . لقد كنت على حق ، فليست المسأله سهلة الى هذا الحد ، كنت اظن ان من اليسير ان يقتل الانسان انساناً آخر، وان الفكرة تكفي والشجاعة ، ولكني لست من العظمة بهذا القدر ، ويقيني الان ان لا سعادة في الحقد . وهذا الشر كله ، هذا الشر كله ، لدي ولدى الآخرين ... القتل ، الجبن ، الظلم ... اوه لا بد من القضاء عليه ، لا بد من ذلك ، ولكن سأمضي حتى النهاية ! سأمضي الى ابعد من الحقد !

دورا –ابعد من الحقد ؟ ليس هناك ابعد منه .

كالياييف – بل هناك الحب

دورا– الحب ؟ ليس الحب هو ما نحتاج اليه...

كالياييف – اي دورا ، كيف تقولين هذا انت التي اعرف قلبك ...

دورا – ان هناك مزيداً من الدم ، مزيداً من العنف والضراوة ... فأولئك الذين يحبون العدالة بالفعل لا حق لهم في الحب،فهم لا ينفكون منتصبين مثلي انا ، رأسهم في السماء ، ونظراتهم محددة، فأي مكان يبقى للحب في مثل هذه القلوب المعتزة ؟. ان الحب يحني الهامات ، على مهل يا يانك ، أما نحن فان رقابنا صلبة .

كالياييف – ولكنا نحب شعبنا .

دورا – اجل نحبه، هذا صحيح ولكننا نحبه حباً مهلهلا دون ما أيد ، حباً بائساً . اننا نحيا بعيدين عنه، منزوين في غرفنا، تائهين في افكارنا . وهذا الشعب ، هل يحبنا هو ؟ هل يعرف اننا نحبه ؟... ان الشعب ليصمت ،واي صمت!

كالياييف – ولكن هذا هو الحب بعينه ، ان يهب الانسان كل شيء ، ان يضحي بكل شيء دونما امل بالاسترداد .

دورا – قد يكون ... وان هذا هو الحب المطلق . الفرح المحض المتوحد ، انه هو الذي يحرقني في الحقيقة . ومع ذلك فانا اتساءل احياناً اذا لم يكن الحب شيئاً غير هذا ، اذا كان يستطيع ان يكف عن ان يكون مناجاة للنفس، ام اذا لم يكن اهلاً لجواب في بعض الاحيان . انا اتخيل هذا : الشمس تلمع في الافق والهامات تنحني على مهل والقلب يغادر عزته والاذرع تنفتح . اي يانك،لو اننا نستطيع ان ننسى ولو لساعة من الزمن ، بؤس هذا العالم الفظيع وظلاماته وان نترك انفسنا تحري على سجيتها، ساعة واحدة صغيرة من الانانية ... هل تستطيع ان تتمنى ذلك ؟

كالياييف – اجل يا دورا ، وهذا ما يسمى بالحنان .

دورا.– انك تفطن لكل شيء يا حبيبي، فهذا ما يدعى حناناً بحق ، ولكن هل تعرفه فعلاً ؟ وهل تحب العدل بحنان ؟ (يظل كالياييف صامتاً .) هل تحب شعبنا بهذا الانقياد وهذه الدعة،أم انك على العكس تحبه بلهيب الانتقام والتمرد ؟ (يظل كالياييف على صمته) أترى ؟ انك لم تحر جواباً،

(تمشي نحوه وتتابع بلهجة بادية الضعف) : وأنا ، أنا ، هل تحبني بحنان ؟

(ينظر كالياييف اليها)

كالياييف (بعد لأي) — لن يحبك احد ابداً كما احبك .

دورا — اني لأعرف ذلك . ولكن أليس من الافضل ان يحب المرء على سنة الناس اجمعين؟

كالياييف — لست على شاكلة الناس اجمعين ، بل احبك كما انا .

دورا — هل تحبني اكثر من العدل ؟ وهل حبك لي أشد من حبك المنظمة ؟

كالياييف — انا لا أميز بينكن ، انت والمنظمة والعدالة .

دورا — نعم، ولكن اجبني بربك، اني اتوسل اليك ، اجبني : أتحبني في عزلتك بحنان وانانية ؟ هل كنت تحبني لو انني كنت ظالمة ؟

كالياييف — لو كنت ظالمة وكان في قدرتي ان احبك لما وقع اختيار حبي عليك .

دورا — انك لا تجيب على سؤالي ؛ قل لي فقط هل كنت تحبني لو لم اكن في المنظمة ؟

كالياييف — فأين تكونين اذن ؟

دورا — اني لأذكر زمن دراستي . كنت لا انفك عن الضحك ، كنت جميلة آنذاك ، كنت اقضي ساعات طوالاً احلم فيها واتنزه . فهل كنت تحبني لو انني خفيفة طائشة لا هم لي ؟

كالياييف (يتردد وبصوت منخفض جداً) — انني لأموت شوقاً وتحرقاً لأقول لك : نعم .

دورا (صارخة) — بل قل نعم يا حبيبي ان كنت تعتقد بذلك ؛ قل نعم ، ان كان هذا صحيحاً. نعم ! في وجه العدالة . نعم ! ازاء البؤس والشعب المقيد بالسلاسل. نعم ! نعم ! أتضرع اليك رغم حشرجة الاطفال ، رغم الذين يشنقون والذين يجلدون حتى الموت ...

كالياييف — اصمتي يا دورا !

دورا — لا ، لن اسكت ، فلا حرج على المرء ان يدع قلبه يتكلم مرة واحدة على الاقل. فأنا انتظر ان تدعوني ، انا دورا ، ان تناديني من فوق هذا العالم الذي يسممه الظلم ...

كالياييف (بقسوة) — اخرسي . ان قلبي لا يحدثني الا عنك . ولكن علي ألا اضطرب بعد حين .

دورا (شاردة) — بعد حين ؟ نعم ؛ لقد نسيت ... (تضحك وكأنها تبكي) كلا ، بل طوعاً لك يا حبيبي . لا تغضب ، لم اكن على صواب . ان هذا من جراء التعب . وانا ايضاً ما كنت لأستطيع ان اقول ذلك فحبي لك من

هذا الحب الثابت الجامد نفسه الذي لا تميز بينه وبين العدالة والسجون . أتذكر يا حبيبي يانك ذلك الصيف ...؟ ولكن لا ، فنحن لا نفتأ في شتاء ابدي . اننا لسنا من هذا العالم . إنما نحن عادلون . فثمة حرارة هي ليست لنا . (ملتفتة) : رباه ! رفقاً بالعادلين !

كالياييف (ناظراً اليها بيأس) — أجل، هذا نصيبنا الوحيد فالحب مستحيل . ولكني سأقتل الدوق الكبير وعندها لا بد من سلام دائم لك ولي على حد سواء .

دورا — ذلك السلام ! ولكن متى سنلقاه ؟

كالياييف (بعنف) — في اليوم التالي .

(يدخل انكوف وستيبان فيبتعد كالياييف ودورا احدهما عن الآخر)

انكوف — يانك !

كالياييف — حالاً . (يتنفس بعمق) : واخيراً ، واخيراً ...

ستيبان (يقترب منه) — استودعك الله يا اخي ، ان قلبي دوماً معك .

كالياييف — استودعك الله يا ستيبان (يلتفت نحو دورا) : استودعك الله يا دورا فقد لا اراك بعد اليوم .

(تقترب دورا منه فيكادان يلتصقان دون ان يتلامسا)

دورا — بل الى اللقاء يا حبيبي . لا بد وان نلتقي . (ينظر اليها . يسود صمت) .

كالياييف — الى اللقاء ، فأنا ... لا بد لروسيا من ان تصبح رائعة .

دورا (دامعة باكيه) — أجل ستصبح روسيا جميلة حقاً .

(يرسم كالياييف اشارة الصليب امام الايقونة ويخرج مع اننكوف. يمشي ستيبان نحو النافذة ، اما دورا فلا تتحرك بل تظل شاخصة نحو الباب)

ستيبان — يا لخطواته الثابتة ما اقومها ! كنت مخطئاً عندما نزعت ثقتي من يانك ، الا ترين ذلك معي ؟ فقد كنت لا احب حماسته . أرأيت اليه عندما رسم اشارة الصليب ؟ فهل هو مؤمن حقاً ؟

دورا — انه لا يمارس العبادة والصلاة .

ستيبان — ومع ذلك فنفسه دينة وهذا ما كان يفرق بيننا . انني اشد منه خشونة . غير اننا نحن الذين لا نؤمن بالله ، لا بد لنا من تحقيق العدل باكمله او نتخبط في اليأس .

دورا — اما في نظره فان العدل نفسه موئس.

ستيبان — نعم ، نفسه ضعيفة ، ولكن يده قوية ، فهو اعظم قيمة من نفسه . لا شك انه سيقتله ، هذا مؤكد . ان هذا شيء حسن ، بل حسن جداً . لا بد من الهدم والتخريب . هذا ما يجب علينا . ولكن ما بالك لا تقولين شيئاً ؟ (يتفحصها) : أتحبينه ؟

دورا — لا بد للحب من توفر الزمان . أما نحن فلا يكاد وقتنا يكفي للعدالة .

ستيبان — انك على حق . فثمة اعمال كثيرة علينا ان نحققها ، علينا ان نهدم هذه الدنيا رأساً على عقب ... وبعد ذلك ... (عند النافذة) : بت لا اراهما ، لا بد انهما وصلا .

دورا — وبعد ذلك ...

ستيبان — وبعد ذلك ... نفرغ للحب .

دورا — إن كنا لم نزل على قيد الحياة .

ستيبان — يتفرغ الآخرون لحبهم، ولا فرق عندي بين هذا وذاك .

دورا — اي ستيبان ، انطق بهذه «الحقد.»

ستيبان — ماذا ؟

دورا — هذه الكلمة : « الحقد » تلفظ بها.

ستيبان — الحقد .

دورا — عافاك الله . فان يانك كان لا يحسن النطق بها .

ستيبان (بعد لأي ، سائراً نحوها) — انني افهم فأنت تزدريني. ولكن هل انت متأكدة من انك على صواب ؟ (يسود الصمت برهة ثم لا يلبث ان يصيح بعنف متزايد) : انكم هنا جميعاً تساومون على ما تفعلون باسم الحب الخسيس. اما انا فلا احب شيئاً بل احقد ، نعم ، احقد على امثالي، فماذا يجديني حبهم هذا ؟ لقد عرفته ، حبهم في المعتقل، منذ ثلاث سنوات... ومنذ ثلاث سنوات وانا احمله على ظهري ؛ فهل تريدين مني ان أرق فأحمل القنبلة كما لو كنت احمل صليباً ؟ لا ! لا ! لقد تجاوزت حدي ... وعرفت اشياء كثيرة ... اكثر مما ينبغي ... انظري ... (يمزق قميصه . تتحرك دورا نحوه ولا تلبث ان تتراجع امام آثار السياط) : هذه هي الآثار ! آثار حبهم ! فهل تزدريني بعد اليوم ؟

(تمشي دورا نحوه وتعانقه فجأة)

دورا — ومن ذا الذي يزدري الالم يا ستيبان ؟ بل اني احبك .

ستيبان (ينظر اليها وكأنه يكلم نفسه) سامحيني يا دورا. (يلتفت بعد برهة) : فقد يكون هذا من جراء التعب والاجهاد . اعوام طويلة من النضال والقلق والمخبرين السريين والمعتقلات والسجون وآخر الكيل، هذه (يظهر آثار السياط) . فأنى اجد القوة الكافية للحب ؟ لقد بقيت لي على الاقل قوة الحقد وهذا افضل بكثير من ألا يحس المرء شيئاً .

دورا — أجل ، هذا افضل . (ينظر اليها . تدق الساعة السابعة)

ستيبان (يلتفت فجأة) — بعد هنيهة سيمر الدوق الكبير .

(تتجه دورا نحو النافذة وتلتصق بالزجاج . يسود صمت طويل . ثم تقترب العربة من بعيد ، وتمر ...)

ستيبان — لو انه وحيد ...

(تبتعد العربة . انفجار هائل . تقفز دورا فجأة وتخبيء رأسها بين يديها . صمت طويل)

ستيبان — لم يقذف بوريا قنبلته ! لقد نجح يانك ! لقد نجح ! يا لشعبنا ! يا للفرحة الكبرى !

دورا (ترتمي باكية عليه) — نحن الذين قتلناه ! نحن الذين قتلناه ! انا التي قتلته .

ستيبان (صارخاً) — من قتلنا ؟ يانك ؟

دورا — بل الدوق الكبير.

ستــار

الفصل الرابع

زنزانة في برج «بوغاتشيف» في سجن « بوتوكي » . صباحاً .

(عندما يرتفع الستار ، يظهر كاليابيف في زنزانته وهو ينظر الى الباب. يدخل حارس من حراس السجن مع سجين يحمل دلواً)

الحارس — نظف ، واعمل بسرعة .

(يذهب ليقف قرب النافذة. يبدأ فوكا بالتنظيف دون ان ينظر الى كاليابيف . صمت)

كاليابيف — ما اسمك ايها الاخ ؟

فوكا — فوكا .

كاليابيف — أأنت محكوم عليك ؟

فوكا — يظهر .

كاليابيف — ولكن ما الذي فعلته ؟

فوكا — لقد قتلت .

كاليابيف — أكنت جائعاً ؟

الحارس — اخفض صوتك .

كاليابيف — ماذا تقول ؟

الحارس — اخفض صوتك . فأنا ادعكما تتكلمان رغم الاوامر ، فتكلم اذن بصوت منخفض وقلد العجوز .

كاليابيف — هل كنت جائعاً ؟

فوكا — كلا ، بل كنت عطشاً .

كاليابيف — وإذن ؟

فوكا — وإذن ، فلقد كان ثمة فأس بجانبي ، فقوضت كل شيء . ويظهر انني قتلت منهم ثلاثة .

(كاليابيف ينظر اليه) . ما بالك لم تعد تدعوني اخاً ايها «البارين» (١) . ما لحميتك قد خمدت ؟

كاليابيف — لا ، فقد قتلت انا كذلك .

فوكا — وكم قتلت من الناس ؟

كاليابيف — سأقوله لك ان اردت يا اخي . ولكن اجبني ، هل انت آسف على ما فات ؟

فوكا — كيف لا اتأسف وقد حكمت بعشرين سنة ؟ انه لثمن باهظ . عشرون سنة تخلف لك الحسرات .

كاليابيف — عشرون سنة ... ادخل الى السجن وانا ابن ثلاث وعشرين ، واخرج منه ابيض الشعر .

فوكا — اوه ! قد يكون مصيرك خيراً من مصيري . ان القضاة على انواع ، منهم الحسن ومنهم الرديء . ان هذا يتوقف على ان يكون القاضي متزوجاً ام لا ، وبمن . ثم انك «بارين» وليست التعرفة هي نفسها التي يطبقونها على المساكين الاشقياء . فلا بد من ان تجد لك مخرجاً .

كاليابيف — لا اعتقد ذلك ، بل لا اريده ، فأنا لن استطيع احتمال الخجل طوال عشرين عاماً .

فوكا — الخجل ؟ واي خجل ؟ وبعد فهذه آراء لا تصدر الا عن « بارين » . قل لي كم شخصاً قتلت ؟

كاليابيف — شخص واحد .

فوكا — ماذا تقول ؟ هذا لا شيء يستحق الذكر .

كاليابيف — لقد قتلت الدوق الكبير سرج .

فوكا — الدوق الكبير ... ولكن لم هدفت الى بعيد بعيد ، أترى الى هؤلاء السادة ؟ قل لي هل الامر على هذه الخطورة ؟

كاليابيف — أجل ان الامر خطير، ولكن كان لا بد من ذلك .

فوكا — ولكن لماذا ؟ هل كنت تعيش في البلاط . انها قصة امرأة أليس كذلك ؟ حسناً فعلت ما دمت ...

كاليابيف — انا اشتراكي .

الحارس — اخفض صوتك .

كاليابيف (بصوت مرتفع) — اني اشتراكي ثوري .

فوكا — وتلك نهاية المطاف ! وأية حاجة دفعتك لأن تكون كما قلت ؟ ما كان عليك إلا ان تبقى هادئاً حتى يسير كل شيء على ما يرام . فالأرض إنما جعلت لكم انتم « السادة ».

كاليابيف — بل إنما جعلت لك انت . فهناك المزيد من البؤس والمزيد من الجرائم . وحين يخف البؤس ، لا بد من ان تقل الجرائم . ولو كانت الارض حرة المشاع ، لما كنت هنا .

فوكا — نعم ، ولا. الخلاصة ، حرة المشاع أم لا، فليس من العقل في شيء ان يشرب الانسان كأساً ازيد مما ينبغي .

كاليابيف — اجل ، ليس من العقل في شيء ولكن المرء يشرب لأنه مذلول . ولا بد

(١) Barine ، كلمة روسية تقابلها عندنا بك أو آغا أو سيد.

بد من ان يأتي يوم لا يحتاج فيه المرء الى ان يشرب على الاطلاق ويتحرر فيه البشر من الخزي والهوان سواء أكانوا سادة ام عبيداً. وسنصبح اخوة جميعا ؛ وستجعل العدالة قلوبنا رقيقة شفافة. فهل تفهم ما اعني ؟

فوكا — نعم ... مملكة الله

الحارس — اخفض صوتك .

كالياييف — لا تقل هذا يا اخي . فالله لا يستطيع شيئا والعدل إنما يدخل في اختصاصنا نحن ! (يسود الصمت) ألا تفهمني ... هل تعرف اسطورة القديس ديمتريوس ؟

فوكا — لا ، لا اعرفها.

كالياييف — سأرويها لك : كان القديس ديمتريوس على موعد مع الله في البادية. وبينما كان يحث خطاه للقاء ربه، التقى بفلاح قد غرقت عجلات عربته في الموحل والطين . فأخذ القديس ديمتريوس يعينه على اخراج العربة . غير ان الطين كان كثيفاً والوحل عميقا . فكان عليه ان يعارك مع الفلاح مدة ساعة من الزمن . وعندما انتهيا من عملهما، اسرع القديس للقاء ربه. غير ان الله كان قد غادر البادية .

فوكا — والمغزى ؟

كالياييف — المغزى هو عند اولئك الذين يصلون دائماً متأخرين عن مواعيدهم، لا شيء سوى انهم يصادفون عربات كثيرة موحلة ، واخوانا عديدين لا بد من اغاثتهم . (يتراجع فوكا) : ماذا دهاك ؟

الحارس — اخفض صوتك . وانت ايها العجوز اسرع في عملك .

فوكا — لست مطمئنا الى هذا، فكل هذه الامور ليست طبيعية. اني لا اكاد اصدق ان يدخل السجن امرؤ من اجل اساطير قديسين وقصص عربات . ثم هناك اشياء اخرى ...

(ينفجر الحارس بالضحك)

كالياييف (ناظراً اليه) — ما هي هذه الاشياء؟

فوكا — ما جزاء الذي يقتل الدوق الكبير؟

كالياييف — الشنق

فوكا — آه !

(يخرج فوكا بينما يمعن الحارس في الضحك)

كالياييف — بل ابق ، ما الذي فعلته لك حتى تخرج ؟

فوكا — انك لم تفعل لي شيئا. وبالرغم من انك «بارين»، لا اريد ان اخدعك، فنحن نثرثر هكذا قتلاً للوقت . ولكن ان تشنق فهذا شيء مريع.

كالياييف — ولماذا ؟

الحارس (ضاحكا) — هيا يا عجوز، تكلم...

فوكا — لأنك لن تستطيع ان تكلمني كأخ فأنا الذي اشنق المحكومين بالاعدام .

كالياييف — ألست محكوماً عليك بالاشغال الشاقة انت ايضاً ؟

فوكا — بل لهذا السبب بالذات، انهم عرضوا علي ان اقوم بهذه المهمة لقاء سنة يحسمونها من سجني عن كل مشنوق . أفلا ترى انه عمل رابح

كالياييف — وهكذا، كي يغفروا لك جرائمك يدفعونك لارتكاب جرائم اخرى !

فوكا — اوه ! ليست هذه بجرائم ما دمت لا اشنق الا المحكومين بالاعدام . وبعد ، فالامر سواء بالنسبة اليهم . وان اردت رأيي فيهم فهم ليسوا مسيحيين .

كالياييف — وكم مرة فعلت ذلك حتى الان ؟

فوكا — مرتين

(يتراجع كالياييف . اما الآخران فيدركان الباب ، الحارس دافعاً فوكا)

كالياييف — انك اذن جلاد.

فوكا (عند الباب) — وانت، يا « بارين » ، ما انت ؟

(يخرجان . تسمع خطوات واوامر عسكرية . يدخل سكوراتوف بادي الاناقة بصحبة الحارس)

سكوراتوف — دعنا وحدنا . عم صباحاً . ألا تعرفني . اما انا فاعرفك (يضحك) لقد غدوت شهيراً منذ اليوم أليس كذلك (ينظر اليه) هل استطيع ان اعرفك بنفسي . (كالياييف لا يقول كلمة) ألا تقول شيئاً ؟ اني لأفهم ذلك ، العزلة، هيه، انها لشديدة الوطأة. ثمانية ايام من العزلة. اما اليوم فاننا قد ازلنا عزلتك وستستقبل زائرين ، والحق اني هنا من اجل هذا الامر ، لقد بعثت لك بفوكا؛ انه لفريد أليس كذلك؟ لقد ظننت انه تهمك محادثته ، فهل انت مسرور ؟ انه لحسن ان يرى الانسان وجوهاً بشرية بعد ثمانية ايام من العزلة ، ألست من رأيي ؟

كالياييف — ان كل شيء يتوقف على صاحب الوجه .

سكوراتوف — جواب عظيم محكم الاصابة فانت تعرف ما تريد (بعد برهة) : ان فهمت جيداً فهذا يعني ان وجهي لا يروق لك !

كالياييف — نعم .

سكوراتوف — لقد خيبني جوابك ولكن ما ذلك الا سوء تفاهم. فالانارة سيئة اولاً ثم انه ليس في اقبية السجون من هو مأنوس ذو ود ، فلن يستعذب الانسان وجها، وعلى اية حال فانك لا تعرفني . ولأول وهلة قد يستثقل المرء بعض الوجوه ولكن عندما يعرف قلوب اصحابها ...

كالياييف — كفاك . من انت ؟

سكوراتوف — مدير الشرطة

كالياييف — اجير اذن

سكوراتوف — اجير لأخدمك . ولكن لو كنت مكانك لأبديت فخراً اقل. ومن يدري فقد تنتهي الى ذلك. فالبشر يبدأون عادة في ابتغاء العدل وينتهون الى تنظيم شرطة تسهر على سلطانهم ! واياً ما كان فان الحقيقة لا ترهبني ، وسأكون صريحاً معك فان امرك يهمني ، واني لأمنحك الوسائل للحصول على العفو .

كالياييف — وأي عفو تعني ؟

سكوراتوف — ألا تعرف اي عفو ، اني لأتيح لك سبيل الخلاص .

كالياييف — ومن الذي طلبها اليك

سكوراتوف — اننا لا نطلب الحياة يا عزيزي واننا نتلقاها تلقياً . ألم تعف عن احد في حياتك ؟ (بعد برهة) : ابحث في ذاكرتك جيداً .

كالياييف — اني لأرفض عفوك مرة اولى واخيرة .

سكوراتوف — استمع الي على الاقل فأنا لست عدوك رغم الظواهر . وانا اقر ان تكون على حق في ما تفكر به، الا في امر الجريمة...

كالياييف — اني لأنهاك عن استعمال هذه الكلمة.

سكوراتوف (ناظراً اليه) — آه ! ان الاعصاب واهنة أليس كذلك ؟ (بعد برهة) : صدقني ، انا راغب في معونتك.

كالياييف — في معونتي ؟ انني على استعداد لأن ادفع ما لا بد منه ولكنني لن احتمل منك ان ترفع الكلفة معي . دعني وشأني .

سكوراتوف — ان الاتهام الذي يثقل كاهلك ...

كالياييف — بل اصر على ان تقوم خطأك .

سكوراتوف — ماذا يريد سيدي ؟

كالياييف — قلت عليك بتقويم خطأك فأنا اسير حرب لا متهم .

سكوراتوف — لنفرض ذلك . ولكن الا تقر معي ان هناك خسائر ؟ لندع جانباً الدوق الكبير والسياسة ، فهناك على الاقل موت رجل ، وأي موت !

كالياييف — لقد قذفت القنبلة على طغيانكم ، لا على رجل .

سكوراتوف — من غير شك، ولكن الرجل هو الذي تلقاها. وهذا لم يصلح من شأنه ابداً... وحين عثر على الجسد كان الراس ينقصه ، لقد

اختفى الرأس ! اما سائر اعضاء الجسد فلم يعرف منها الا ذراع وقسم من الساق او يكاد .

كالياييف – لقد نفذت قرار الحزب .

سكوراتوف – قد يكون ، قد يكون ، اننا لا نؤاخذك على القرار ، فما يعني قرار حزب ؟ انها كلمة يمكن ان تناقش ليالي بطولها وانما نأخذ عليك ... كلا ، فقد لا تحب هذه الكلمة . انقل عمل هاو مضطرب بعض الشيء ، ولكن نتائجه لا مراء فيها ؛ ذلك ان الناس جميعاً استطاعوا مشاهدتها . سل الدوقة الكبيرة . لقد كانت هناك دماء . أتفهم، دماء غزيرة .

كالياييف – صه .

سكوراتوف – لا بأس . وددت ان اقول فحسب انك اذا اصررت على التحدث عن قرار الحزب وعلى القول بان الحزب ، الحزب وحده هو الذي حاكم وهو الذي نفذ ، وبان الدوق الكبير لم يقتل بقنبلة بل قتل بفكرة،فلن تكون اذن بحاجة الى العفو . وافترض مع ذلك اننا عدنا الى الواضح البديهي في هذا الامر، افرض انك انت الذي نسفت رأس الدوق الكبير ، ألا تتغير المشكلة من اساسها ؟ إذ ذاك تكون بحاجة الى العفو . تأكد انني اريد ان اعينك عليه ، بدافع من الانس والود المحض (يبتسم) ما حيلتي ، انني لا اهتم بالافكار والمبادىء، وانما اهتم بالاشخاص.

كالياييف (منفجراً) – ان شخصي لأرفع منك ومن اسيادك ، انكم تستطيعون ان تقتلوني لا ان تحكموا علي ... انا اعرف إلام تقصد . انك تبحث عن نقطة ضعف في، وتنتظر مني موقفاً مخزياً ودموعاً وندامة ولكنك لست بحاصل على شيء من هذا . ان ما انا عليه لا يعنيك اطلاقاً . ان ما يعنيك إن هو الا حقدنا ، حقدي وحقد اخواني ، ونحن نضعه في خدمتك .

سكوراتوف – الحقد ، انه ايضاً فكرة . اما الذي لا يمكن ان يكون فكرة ، فانما هو القتل وعواقبه بالطبع . اعني الندم والعقاب . انما نحن هنا في صميم الموضوع . والحق اني من اجل هذا اقمت نفسي شرطيا ، ولكي اكون دوماً في صميم الاشياء . ولكنك لا تحب المسارة (بعد برهة ، يقترب منه ببطء) كل ما اردت قوله هو انه ينبغي لك الا تظهر وكأنك تحاول تناسي رأس الدوق الكبير . فاذا حسبت حسابه ، فان الفكرة لا تفيدك بعد شيئا ، بل قد تخجل مما فعلت مثلاً ، بدلا من ان تفخر بما عملت. وما ان يستولي عليك الخجل حتى تصبو الى ان تعيش لتصلح ما افسدت . ان اهم ما في الامر أن تعتزم الحياة

كالياييف – وإن انا اعتزمتها ؟

سكوراتوف – فالعفو عنك وعن رفاقك

كالياييف – هل اعتقلتموهم ؟

سكوراتوف – كلا ... ولكن اذا انت قررت ان تعيش ، فاننا سنعتقلهم للحال .

كالياييف – وهل افهم جيداً ما تعني ؟

سكوراتوف – بكل تأكيد . ولكن تريث قبل ان تغضب وفكر ملياً . انك لا تستطيع تسليمهم من وجهة نظر المبدأ ، اما من حيث البداهة والحقيقة فعلى العكس من ذلك ، انك تقدم لهم خدمة كبيرة ، انك لتجنبهم مشاكل جديدة ، وفي الوقت نفسه تحول بينهم وبين حبل المشنقة ، وفوق هذا كله فانك تنال راحة البال . ألا ترى انها صفقة من ذهب كيفما قلبتها. (يسكت كالياييف) : الا تجيب ؟

كالياييف – سيجيبك اخواني عما قليل .

سكوراتوف – جريمة اخرى أليس كذلك، الحق انها موهبة عندكم للاجرام ! ان مهمتي قد انتهت ، ولكن قلبي حزين ، فأنا اراك متشبثاً بافكارك ومبادئك وليس بوسعي ان افصلك عنها.

كالياييف – وليس بوسعك ان تفصلني عن اخواني كذلك .

سكوراتوف – الى اللقاء (يتظاهر بالخروج ولا يلبث ان يعود) : لماذا والحالة هذه، وفرت الدوقة الكبيرة وابني اخي الدوق ؟

كالياييف – ومن قالها لك ؟

سكوراتوف – لقد كان مخبرك يخبرنا ايضا ولو جزئياً على الاقل ... ولكن لم وفرتهم ؟

كالياييف – ان هذا لا يعنيك ...

سكوراتوف (ضاحكا) – أتظن ذلك ؟ ولكني سأقول لك انا لماذا وفرتهم : ان فكرة ما تستطيع ان تقتل دوقاً كبيراً ، ولكن من العسير عليها ان تفضي الى قتل اطفال صغار. هذا ما اكتشفته. وهنا يطرح سؤال : اذا لم تستطع الفكرة ان تقتل الاطفال فهل تستحق ان يقتل من اجلها دوق كبير ؟ (يهم كالياييف بالجواب): انتظر ، لا تجبني ، اجل لا تجبني ! فانك ستجيب الدوقة الكبيرة .

كالياييف– الدوقة الكبيرة ؟

سكوراتوف – اجل، انها تريد ان تراك ولقد جئت خصيصاً كي اتأكد من ان هذه المحادثة ممكنة. وانها لكذلك . ومن يدري فهي توشك ان تحملك على تغيير رأيك . ان الدوقة الكبيرة مسيحية ، وان النفس هي ميدان اختصاصها ! (يضحك) .

كالياييف– لا اريد رؤيتها .

سكوراتوف – متأسف ، انها تصر على ذلك . ومهما يكن من امر ، فانك مدين لها ببعض الرعاية ، ويقال ايضاً،إنها منذ وفاة زوجها باتت لا تملك جميع قواها العقلية . لذلك لم نشأ معاكستها (عند الباب) اذا غيرت رأيك فلا تنس ما عرضته عليك . سأعود حتما (ينتظر برهة ويصغي) : هذه هي . عليك باستقبال الدين بعد الشرطة ! لا ريب في اننا ندللك كثيراً ، ولكن لا بد من جميع هذه الامور . تصور الله بدون السجون . يا لوحشته !

(يخرج ، تسمع اصوات واوامر عسكرية، تدخل الدوقة الكبيرة وتبقى صامتة بلا حركة . الباب مفتوح ...)

كالياييف – ماذا تريدين ؟

الدوقة الكبيرة (مسفرة عن وجهها) – انظر . (يسكت كالياييف) : ان كثيراً من الاشياء تموت بموت انسان .

كالياييف – كنت اعرف هذا .

الدوقة الكبيرة (دون ما تكلف ، ولكن بصوت موهون) ان القتلة لا يعرفون ذلك ، والا فكيف يقدمون على القتل ؟ (صمت .)

كالياييف – لقد رأيتك ،. فأود الآن ان ابقى وحيداً .

الدوقة الكبيرة – كلا،بل بقي علي ان انظر اليك ايضا (يتراجع ، تجلس الدوقة الكبيرة وكأنها منهوكة القوى) : لن استطيع البقاء وحيدة بعد اليوم . كان يستطيع ان يرى ألمي ، اذا ما تألمت قبلًا . إذن فقد كان الالم امراً حميداً اذ ذاك . اما اليوم ... لا ، لن استطيع البقاء وحيدة بعد الآن ، بل لن استطيع السكوت... من تريد ان اكلم ؟ الآخرون ؟ ... انهم لا يعرفون... انهم يتظاهرون بالحزن والاسى. فهم يحزنون ساعة او ساعتين ، ثم يذهبون فيأكلون وينامون . ينامون خاصة .. يخيل لي انك تشبهني لا محالة . فانت لا تنام ، وانا متأكدة من ذلك . ولكن مع من تريد ان اتحدث عن الجريمة ، ان لم اتحدث مع القاتل ؟

كالياييف – اية جريمة ؟ فانا لا اذكر الا عملًا عادلاً .

الدوقة الكبيرة – الصوت ذاته ! ان لك صوتاً هو عين صوته . فجميع الرجال يتخذون النبرة نفسها عندما يتكلمون عن العدل . لقد كان يقول : « ان هذا لعدل ! » وكان على الباقين ان يصمتوا . ومن يدري ، فلعله كان مخطئاً ، ولعلك مخطىء انت ...

كالياييف – بل كان يجسد الظلم المطلق ،

الظلم الذي ما برح الشعب الروسي يئن تحت نيره منذ قرون . ومن اجل ذلك كان يحصل على الامتيازات . وحتى لو انني كنت مخطئاً ، فان السجن والموت هما اجرتي .

الدوقة الكبيرة – اعرف انك تتألم . اما هو فقد قضيت عليه .

كالاييف – لقد مات على حين غرة منه ، وموت كهذا ليس امراً ذا بال .

الدوقة الكبيرة – مـا تقول ؟ (بصوت منخفض) : حقاً ، لقد اقتادوك للحال . يبدو انك كنت تخطب في رجال الشرطة ، واني لأفهم ذلك ، فان هذا لا بد وان يعينك في محنتك . اما انا فقد وصلت بعد ثوان معدودات من الحادث . لقد رأيت فوضعت على محمل جميع ما كنت استطيع جره . يا لغزارة الدماء ! (بعد برهة) : وكان ثوبي ابيض اللون ...

كالاييف – اسكتي !

الدوقة الكبيرة – ولماذا اسكت ، وأنا لا اقول سوى الحقيقة . هل تدري ما كان يفعل قبل ساعتين من موته ؟ كان نائماً على مقعد وثير ، وقدماه على كرسي ... كما كان ينام دائماً . كان نائماً ، وانت كنت تترقبه في ظلمة ذلك المساء القاسي (تبكي) اما الان ، فساعدني (يتراجع متصلباً) انك ما زلت شابا ، فلا يمكنك ان تكون شريراً .

كالاييف – لم يتسع لي الوقت لأكون شابا .

الدوقة الكبيرة – ولماذا تتصلب هكذا ، ألست تشفق على نفسك ابداً ؟

كالاييف – لا .

الدوقة الكبيرة – انـك مخطىء . فالرفق بالنفس يروح عنها قليلا . امـا انا ، فلن ارفق إلا بنفسي (بعد برهة) : اني متألمة . كان عليك ان تقتلني معه بدلا من ان توفرني .

كالاييف – لم اوفرك انت وانما الطفلين اللذين كانا معكما .

الدوقة الكبيرة – اعرف ذلك ... انني لم اكن احبهما كثيراً (بعد برهة) : انها ابنا أخي الدوق الكبير . ألم يكونا آثمين كعمهما ؟

كالاييف – كلا .

الدوقة الكبيرة – ولكن هل تعرفهما ؟ ان للطفلة قلباً قاسياً . انها ترفض ان تحمل هي نفسها ما تتصدق به على البائسين ، وهي تخـاف ان تمسهم . أليست هي ظالمة ؟ بلى ، انها لظالمة . أما هو ، فقد كان يحب الفلاحين على الاقل ، وكان يشمل معهم ، ومع ذلك فقد قتلته . فلا بد وان تكون ظالماً انت ايضاً . لقد اقفرت الارض .

كالاييف – ان جميع ما تقولين غير مجد ، فانت تحاولين ان تحطي من عزيمتي وان تؤئسيني . انك لن تنجحي في محاولتك هذه فدعيني .

الدوقة الكبيرة – الا ترغب في الصلاة معي وفي ان تتوب الى الله؟... في الصلاة لن نكون وحدنا ابداً .

كالاييف – دعيني اتهيأ للموت . فاذا لم امت كنت اذ ذاك من القاتلين .

الدوقة الكبيرة (تنتصب) – تموت ؟ تريد ان تموت ؟ كلا . (تمشي نحو كالاييف وهي شديدة الانفعال) عليك ان تعيش ، وان ترتضي بان تصبح في عداد القاتلين . أو لم تقتله ؟ ان الله وحده هو الذي يبرر اعمالك .

كالاييف – ولكن اي إله ؟ الهي ام الهكم ؟

الدوقة الكبيرة – بل إله الكنيسة المقدسة .

كالاييف – لا دخل للكنيسة ها هنا .

الدوقة الكبيرة – انها تخدم معلماً بلا هو ايضاً حياة السجون .

كالاييف – لقد تبدلت الازمنة كثيراً منذ ذلك الحين ، ولقد احتارت الكنيسة المقدسة ما اختارته من ميراث معلمهـا .

الدوقة الكبيرة – اختارت ، ماذا تعني بها ؟

كالاييف – لقد اختصت نفسها بالرحمة والغفران وتركت لنا نحن امر العنـاية بممارسة الاحسان والصدقة .

الدوقة الكبيرة – ومن « نحن » ؟

كالاييف (صارخاً) – جميع من تعلقونهم على اعواد المشانق (صمت)

الدوقة الكبيرة (بهدوء) – ولكنني لست عدوتك !

كالاييف (يائسا) – بل انت عدوتي كجميع هؤلاء الذين يمتون الى عنصرك وعشيرتك بصلة . وهناك احقر وابشع من ان يصبح المرء مجرماً ، وهو ان نكرهه على الاجرام انساناً لم يخلق له . انظري الى وجهي ملياً ، اقسم لك بانني لم اخلق للجريمة

الدوقة الكبيرة – لا تخاطبني كأنك تخاطب عدواً لك . انظر (تذهب وتغلق الباب) انني الجأ اليك (تبكي) : ان الدماء تفصل بيننا ، ولكنك تستطيع ان تجتمع بي في ذات الله ، بل في مكان المصيبة بعينه . صل معي على الاقل .

كالاييف – انني ارفض ذلك (يمشي نحوها) وانا لا اشعر نحوك الا بالرأفة ، وقد مسست اوتار قلبي ، فلا بد وانك ستفهمين موقفي بعد الان ، لأنني لن اخفي عنك شيئا . انني لن اعتمد بعد مطلقاً على لقاء ربي ، ولكن اذ اموت فسأكون دقيقاً في الموعد الذي ضربته مع اولئك الذين احببتهم ، اخوتي الذين يذكرونني في هذه اللحظة بالذات ، فصلاتي ستكون خيانة لهم

الدوقة الكبيرة – وماذا تعني بذلك ؟

كالاييف (بحماس بالغ) – لا شيء ، سوى انني سأصبح سعيداً . ان امامي بعد نضالاً طويلا وسأقوم به . ولكن حين يصدر الحكم وتحين ساعة التنفيذ ، وانا في ظل المشنقة ، فسأنصرف عنك وعن هذا العالم الكريه ، واسلم نفسي للحب الذي يملأ كياني . اتراك تفهمينني ؟

الدوقة الكبيرة – ليس من حب بعيد عن الله

كالاييف – بلى ، ان هناك حب المخلوقات

الدوقة الكبيرة – ان المخلوقات لحقيرة فهل هناك الا ان تباد او يغفر لها ؟

كالاييف – نعم ، ان يموت الانسان معها

الدوقة الكبيرة – لا يموت الانسـان الا وحيداً . لقد مات هو ايضاً وحيداً .

كالاييف (يائساً) – يموت معها ! ان على الذين يتحابون اليوم ان يموتوا معاً اذا كانوا يحرصون عـلى ان يجتمعوا . فالظلم يفرق ، وكذلك العـار والالم والاذى الذي يلحقه الانسان بالآخرين ، والجريمة ايضاً تفرق بيننا . فالحياة اذن تعذيب لأن الحياة تفرق ...

الدوقة الكبيرة – ان الله يجمع

كالاييف – لا على هـذه الارض ، وان مواعيدي هي على هذه الارض بالذات

الدوقة الكبيرة – ان هي الا مواعيد الكلاب انوفها في الرغام ، تتشمم دائما ولكنها ابداً خائبة .

كالاييف (ملتفتاً نحو النافذة) – ساتأكد من ذلك بعد حين . (بعد برهة) : ولكن ألا نستطيع ان نتصور كائنين زاهدين في الفرح يتحابان في الالم من غير ان يكون في استطاعتهما ان يضربا موعداً للقـاء الا في الالم ؟ (ينظر اليها) الا نستطيع ان نتصور ان حبلا واحداً يمكن ان يجمع بين هذين الكائنين ؟

الدوقة الكبيرة – واي حب فظيع هـذا الذي تعني ؟

كالاييف – انت وذووك لم تسمحوا لنـا قط بسواه .

الدوقة الكبيرة – وانا ايضاً كنت احب ذاك الذي قتلته .

كالاييف – لقد ادركت ذاك . ولذا تريني اغفر لك الاذى الذي الحقته بي انت وذووك ، (بعد برهة) : والآن دعيني وشأني . (صمت طويل .)

الدوقة الكبيرة (منتصبة) – سادعك وانصرف ،

ولكن ، اعلم الان ، انني اتيت لزيارتك ، كيما اردك الى الله . غير انني اراك تريد ان تحاكم نفسك وان تنجو بمعزل عنه. ولكنك لن تستطيع ذلك فالله وحده قادر عليه ، ان بقيت على قيد الحياة . تأكد انني سأطلب العفو عنك .

كاليابيف — اضرع اليك ألا تفعلي ، دعيني اقضي او احقد عليك حتى الموت

الدوقة الكبيرة (عند الباب) — بل سأطلب العفو عنك من الله ومن الناس

كاليابيف — لا ، لا ، اني امنعك عن ذلك . (يركض نحو الباب فيجد عنده فجأة سكوراتوف. يتراجع كاليابيف ويغمض عينيه . سكون. ينظر الى سكوراتوف من جديد)

كاليابيف — كنت بحاجة اليك

سكوراتوف — ان هذا ليفرحني ، فما حاجتك الي ؟

كاليابيف — كنت بحاجة للازدراء من جديد .

سكوراتوف — مع الاسف ، كنت آتياً لآخذ الجواب .

كاليابيف — انه في حوزتك الان

سكوراتوف (مغيراً لهجته) — لا لم احصل عليه بعد . استمع جيداً . لقد سهلت هذه المقابلة مع الدوقة الكبيرة ، لأستطيع نشر النبأ غداً في الصحف. وستكون الرواية صحيحة ، الا في نقطة واحدة ، وستتضمن الاعتراف بتوبتك. وهكذا سيظن رفاقك انك قد خنتهم

كاليابيف (بهدوء) — ولكنهم لن يصدقوا الرواية.

سكوراتوف — لن اوقف نشر الخبر الا اذا انتقلت الى الاعترافات ، وامامك الليل بطوله كيما تقرر (يتجه نحو الباب) .

كاليابيف (باعلى صوته) — لن يصدقوا الرواية.

سكوراتوف (ملتفتاً) — ولم لا ؟ الم يرتكبوا خطيئة ما في حياتهم ؟

كاليابيف — ولكنك لا تدرك مدى حبهم .

سكوراتوف — كلا ، ولكنني اعرف انه يستحيل على المرء ان يؤمن بالاخاء طيلة ليل بكامله من غير ان تخور قواه ولو دقيقة واحدة. وسأترقب هذا الخور ، (يغلق من دونه الباب) : لا تتعجل الامور ، فأنا جد صبور .

(يظلان وجهاً لوجه.)

ستــار

الفصل الخامس

منزل آخر ، غير انه من الطراز عينه .

بعد اسبوع . ليلا .

(سكون . دورا تذرع الغرفة طولاً وعرضاً)

انتكوف — استريحي يا دورا .

دورا — انني مقرورة .

انتكوف — تعالي واستلقي هنا. تدثري بغطاء.

دورا (مستمرة في المشي) — ان الليل لطويل . كم انا مقرورة يا بوريا . (يقرع الباب طرقة ثم طرقتين ، يذهب انتكوف ليفتح ، يدخل ستيبان وفوانوف الذي يمشي نحو دورا ويعانقها فتشده الى صدرها) الكسي !

ستيبان — يقول اورلوف انه من المحتمل ان تنتهي هذه الليلة. فان جميع الضباط الذين هم خارج مراكزهم قد استدعوا ، ولذا فسيكون حاضراً .

انتكوف — واين ستلقاه ؟

ستيبان — سينتظرنا ، فوانوف وانا ، عند المطعم الكائن في شارع سوفيسكايا .

دورا (تجلس منهوكة) — هذه الليلة اذن يا بوريا .

انتكوف — لم يفتنا شيء بعد ، فالقرار متعلق بالقيصر .

ستيبان — القرار يتعلق بالقيصر اذا كان يانك قد طلب العفو .

دورا — انه لم يطلبه .

ستيبان — ولكن فيم اذن كانت مقابلته للدوقة الكبيرة ، اذا لم تك للعفو عنه ؟ لقد اشاعت في كل مكان انه قد تاب ، فكيف يمكننا معرفة الحقيقة ؟

دورا — اننا نعرف ما قاله امام المحكمة ، وما كتبه لنا . ألم يقل يانك انه يأسف لأنه لا يملك غير حياة واحدة ، اذن لرماها متحديا في وجه الاستبداد ؟ فهل يمكن لرجل قال هذا ان يستجدي العفو عنه ، أمن الممكن ان يتوب ؟ كلا ، لقد كان وما يزال يريد الموت . ان ما فعله لا يمكن نكرانه .

ستيبان — لقد اخطأ بمقابلته الدوقة الكبيرة .

دورا — هو وحده من يحكم على ذلك ...

ستيبان — ما كان عليه ان يراها ، هذا ما يقضي به نظامنا .

دورا — ان نظامنا هو ان نقتل ليس إلا . اما الآن فانه حر ، انه حر اخيراً ...

ستيبان — لم يصبح بعد حراً .

دورا — بل هو حر ، وله الحق في ان يفعل ما يريد وهو على اهبة الموت ، ذلك انه سوف يموت فيمكنكم ان تفرحوا !

انتكوف — دورا !

دورا — اجل ، اجل ! اجل ! اي انتصار لو عفي عنه ! اذن لكان في ذلك برهان ساطع على ان الدوقة الكبيرة قد اشاعت الحقيقة بانه تاب وخان. اما اذا قضى فانكم بالعكس ستثقون به ، وعندها تستطيعون المضي في محبته . (تنظر اليهم) يالحبكم كم هو باهظ الثمن !

فوانوف (سائراً نحوها) — لا يا دورا ، اننا لم نجعله موضع شكنا مطلقاً .

دورا (وهي تروح وتغدو) — نعم ... قد يكون هذا صحيحاً ... سامحوني . ولكن ما الذي يهمنا بعد كل ذلك ! فاسوف نعرف هذه الليلة ... آه يا ألكسي ! مسكين انت ، ماذا اتيت تفعل ها هنا ؟

فوانوف — اتيت لأحل مكانه . كنت ابكي وكنت فخوراً وانا اقرأ خطابه في المحكمة. وعندما قرأت : « ان الموت الذي اطلب سيكون بمثابة احتجاجي الصارخ على عالم مليء بالدموع والدماء ... » اخذت ارتعد ارتعاداً .

دورا — عالم مليء بالدموع والدماء ... لقد قالها ... اجل ، لقد قالها .

فوانوف — لقد قالها يا دورا ، ويا لها من شجاعة ان يقولها ! ثم صيحته اخيراً : « ان كنت جديراً حقاً ببلوغ صعيد الاحتجاج الانساني على اساليب العنف فليتوج الموت اعمالي بطهارة الفكرة » فلما قرأتها ، عزمت على المجيء :

دورا (محنية رأسها بين كفيها) — لقد كان يرغب حقاً في الطهارة ، ولكن يا له من تتويج رهيب !

فوانوف — لا تبكي يا دورا ، فقد طلب الينا جميعاً ألا يبكي احد موته . وانني لأفهمه الآن حق الفهم ، ولا يمكنني ان اشك فيه . لقد تألمت طويلا لأنني كنت جباناً ، ولكنني القيت بعد ذلك القنبلة في مدينة تفليس . اما الان فلست اختلف عن يانك في شيء ، وعندما علمت بالحكم عليه لم تكن في رأسي الا فكرة واحدة : ان آخذ مكانه ما دمت لم استطع ان اكون الى جانبه في محنته .

دورا — ولكن من ذا الذي يستطيع ان يأخذ مكانه هذه العشية ؟ فلسوف يكون وحيداً يا الكسي .

فوانوف — ينبغي لنا ان نؤازره بفخرنا ، كما يؤازرنا هو بالمثل الذي ضربه فلا تبكي يا دورا

دورا — انظر ، ان عيني جافتان ، ولكن

أن أكون معتزة ، كلا ، فليس بوسعي ان اعتز بعد الآن !

ستيبان – لا تسيئي الحكم علي يا دورا . فأنا أتمنى إن يبقى يانك على قيد الحياة . فنحن أحوج ما نكون الى رجال أمثاله .

دورا – أما هو ، فلا يتمنى ان يبقى حياً . وعلينا ان نشتهي موته .

أننكوف – يالك من مجنونه !

دورا – أجل ، علينا ان نشتهي موته ، فانا أدرى بقلبه – انه لن يعمره السلام إلا بالموت. إي نعم ، فليمت ! (بصوت منخفض) : فليمت، ولكن سريعاً .

ستيبان – أنا ذاهب يا بوريا . تعـــال معي يا ألكسي ، فأورلوف ينتظرنا .

أننكوف – إذهبا ، ولا تبطئا .

(يتجه ستيبان وفوانوف نحو الباب. وينظر ستيبان الى جهة دورا.)

ستيبان – سنحاول ان نعلم . اسهر عليها .

(دورا أمام النافـــذة وانتكوف ينظر اليها) .

دورا – آه يابوريا ! الموت ، المشنقـــة ! الموت ايضاً ، آه يابوريا !

أننكوف – إي اختاه ... ولكن ليس من حل آخر .

دورا – لا تقل هـــذا يابوريا . إذا كان الموت هو الحل الوحيد ، فلقـــد ضللنا السبيل القويم . انما السبيل القويم هو الذي يفضي الى الحياة ، الى الشمس . اذ لا يمكن للانسان ان يظل مقروراً أبداً .

أننكوف – هذه الطريق تفضي ايضاً الى الحياة ، حياة الآخرين . ان روسيا ستعيش ، وأولادنا سيحيون . اذكري ماكان يقـــوله يانك : « ستصبح روسيا رائعة حقاً . »

دورا – الآخرون ، صغـــارنا ... أجل سيحيون ... ولكن يانك في السجن ، والحبل بارد . انه سيموت ، بل لعله قد مات لكي يعيش الآخرون . اي بوريا ! وما الضمان في ان يعيش الآخرون ؟ واذا مات هو عبثاً ؟...

اننكوف – دعك من هذا .

(صمت)

دورا – يا للبرد ، مع انه الربيع ... اعرف ان في ساحة السجن اشجاراً ، ولا بد ان يراها.

اننكوف – كفاك معرفـــة ، كفاك ارتعاداً .

دورا – اشعر ببرد قارس ، حتى لأخـــالني قد مت . (بعد برهة) : ان كل ذلك يدفعنا نحو الشيخوخة بخطى اسرع . عبثاً نحاول ان نعيد طفولتنا الاولى يا بوريا. ان الطفولة تولي ، عند اول حادث قتل . يكفي ان اقذف القنبلة حتى تنهار في لحظة حياة برمتها . اجل ، ان بوسعنا ان نموت بعد اليوم : فلقد جبنا آفاق الانسان .

اننكوف – اذن فلنمت مناضلين ، كما يفعل الرجال .

دورا – لقد عملتم باسرع مما كان ينبغي، فلستم بعد رجالاً .

اننكوف – ولكـــن لا تنسي ان البؤس والشقاء يسرعان ايضاً . ليس هناك مكان للصبر والنضج في هذا العالم . ان روسيا على عجل .

دورا – أعرف هذا . لقد اخذنا على عاتقنا شقاء العالم . وهو ايضاً قد حمل نفسه هذا الشقاء. يا للشجاعة ! غير انني في بعض الاحيان ، اقول: انها كبرياء لا بد من ان تعاقب .

اننكوف – لكنها كبرياء ، ندفع ثمنها من حياتنا . ولا يمكن لأحد ان يتجاوزنا في ذلك . فهي كبرياء لنا الحق فيها .

دورا – هل نحن واثقون من ان احداً لن يتجاوزنا ؟ انني حين استمع الى ما يقوله ستيبان يعتريني الخوف أحيـــاناً . ولكن من يدري ؟ فربما جاء آخرون واتخذوا ذريعة للقتال من غير ان يدفعوا الثمن من حياتهم .

اننكوف – ذلك هو الجبن بعينه يا دورا .

دورا – من يدري ؟ بل ربما كان هذا ايضاً هو العدالة، ولن يجرؤ احد آنذاك على مواجهتها.

اننكوف–دورا (تسكت دورا) هل اعتراك الشك يا دورا ؟ اني لأنكرك .

دورا – انني مقرورة . وانا أفكر فيه وهو يأبى ان يرتجف كي لا يبدو انه خائف .

اننكوف – ماذا دهاك ؟ هل تخليت عنا يا دورا ؟

دورا – (ترتمي عليه) كلا يا بوريا ، انني معكم وسأبقى معكم حتى النهاية ! فأنا أمقت الطغيان، واعلم في الوقت نفسه ان ليس امامنا سوى هذا السبيل . ولكنني اخترت ذلك بقلب فرح ، واني لامضي فيه بقلب حزين . هذا هو الفرق يا بوريا لقد غدونا سجناء .

اننكوف – ان روسيا باسرها سجينة. ولسوف ندمر جدران سجنها ونبعثره في الفضاء .

دورا – هات القنبلة فقط وسترى، ولأتقدمن وسط الاتون، من غير ان تتزعزع مني الخطى. ما أسهل ذلك ! انه اسهـــل بكثير ان يقضي الانسان جزاء متناقضاته ، من ان يحياها. قل لي يا بوريا ، هل أحببت ، هل عانيت الحب ؟

اننكوف – نعم لقد احببت ، ولكن مر زمن بعيد حتى أخالني قد نسيته .

دورا – وما مدى هذا الزمن البعيد ؟

اننكوف – اربع سنوات .

دورا – ومتى ابتدأت بقيادة المنظمة ؟

اننكوف – منذ اربع سنوات ايضاً (بعد قليل) اما اليوم فاني اقصر حبي على المنظمة فقط .

دورا (متجهة الى النافذة) – ان احب، نعم، ولكن ان احـَب !... لا، لا بد من السير. ان بود المرء لو يقف . ســيري يا دورا ! سيري وحيدة ! ان بود المرء ان يبسط ذراعيه ويستسلم. ولكن الظلم القذر يلتصق بنا كالغراء . سيري وهكذا نرانا محكوماً علينا بان نكون اكبر من انفسنا. الكائنات، الوجوه: تلك هي التي يود المرء ان يحبها . فالحب اولى من العدالة ! كلا ، بل لا بدّ من السير باتجاه واحـــد . سيري يا دورا ! سر يا يانك (تبكي) اما هو، فان الهدف يدنو منه .

اننكوف (يضمها الى صدره) – لا بد ان يشمله العفو .

دورا (ناظرة اليه) – لماذا تراوغ ؟ انت تعلم جيداً ان لا . انت تعلم جيداً ان العفو يجب ألا يشمله . (يشيح بنظره عنها) وربما اخرجوه الآن الى ساحة السجن . وما ان يظهر للناس ، حتى يغرقوا في رهبة الصمت . والشيء المهم ، ألا ينال منه البرد . هل تدري يا بوريا كيف يشنقون ؟

اننكوف – بطرف من حبل ! كفى يا دورا !

دورا (مصرة على الاستمرار) – ويقفز الجلاد على كتفيه ، فتكسر عنقه . الا ترى انه شيء رهيب ؟

اننكوف – اجل ، انه رهيب حقاً من جهة، ولكن من جهة ثانية ، هي السعادة بعينها .

دورا – السعادة ؟

اننكوف – ان يشعر بيد انسان فوق عنقه قبل ان يموت . (ترتمي دورا في مقعد وثير . (سكون) سوف نرتاح قليلا وينبغي ان نذهب بعد ذلك .

دورا (شاردة) – نذهب ؟ ولكن مع من؟

اننكوف – معي ، يا دورا .

دورا (تنظر اليه) – نذهب ! (تلتفت نحو النافذة.) هوذا الفجر قد اطل . لا بد ان

يانك قد مات الآن .

انتكوف – انني اخوك يا دورا .

دورا – اجل ، انت اخي ، وكلكم اخوتي الذين احبهم . (صوت المطر . يطلع النهار . تتمتم دورا بصوت منخفض.) ولكن اي مذاق م يكون للاخاء احياناً !

(يقرع الباب فيدخل فوانوف وستيبان. يتسمر الجميع في وقفتهم ؛ تتخاذل دورا ولكنها تتدارك نفسها بجهد ظاهر.)

ستيبـان (بصوت منخفض) – ان يانك لم يخن .

انتكوف – هل تمكن اورلوف من مشاهدة موته ؟

ستيبان – نعم .

دورا (متقدمة بثبات) – اجلس يا ستيبان، وقص علينا .

ستيبان – وما جدوى ذلك ؟

دورا – حدثني عن كل شيء . من حقي ان اعرف كل شيء . اني ألح عليك ان تحدثني ، وان تحدثني بالتفصيل .

ستيبان – لن استطيع . ثم ان علينا الآن ان نرحل .

دورا – كلا ، لا بد من ان تتكلم . متى اخبروه ؟

ستيبان : في العاشرة مساء .

دورا – ومتى شنقوه ؟

ستيبان – في الثانية صباحاً .

دورا–هل تركوه ينتظر مدة اربع ساعات؟

ستيبان – نعم ، ومن غير ان ينبس بكلمة . ثم جرى كل شيء بسرعة فائقة . والآن ، انتهى الامر .

دورا – اربع ساعات من غير كلام ؟ قل لي ماذا كان يرتدي ؟ هل كان عليه معطفه المخملي ؟

ستيبان – لا ، كان في حلة سوداء ، من غير معطف، وكان مرتدياً أيضاً قبعته السوداء .

دورا – كيف كان الطقس آنذاك ؟

ستيبان – كان الظلام دامساً ، وكان الثلج وسخاً ، ثم أحاله المطر الى طين لزج .

دورا – هل كان يرتعد؟

ستيبان – لا .

دورا – هل التقت نظراتـه مع نظرات اورلوف ؟

ستيبان – لا

دورا – إلام كان ينظر ؟

ستيبان – الى الناس اجمعين ، دون ان يرى شيئاً ، على ما قال اورلوف.

دورا – وبعد ذلك ؟ حدثني ، ماذا جرى بعد ذلك ؟

ستيبان – دعك يا دورا .

دورا – كلا ، بل اريد ان اعرف . فان موته هو ملكي على الاقل .

ستيبان – لقد تلوا عليه الحكم .

دورا – وماذا كان يفعل في تلك الاثناء ؟

ستيبان – لا شيء . وانما نفض ساقه مرة لينزع عن حذائه قليلاً من الوحل .

دورا (تمسك برأسها) – قليلاً من الوحل !

انتكوف (فجأة) – وكيف عرفت ذلك ؟ (يلزم ستيبان الصمت) وهل سألت اورلوف عن جميع التفاصيل؟ ولماذا ؟

ستيبان (يشيح ببصره) – كان بيني وبين يانك شيء ما .

انتكوف – وما ذلك الشيء ؟

ستيبان – كنت احسده .

دورا – وماذا بعد يا ستيبان ، ماذا ؟

ستيبان – لقد جاءه الاب فلورانسكي وقدم له المصلوب ، فرفض ان يلثمه وصـاح قائلا : « سبق ان قلت لكم ، انني قطعت الاسباب بيني وبين الحياة منذ امد ، وقد صفيت حسابي الآن مع الموت » .

دورا – وكيف كانت نبرات صوته ؟

ستيبان – هو نفسه . الا انه كانت تنقصه الحمية واللجاجة اللتان تعهدينهما فيه .

دورا – وهل كانت تبدو عليه السعادة ؟

انتكوف – هل انت مجنونة ؟

دورا – حتماً، وبكل تأكيد ، لا بد انه كان يبدو سعيداً . إذ انه كان يكون ظلماً ما بعده ظلم ألا يتلقى السعادة مع الموت في آن واحد، ما دام قد رفض السعادة في الحياة لكي يستعد احسن استعداد للتضحية . لقد كان سعيداً ، وقد مشى بخطوات ثابتة وهادئة نحو المشنقة، أليس كذلك؟

ستيبان – لقد مشى كما تصفين . وكان ينبعث من ضفة النهر آنذاك لحن منخفض برفقـة اكورديون . وفي تلك اللحظـة بالذات ، سمع نباح كلاب ...

دورا – وعند ذاك صعد الى المشنقة ...

ستيبان – اجل ، عند ذاك صعد . ولفه الليل بجناح دامس . ولم يكد الناس يتبينون الكفن الذي ارخاه عليه الجلاد .

دورا – وبعد ذلك ؟ ماذا جرى بعد ذاك ؟

ستيبان – ضوضاء وجلبة صماء .

في القدس .. عند المقبرة

في رأس كل سنة يسمح للعرب المقيمين تحت حكم اليهود ان يزوروا القدس ويقابلوا اقرباءهم الآتين من الاقطار العربية ليلة واحدة فقط ، ثم يعود كل منهم من حيث اتى ...

من جبال « الناصرة »
خالتي تكتب ..
« في رأس السنة
نلتقي في القدس .. عند المقبرة
وستأتي من بنات الحي ليلى ووداد
وسهاد
وسيأتي معنا الراعي فؤاد
ليغني يوم لقيانا غدا
« مايله عالغصن يا ريم الفلا »
فتعالي يا عيوني انها
ليلة من عمرنا الذاوي ولا
تحرمي عيني من طول البكا
فلقد صار البكا سلوتنا ...
وسأحكي لك عن عيشتنا
أخبري الاهل جميعاً اننا
نلتقي في القدس . . في رأس السنة »

وتلاقوا في بقايا المقبرة
في ظلال الشوك والصخر القديم
وتلاقت ذكريات النازحين
تتوارى
خلف آهات الحنين
وصراخ النادبين
وظلال الشوك والحائط والسور الحطيم
وسواد الليل عبر المقبرة
والعويل المر والشدو الحزين...
« انت يا ارض ملاذ البائسين
انت مأوانا ومثوى الخالدين
ارحمينا .. واحضنينا في اللحود
فزمان المجد ولى .. هل يعود ؟ !
اسألي الاحياء منا .. هل يعود ؟ ! »
ونداء الارض ..
« انا لن نلين

وسنبقى رغم ذل صامدين
نحن اقوى من نعيق الخائنين
نحن لن نفنى على مر السنين
دمنا يقسم ... إنا لن نلين ...

★

ومضى الليل ، نواح وانين
وبكاء خافت ، مضن ، حزين
وحكايات
عن الارض التي اضحت متاع الغاصبين ...
وتراتيل الشباب الحاقدين
ومع الشدو وآهات الدعاء
قطع الفجر لقاء الاقرباء
فضوا
في قلبهم رجع حداء ...
« يا رفاق الحي لن ننسى اللقاء
ملتقانا في جبال الناصرة ..

سمير صنبر

دورا — جلبة صماء . إيه يابانك ! وبعدئذ ؟...
(يسكت ستيبان .) قلت لك ، وبعد ذاك ؟
(يظل ستيبان على صمته) تكلم انت يا ألكسي ، قل لي وبعد ذاك ؟

فوانوف — صوت رهيب .

دورا — آه (ترتمي على الحائط .)

(يشيح ستيبان برأسه عنها . اننكوف يبكي من غير تعبير . تلتفت دورا وتنظر اليهم مستندة الى الحائط .)

دورا (بصوت شارد متغير) — لا تبكوا . لا ، لا ، لا تبكوا ! انكم لترون انه يوم التبرير ! في هذه الساعة بالذات ينبعث صوت غامض ، يشهد لنا نحن المتمردين : ان يانك لم يعد قاتلاً على الاطلاق . صوت رهيب ! لقد اكتفى بصوت رهيب ليعود الى فرح الاطفال وبراءتهم . أتذكرون ضحكته ؟ لقد كان يضحك دونما سبب احيانا . كم كان فتياً ! لا بد انه يضحك الآن ، لا بد انه يضحك ووجهه ملتصق بالتراب !
(تمشي نحو اننكوف) اي بوريا ، انك اخي أليس كذلك ؟ ولقد قلت انك ستساعدني .

اننكوف — أجل يا دورا .

دورا — افعل هذا اذن من اجلي . اعطني القنبلة . (ينظر اليها اننكوف) نعم ، في المرة القادمة ، لا بد ان اقذفها بيدي . اريد ان اكون اول من يقذفها .

اننكوف — انت تعلمين تماماً ، اننا لسنا نرغب في النساء يتقدمن الصفوف الامامية .

دورا (تصرخ بعنف) — أما زلت امرأة في نظركم ؟

(ينظر اليها الجميع ويخيم الصمت .)

فوانوف (برقة) — اقبل يا بوريا .

ستيبان — اجل ، اقبل بما تطلبه دورا .

اننكوف — ولكنه دورك هذه المرة يا ستيبان ، وانت المكلف بالقائها .

ستيبان (ناظراً الى دورا) — اقبل ، فانها الآن لتشبهني .

دورا — ستعطيني اياها ، أليس كذلك ؟ وسأقذفها . وفيا بعد ، في ليل بارد حالك السواد ...

اننكوف — اي دورا .

دورا (تبكي) — ايه يانك ! في ليل بارد حالك السواد ، وذاك الحبل بالذات ! ان كل شيء يهون منذ الآن :

— ستار الختام —



انك منذ اليوم * ستحاول ان تقبس مثالهم. أترى حيويتهم هذه الجديدة كيف تنعش وجودهم ، وتطل من أعينهم ضاحكة ؟ لقد كنت تعرف رصانة « كامل » في بيروت ، وتذكر حرصه الشديد على اجتناب الناس ، والانطواء على النفس ؛ ولم تنسَ بعدُ انك كنت تُنحي باللائمة على « زهير » وتنعى عليه هذا الحزن الدائم الذي كان يطبع حياته . و « أسعد » ؟ ألم تسمع هذه الضحكات المجلجلة التي كان يُرسلها وهو الذي كانت الصرامة دأبه في حياته العملية ، يوم كان له مكتب مقاولات في العاصمة ؟

كأنما هم ألقوا اثقال الرصانة التي كانت تُرهق اكتافهم في بلادهم ، وشعروا شعوراً عميقاً بانهم مدعوون الى ان يسوقوا في باريس حياة منطلقة لا يحد من حريتها قيد ، فاستجابوا لهذه الدعوة بكل ذرة من ذرات وجودهم ، وخلّفوا وراءهم اغلال ماضيهم .

مثلهم ينبغي ان تكون . ولا مفر لك من ذلك ان شئت ان تنسجم وهذه الحياة، وتتساوق مع جو باريس هذا، جو الشباب الصاخب ، الزاخر بالحميا والمرح . وليس لك خاصة ان ترفض دعوة « كامل » الى سهرة هذه الليلة في منزله . صحيح انك ستُلقى في وسط غريب لم تألفه ، ولكنك لن تلبث طويلاً حتى تنصهر في بوتقته . على ان امامك شرطاً واحداً لن يكلّفك كبير جهد ، هو ان تخنق ذلك التهيّب البليد الذي تتعثر به قدماك في كل خطوة ، كأنما انت طفل في سنيه الاولى .

وتردّد الطفل طويلاً قبل ان يجرؤ على طرق الباب حين بلغ منزل « كامل » ، وأوشك التردّد ان يتحول الى قرار بالعودة ساعة سمع صوت موسيقى وضحك فتيات . وطرقت اصابعه الباب طرقاً خفيفاً واهناً ، كأنما كان يقصد الا يسمعه احد . خير لي إذن ان اعود . سأرجع الى غرفتي ، فأقرأ في كتاب ، أو اخرج الى الشارع فأضرب فيه على غير هدى .

وكاد ينفتل حين رأى الباب يُفتح ويُطل منه وجه كامل :

– اوه ، هذا انت ؟ ما ادق مواعيدك ! اننا نهمّ بان نجلس للعشاء .

وجذبه من ذراعه ، واقتاده مسرعاً الى « الصالون » فتبعه متباطئاً ثقيل الخطو ، كأنما ينتعل حذاء من حديد .

– اقدّم لكم صديقي الشاعر اللبناني الذي كنت احدثكم عنه منذ لحظات ..

لتحلّ عليك لعنة الله ايها الشقي ! أكان من الضروري يا كامل ان تحدّثهم عن شعري ؟ إفرض ان احدى هؤلاء الفتيات رغبت اليه ان يُترجم قصيدة من قصائده الى الفرنسية فهل يكون هذا في طوقه ؟ كان يجب ان ...

– ولكن اقتربْ يا عزيزي ، وصافحْ كلاً منهم ، فنحن هنا اسرة ؛ النصف الافضل اولاً : سيمون ، جانيت، سوزان، هيلين و .. زينة . اننا نسمّيها « زينة » لانها تشبه البدويات ، ألا ترى ذلك ؟ ولعلّك تعرف بعد ذلك هذه الانصاف الخشنة:

صالح من بيروت ، وسعيد من دمشق ، واحمد من العراق ، وربيع من تونس .. برج بابل عربي !

وكان سعيد اول من تقدّم منه فشدّ على يده مرحّباً . وتشجع هو ، فراح يصافح سائر افراد الاسرة وهو يتمتم « تشرّفنا » . وأحسّ بان « زينة » تضغط على يده وهي تصافحه ، فكأنما تودّ ان تستبقيها في يدها ، أو لعله – هو – لا يعرف ان يصافح بحرارة . وتراجع يبحث عن كرسي ، فهتف به كامل :

– لا ، لا جلوس هنا ، بل الى المائدة – المتواضعة – فوراً . ان بوسعي الآن ان ألتهم جملاً ؛ ولكن ليس هناك مع الأسف إلا قطعة صغيرة ، بحجم الاذن ، من لحم البقر .

واتجه الجميع الى القاعة الاخرى ، فجلسوا الى طاولة صغيرة قامت في وسطها ، بينما انتحى احدَ اركانها سرير متواضع ، وقامت في ركن آخر خزانة ثياب صغيرة .

وأرسل انفاسه على مهل. إنّ كلاً منهم الآن معنيٌّ بطعامه، ولكنه لا يقصّر في الضحك والتفكّه ، ما أشدّ نهمهم الى الطعام، الى الضحك ، الى الحياة كلّها . وأخذ ينقّل نظره خفية بين الفتيات : «سيمون» وحدها كانت الجذّابة فيهن . اما سوزان

(*) فصل من رواية بهذا العنوان ، تصدر عما قريب .

التائه..

أينما سرت فالطريق عواءُ ... ظمأ صارخ وداء عياءُ
ولهيب يؤجّ في الخافق الدامي ... وروح تضيق عنه السماء
جفّ نبع الحياة في عمري الغض ... وماتت في مقلتي الاضواء
وورود الشباب صوّحها السقم فغاضت في قلبها الانداء
أينما سرت فالمنى تخنق الروح ... وقلب تنزّ منه الدماء
فعلى راحتيّ بقيا شبابٍ ... ؛ وبعيني دمعة خرساء
وبجنبيّ مهجة تتلوّى – من جروحٍ – ... ومضغة هوجاء

★

أيها التائه المعذب ... يا من ضحكت من طوافك الاقدارُ
يا غريب الديار... ودّع امانيك... فقد آن ان يموت النهار
آن للروح ان يحلّق في الكون بعيداً ... وملؤه الاسرار
آن ان تخنق السهاد بعينيك ... فقد طال يا شقيّ الاسار
طال مسراك هائماً.. في حمى الماضي.. وفي راحتيك شوك ونار
قد ضلت الدروب.. يا ايها التائه... هذا شبابك المنهار...
هذه دمعة الاسى بين جفنيك.. رثاءٌ.. وشقوة.. واحتضار..

★

وقفةً يا زمانُ.. لا تسرع الخطو، فعمري ما عاد إلا ثوانِ

انا ضيّعت في الكآبة احلامي .. وودّعتُ بهجة العنفوان
وبكيتُ الشباب يحرقه الوجدُ .. وتضنيه كاذبات الاماني
وحطّمتُ الكؤوس وهي حنينٌ وتسابيحُ في فم الأشجان
فتمهلْ فليس لي غير احلامٍ تهاوت في خاطر النسيان
إنها ذكريات قلبٍ شقيٍّ .. نثرتها زوابعُ الحرمان
إنها عالمٌ من السحر والفن .. ونبعٌ من الهوى والأغاني

★

يا اغاني الوداع... يا مأملي الحلو... ويا جنة الهوى الفواحِ
ما لقلبي الغريب يقذفه الموج حطاماً... على أكف الرياح ؟
كيف امضي؟ وقد تناثر حولي.. امل كان في الذرى من طماحي ؟
كيف امضي؟... وقد تلفّت يومي مشرئباً الى الغد الملتاح ؟
وغدي!... ما غدي ؟ أغيرُ شظايا من حياة مخضوبة بالجراح ؟
سوف يحثو الزمان فوق امانيّ تراب النسيان والأتراح
وستذوي اللحون فوق شفاهي
ويجفّ الرحيقُ في اقداحي

الموصل – العراق **محمود فتحي المحروق**

وجانيت وهيلين ، فكنّ فقط جميلات . واما « زينة » ، هذه التي يدعونها « زينة » ، فلا يدري ... بلى ، إنّ في نظراتها تحديقاً عميقاً يبعث على الخوف ، وعلى شفتيها الريانتين شهوة تسيل .

ولكن كيف اتيح لهم ان يجتمعوا كلهم هنا ؟ أية جرأة في إهاب كلٍ من هاتيك الفتيات ان تسعى الى لقاء حبيبها في غرفة صغيرة امام الجميع ؟! كفاك هذراً ! انت تنسى مرّةً اخرى انك في باريس ، أخرِجْها من نفسك ، بيروتك هذه ، أخرجها فاقتلْها ثم ادفنها . اما باريس ، فواجهها كما هي ، وتأمّلْها ملياً ، ولن تلبث هي نفسها ان تتسلل الى قلبك فتعيش فيه .

والآن ، ينبغي لك ان تقول شيئاً . لقد قال لهم صالح إنّك شاعر ، وانتهى الأمر . فمن يدري : لعل سوزان او جانيت تقول لنفسها هذه اللحظة : « نعم ، شاعر ، ولكنه أبكم ! »

– إذن ، ما هو الاسم الحقيقي لـ « زينة »؟

فضحكت زينة وأجابت على الفور : – كليوباطرة !

وانفجر الجميع بالضحك . وشعر بالدم يحرق وجهه . أتراهم يهزأون بي ؟ ولكن ما الذي قلتُه ؟ أكان خيراً لي ان اظلّ على صمتي ، أن اظلّ شاعراً أبكم ؟

– عفواً ، انني قصدت المزاح . اسمي مرغريت . اليس هو اسماً جميلاً ؟ الا يمكن ان يوحي اليك بشيء ؟

فضحك وأجاب ببساطة – : وكيف ! انه يوحي إليّ بديوان شعر من مئتي صفحة !

وأدهشه ان تصدي القاعة بالقهقهات . لقد انقذتَ نفسك . انه الشباب الذي لا همّ له ، ولا يحمل في صدره اية أوشاب . ولكن ، ألا تلاحظ انهم شربوا ثلاث زجاجات من الخمر ، وانت لمّا تفرغ كأسك الاولى ؟

وانبعث فجأة من « الصالون » نغمات تانغو حالم ، فألقى سعيد ما بيده من طعام ، وغمز سوزان بعينه . وما لبث أحمد ان جذب هيلين بقوة واللقمة تملأ فمه . وقال صالح :

– اما نحن ، فنفضل الطعام على الرقص ، اليس كذلك يا جانيت ؟

– بلى يا حبيبي .. أقصد اننا لن ننهض الى الرقص ، قبل ان تفرغ المائدة من الطعام !

وربيع وحده ظلّ يمضغ لقمته بهدوء ، وطيف بسمة يراود شفتيه . ولكن اتظلّ انت على وجلك ؟ انظر اليها : انها تودّ ان تراقصك . لا ، لا تخشَ شيئاً ولا تكن بليداً . إنه لا مجال للغيرة هنا. إن جميع الشبان يراقصون جميع الفتيات .ولكنها قد ترفض دعوتي ! ثم إنها ...

- الا يحب الشاعر الرقص ؟

وانتفض في مجلسه ، ثم ابتسم ، ثم نهض دون ما تريُّث :

– بلى ، وان كان لا يُحسنه كثيراً . ويسعده ان يراقص زينة ، يقصد كليوباطرة ، يقصد مرغريت ...

ونهضت ، تشعّ على شفتيها الممتلئتين بسمة رائقة ، وهي تنظر الى كامل . وقال كامل :

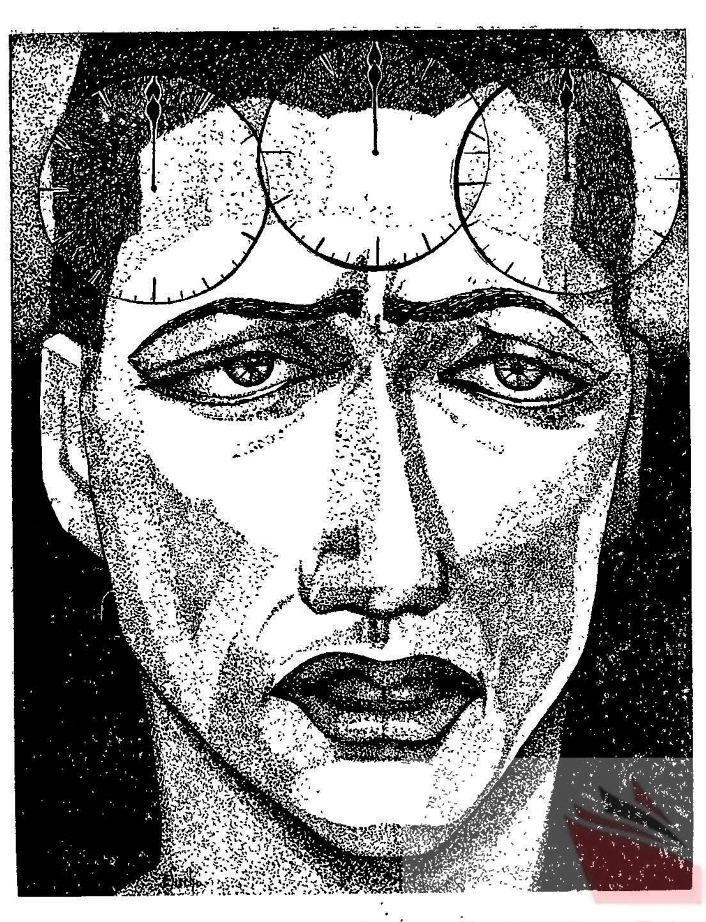
– ما دام ضيفنا العزيز لا يُحسن الرقص كثيراً ، فارقصي معه « البيبوب » يا مرغريت !

ولم ينتبه الى السخرية الصغيرة لأنه كان يفكر : إذن مرغريت هي صاحبة كامل ؟ لا ريب في انه ينعم بلذائذ جنتها الناضجة .إنه جدير حقاً بان يُحسد. هذا الجسد، ذانك النهدان...

وأحسّ بها ، بنهديها ، يرتعشان على صدره ، فيما هو يشدّها اليه ، وشعر بجسدها يرتخي بين ذراعيه ، وبفمها قريباً من فمه. وشمّ رائحة الخمر تنبعث قوية من فمها، وشمّ رائحة العرق تنبعث قوية من جسمها. امرأة بين ذراعيه ، ملء ذراعيه ، ملء كيانه . امرأة تُشتهى . امرأة تُقبّل شفتاها بجنون .

واصطكت ركبتاه ، وفقدت خطواته إيقاع الرقص ، فاضطربت وتعثرت . وشعر بان زينة تتحلل فجأة من ضمّته وهي تلتفت ناحية كامل ، في الغرفة الاخرى التي كان لا يزال يأكل فيها مع صحبه . وارتمت على مقعد قريب ، وهي ما تنفك تنظر اليه . ورأى في عينيها بريقاً ما أعجبه ! بريقاً لم يرَ – حياته – مثله في عيني امرأة .

وشاء ان يعود الى غرفة الطعام ، لكي يتحرك من مكانه



فقط ، ولكنه رآهم يخرجون الى قاعة الرقص ، من دون كامل الذي ظلّ يجمع الاواني والصحون . وهاهم الآن جميعاً يرقصون . ونظر الى زينة ، لا يدري لماذا ، فألفاها تنهض متثاقلة ، وتدخل غرفة الطعام فتغلق خلفها الباب . وسمع بعد لحظات صرير القفل .

ونقّل بصره بين الراقصين ، فأحسّ بان الجو الحميم الذي يغمرهم ، يغرقهم في صمت طافح بالحنين . ولاحظ ان سيمون تمنح « ربيع » شفتيها بنهم ، بينما توقف احمد وهيلين في وسط الحلبة وقد كفا عن الرقص ، فالتصق جسماهما وغرقا في قبلة لا تنتهي. اما سعيد، فكان يوسّد سوزان ذراعه، وقد استلقيا على ديوان في زاوية القاعة، فانكشف ثوب فتاته عن ساقيها العاجيتين.

وانطفأ النور الكهربائي الباهر . واضيء مصباح شاحب الضوء ، احمر اللون. ثم كفّت الموسيقى ، فساد صمت طويل ، كأن لم يكن ثمة انسان ، لولا ضحكات مكبوتة ، وتنهدات متقطعة واصوات لثات يبللها الرضاب. حبيبي . حبيبتي.

وانسلّ سريعاً خفيف الخطو ، كأنما ينتعل حذاء من حرير. حتى اذا بلغ الباب ، شقّه على مهل ، ثم ردّه خلفه دون ان

مُحكم إقفاله ، وابتلعته الطريق .

لا ، ما أشدّ ما اكره هذا الارتجال ! انني احب ان اتنبأ بالامور لأعدّ لها عدتها واتخيل كيف يمكن ان تجري . بذلك وحده اتفادى من الخيبة ، وافلت من عواقب المفاجآت . اي شيء كنت ارجو ان اصيبه في تلك السهرة ، هذه التي يطلقون عليها اسم « سوربريز بارتي » ؟ ما الذي قادني الى ان احشر نفسي في هذا الجو الحافل بالانسجام ؟ خمس فتيات لخمسة شبان ، حسبتني بينهم كاليتيم ، واحسستني دخيلاً ثقيل الظل . وما الذي نلته بعد ذلك ؟ اجساد . نهود . شفاه . رضاب . حبيبي . حبيبتي .

واطرق برأسه ، ومضى في طريقه ، وفي حلقه غصّة . ومال الى مقهى ، فشرب زجاجة من عصير الليمون ، وظلت في حلقه الغصة . والفى نفسه بعد حين في «روديزيكول» من غير ان يفهم تماماً كيف افضى اليه .

ولكن ماذا ؟ اتعود الى غرفتك ، ولما تتجاوز الساعة العاشرة والنصف ؟ واي شيء ترى ستفعل في غرفتك ؟ لقد خرج صديقاك صبحي وعدنان سعياً وراء المغامرة ، افتنوي ان تبقى وحدك ؟ انه لكذلك . اعرف ان الساعة لم تتجاوز العاشرة والنصف ، واعرف ان صبحي وعدنان غادرا الفندق . ساعود الى غرفتي واظل وحدي . اريد ان اظل وحدي . وحدي . ان الذين يتهمونك بالعناد الشديد ليسوا على خطأ كبير .

وارتمى في غرفته على الكرسي المريح ، ثم نهض وخلع ثيابه ببطء ، وغسل وجهه ، ثم ارتدى منامته واستلقى على سريره وقد شبك ذراعيه تحت رأسه . اتحسب انها هي التي ستُقبل للبحث عنك ؟ أتظن انها هي التي ستدنو منك فتبتسم لك ، ثم تنعطف نحوك وتهمس في اذنك : « انا التي تبحث عنها .. تعال احبّني ! »

تبحث عنها ، عن المرأة . تلك هي الحقيقة التي تنساها ، بل تتجاهلها . لقد اتيت الى باريس من أجلها . والآن ، ارأيت انك كنت مخدوعاً عن نفسك ، ساعة كنت تتصور انهن كثيرات كثيرات هنا ، وانه يكفيك ان تسير في الطريق ، ليتهافتن عليك ويحدثنك حديث الهوى ؟

ونهض من سريره ثائر الاعصاب . نقطة الماء . نقطة الماء هذه التي تسقط في المغسلة تثير حنقه بصوتها الرتيب . انها تسقط كل عشرين ثانية تقريباً . وكلما سقطت ، كان لصوتها نقرة تحدث في فكره ثغرة جديدة تقطع سلسلة افكاره . وشد اللولب شدّاً محكماً ، حتى اذا تيقن من انقطاع النقطة ، عاد فاستلقى على سريره . طبعاً . ان بوسعه الآن ان يفكر بهدوء او ينام براحة . اجل ، ينبغي لك ان تطلبها ، ان تنشدها ، ان تسعى في أثرها . انها هي هي .. في بيروت وباريس ، في جميع انحاء الدنيا . لقد خدعوك حين قالوا لك إن ..

وصكت سمعه فجأة دقات ساعة قريبة ، لا بد انها ساعة محافظة « الدائرة الخامسة » تجاه « البانتيون » . ولم يكن قد انتهى من عدّ دقاتها حين بدأت ساعة اخرى ، لعلها ساعة السوربون ، تدق دقات اقوى وأشدّ عزماً . واختلط عليه الامر ، فكفّ عن العد حتى انتهت الدقات . وفي اصداء رنينها ، سمع دقات بطيئة بعيدة ، ثقيلة ، كأنها خطوات عجوز تتناهى الى سمعه ، فقال انها ساعة كنيسة نوتردام . وحين تلاشت الاصداء ، اخذه العجب من أنه لم يتنبه قبل الآن الى هذه الساعات الثلاث . أفكانت معطلة ، أم نفسه كانت ، قبل هذه الليلة ، مكتظة بالأصوات ؟

وجعل ينتظر دقات الساعات الثلاث بعد ربع ساعة ، حتى اذا سمعها ، راح يترقب دقاتها مؤذنة بالنصف بعد الحادية عشرة . انفرطت سلسلة الافكار جميعاً ، ولا سبيل الى نظمها من جديد . ودخل صبحي الغرفة قبيل الثانية عشرة .

ــ الا تزال مستيقظاً ؟

ــ كنت على وشك ان انام فأيقظني دخولك .

ــ الا تودّ ان أقص عليك مغامرتنا اللذيذة الليلة ؟

ــ أرجوك يا عزيزي . ارجيء ذلك الى الغد . إن النعاس يقتلني .

ورأى صديقه يخلع ملابسه ويرتدي منامته على عجل ، ثم يستلقي على سريره ، وهو يزفر زفرة طويلة .

وانفجرت الساعات الثلاث تدقّ الثانية عشرة ، مختلطة الدقات .

ــ : أسمعت يا صبحي هذه الساعات الثلاث ؟

ولكن صبحي لم يُجب . لقد نام . لا بدّ انه التقى بها . وجدها هي ... المرأة .

وتقلّب في فراشه ، وعزم بدوره عزماً قوياً على النوم . ولكنه بعد لحظات ، فاجأ نفسه وهو يترقّب ان تدق الساعات الثلاث ، الربع بعد الثانية عشرة .



سهيل ادريس